الدكتور محمد العبد

المفارقة القرآنية

دراسة في بنية الدلالة

دار الفكر العربي

المفارقة القرآنية

دراسة في بنية الدلالة

الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

دار الفكر العربي

مطبعة الأمانة

٣ حدائق بيروت ت ٣٦٩٣٠٩

الاهـــداء

الى ايمـــن ٠

وافق ميلاده الانتهاء من هذا العمل !

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

يتنوع الخطاب تنوعا لا حدود له • وتتخذ المنطوقات بدورها أشكالا بنائية وموضوعية وفيرة ؛ فقد تكون غير مباشرة ، وقد تكون واضحة ، أو شاذة ، أو تهكمية ، أو مازحة ، أو خشنة ، أو غير مقبولة ، أو ساذجة لا تخلو من حمق •• الخ • والمفارقة واحدة من الامكانات الأسلوبية ، التى تقدمها منطوقات مختلفة فى النص القرآنى • واذا كانت دراسة المفارقة على المستوى اللغوى العام من الأهمية بمكان ، فان دراستها فى لغة القرآن الكريم بخاصة ، تعد عظيمة الخطر ، شريفة القدر •

تعرض المفارقة طريقة من طرائق استخدام اللغة فى السياق النصى ، والسياق الخارج عن النص • وتنعقد بنية الدلالة فى خطاب المفارقة ، على علاقة التضاد بين الدلالة الحرفية الأولية للمنطوق : لفظا ، أو مجموعة لفظية ، أو عبارة ، أو جملة ، أو ما فوق الجملة ، وبين دلالته المحولة التى يرشحها السياق بنوعيه السابقين ، وهى هذه الدلالة ، التى يمكن أن نطلق عليها هنا ، اسم « الدلالة المفارقية » •

وللمفارقة وظائف خطابية ، تدعو المخاطب أو القارىء ، أن يربط نفسه بها أشد ما يكون الربط ، لادراكها وتفسيرها تفسيرا مقبولا أو سليما • ولذلك ، كان بحثها ـ من ناحية

أخرى ـ مما يقود الى فهم أفضل لتركيب النص وطبيعته الخاصة، لأنها تفتح الباب على مصراعيه لملاحظة العلاقات النصية المتنوعة التى تكون أساسا للنص ٠

وتحتاج المفارقة ـ فى صناعتها ـ الى مهارة لغوية خاصة ، كما تحتاج الى احكام بالغ الدقة ، للعلاقة بين الشكل والوظيفة، او بعبارة أخرى : بين المقال والمقام ٠

وتعد المفارقة ـ من زاوية المعجمية التاريخية ـ عاملا من عوامل التطور الدلالى للغة ، من حيث ان اللفظ يكتسب معها معنى جديدا ، هو من معناه القديم بمنزلة النقيض ، وذلك حين يكون الخطاب للتهكم ونحوه ٠

ويحسب ما يعلمه صاحب هذا البحث ، فان العربية لم تعرف حتى الآن ، الا محاولتين اثنتين لدراسة المفارقة ٠ وهما محاولتان اشتغلتا ـ فى التطبيق ـ على نماذج من القص العربى المعاصر ، ونهجتا نهجا فنيا بلاغيا ، نواته المغزى(*) ٠ من أجل ذلك ، فاننا نحسب أن هذه الدراسة التى بين أيدينا ، هى أول دراسة موسعة فى العربية ، تدخل الى المفارقة : تنظيرا وتطبيقا من مدخل لغوى متخصص ٠ وهى ـ من ناحية أخرى ـ أول دراسة تحليلية متكاملة لخطاب المفارقة فى النص القرآنى سعت ـ فى وعى وحرص ـ الى الافادة من علوم لغوية مختلفة،

(*) الدراستان من مراجع البحث ، وهما : المفارقة ، للدكتورة نبيلة ابراهيم ، والمفارقة فى القص العربى المعاصر ، للدكتورة سيزا قاسم ٠ وقد نشرتا فى مجلة « فصول » ٠

استلزمتها مسألة التحليل ذاتها ، من حيث الاجراءات التطبيقية والمنطلقات المنهجية جميعا ، وأهم هذه العلوم : نظرية تحليل الخطاب ، وعلم اللغة النصى ، وعلم اللغة الأسلوبى ، فضلا عن علم اللغة العام ، بمستوياته التحليلية المختلفة .

وقد بدا للبحث ، أن نظرية تحليل الخطاب ، هى الدعامة النظرية الأهم والانسب ، التى يستند اليها التطبيق والتحليل والتفسير ، فى لغة المفارقة . فاذا كانت المفارقة ظاهرة سياقية فى أوليتها ، فان تحليل الخطاب فى جوهره ، طريقة من طرق النظر الى اللغة بما هى نص فى سياق astextin context *

واذا كان العارفون بنظرية تحليل الخطاب ، يدركون ما لهذا الاصطلاح ، فى السنوات الأخيرة ، من توزعات شتى : عند البلاغيين ، واللغويين الوظيفيين ، واللغويين الشكليين ، واللغويين الاجتماعيين ، واللغويين النفسيين ، وعلماء النفس المعرفيين ، واللغويين التطبيقيين ، بل عند علماء التعليم والباحثين فى الانشاء ، وعند علماء اللغة النصى ، وغيرهم ، فان هذا البحث ، قد مال ميلا أشد الى نهج اللغويين الوظيفيين وعلماء اللغة النصى ، فى تعاملهم مع كيفيات تحليل الخطاب . ويتضمن تحليل الخطاب عند اللغويين الوظيفيين ، دراسة العلاقات بين الشكل والوظيفة ، فى شرائح لغوية أكبر عادة من الجملة أو المنطوق ، وان كان من النادر ، أن تكون أكبر

(*) فصلت القول فى هذا الأمر فى بحث لى بعنوان « نظرية تحليل الخطاب » ، وهو بحث يعد الآن للطبع .

من الفقرة فى اللغة المكتوبة أو الحوار القصير فى اللغة المنطوقة .

ويتضمن تحليل الخطاب عند علماء اللغة النصى ، دراسة بنية النص ، وذلك ـ عادة ـ لفحص التنوع فى أنماطه ، أو اختبار السمات اللغوية المحددة لبنيته .

واذا كانت علوم النحو واللغة والبلاغة والتفسير وعلوم القرآن ، قد نهضت مع النص القرآنى وبه ـ على اختلاف فيما بينها فى الاختصاص والغاية ـ فان تحليل خطاب المفارقة فى النص القرآنى ، لن يكون ـ بحال ـ تحليلا لغويا متكاملا ، الا اذا أفاد حقا من معطيات هذه العلوم جميعا . وذلك أمر مهم ، اجتهدت هنا فى تحقيقه ، والعض عليه بالنواجذ قدر الطاقة !

ولا ريب أن هذا النهج مبرر بالرغبة فى الكشف عن الابنية المتفاعلة داخل النص ، وبيان أهمية المضامين أو المحتويات الخطابية ، وكشف أثرها فى تحديد الاختيار التركيبى ، أو سمات بنية الخطاب ، من الناحية المعرفية والأسلوبية .

وغنى عن البيان ، أن الانقطاع عن القديم ـ عند اقتضاء الاتصال به ـ فى أى بحث جديد ، يصبح مضرة للبحث ذاته ، واضعافا من قيمته وجدواه ، فى تأسيس بناء معرفى متين فى مجال اختصاصه . من هنا ، فان التأصيل النظرى ، وسعة الأفق التطبيقى ، يوجبان الاتصال بالقديم ، والبناء عليه بأساليب جديدة . وهو اتصال لا يتوقف عند ما يسعفنا به مجال التطبيق ، وانما يتجاوزه الى تحرى المستندات النظرية والفكرية الأصيلة ، التى تعمق تعاملنا مع النص ، وتوسع

معرفتنا به · ويظل صنيعنا في كل ذلك افادة وبناء ، لا نقلا واحتذاء · ولله در الجاحظ حين قال : « اذا سمعت الرجل يقول : ما ترك الأول للآخر شيئا ، فاعلم أنه ما يريد أن يفلح!» وأنا أصدر فى ذلك عن علم بأن لكل حالة آلة ، وأن ليس للباحث أن يجرى فيما لا يدرى !

ومهما يكن من أمر ، فقد جعلت هذا البحث فى بابين اثنين: أولهما مدخل نظرى ، ضم فصولا ثلاثة ، عرضت فى أولها لمفهوم المفارقة · وكشفت فى ثانيها عن طبيعة العلاقة بين المفارقة ومعنى المعنى · وفى الفصل الثالث ، كانت النظرة الى المفارقة فى ضوء السياق ·

أما الباب الثانى ، فهو دراسة تطبيقية للمفارقة القرآنية · وقد ضم فصولا سبعة ، هى ذاتها الأنواع المختلفة للمفارقة ، التى أمكننى استخراجها ، وتحليل نماذجها فى النص القرآنى وهذه الأنواع السبعة هى : مفارقة النغمة ، والمفارقة اللفظية ، ومفارقة الحكاية أو الايهام ، والمفارقة البنائية ، والالمأع ، ومفارقة المفهوم أو التصور ، ومفارقة التصور ، ومفارقة السلوك الحركى ·

ولم يدخر صاحب هذا البحث جهدا ، فى استقصاء النماذج وتحليلها ، وتفصيل القول فيما تقدمه من معطيات فونولوجية ونحوية وخطابية · وذلك فضلا عما تعول عليه من سياقات متنوعة ·

ونعنى بالمعطيات الفونولوجية : الفونيمات ، والمقاطع ، والمجموعة النغمية · ونعنى بالمعطيات النحوية : المورفيم،

والكلمة ، والمجموعة اللفظية ، والعبارة ، والجملة الكبرى . ونعنى بالمعطيات الخطابيه : الحدث اللفظى ، وحدث الوظيفة او المغزى ، والعلاقات البنائية والدلالية بين الوحدات الصغرى داخل البنيه اللغوية لما فوق الجملة . ونعنى بالسياقات هنا : السياقات اللغوية والسياقات غير اللغوية .

ولا ريب ان بحثا فى المفارقة اللغوية فى القرآن ، يعد عملا تأسيسيا فى مجال اهتمامه ، لانه يحث فى ارفع ما عرفه اللسان العربى من تعبير ، وأعلى ما ادركه من طاقات الايلاغ والافصاح . من اجل ذلك ، تظل الجهود المخلصة فى درس لغة التنزيل الحكيم درسا أصيلا - بالرغم من جهود القدماء فائقة القدر - أنبل مايزدهى به البحث اللغوى العربى المعاصر ، وهو الاحق بأن يشد اليه النحارير من علماء اللغة والأسلوب المعاصرين رحالهم ؛ حتى يظل دائما على حظه الأكفى وقدحه المعلى ! .

ولا يزعم هذا البحث ، أنه قد بلغ من الحال والمنزلة ، غاية ليس وراءها مطلع لناظر ، ولا زيادة لمستزيد ، ولا متجاوز لمجتهد ، ولكن حسبه أن يكون قد قدم الى مكتبة الدراسات اللغوية للقرآن جديدا ، وأن يجد فيه القراء والدارسون من الفائدة قدر ما بذل فيه من جهد ، وأن يكون بتجرده المنقطع حقا سواه فى تحليل لغة المفارقة : بنية ودلالة ، قد كشف عن بعض أسرار الاعجاز اللغوى للقرآن .

وبعد ، فأحمد الله تعالى ، وأسأله التوفيق للصواب .

المؤلف

البَاب الأول

مدخل الى نظرية المفـارقة

الفصل الأول : مفهوم المفـارقة ·

الفصل الثانى : المفـارقة ومعنى المعنى ·

الفصل الثالث : المفـارقة والسياق ·

الفصل الأول

مفهوم المفارقة

١/١/١ المفارقة irony صيغة من التعبير ، تفترض من المخاطب ازدواجية الاستماع double audience بمعنى أن المخاطب يدرك فى التعبير المنطوق معنى عرفيا يكمن فيه من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فانه يدرك أن هذا المنطوق utterance ـ فى هذا السياق بالذات ـ لا يصلح معه أن يؤخذ على قيمته السطحية(١) . ويعنى ذلك ، أن هذا المنطوق ، يرمى الى معنى آخر ، يحدده الموقف التبليغى ، وهو معنى مناقض عادة لهذا المعنى العرفى الحرفى .

بناء على ذلك ، تبدو المفارقة نوعا من التضاد ، بين المعنى المباشر المنطوق والمعنى غير المباشر . ويتخصص هذا المفهوم قليلا فى المفارقة الدرامية dramatic irony ، حيث تنطق الشخصية المسرحية بشىء له عندها وعند الشخصية الأخرى التى تخاطبها معنى ما ، ولكن هذا الشىء الذى تنطق به ، له

---

(١) Fowler, H., W., A Dictionary of Modern English Usage, Oxford (1926) p. 295.

عند النظارة معنى مختلف تماما (٢) ٠

ان هذا التضاد الذى نتحدث عنه ، يلحظه القارىء أو المخاطب من خلال السياق الراهن ٠ وقد كان ريتشاردز Richards يعرف المفارقة بأنها توازن الأضداد

(٣) equilibrium of oppositions

ان المفارقة ـ كما يقول فلايشر Fleischer وميشيل Michel ـ نوع من الدلالة المحولة فى مقابل الدلالة الأولية ٠ انها تصوير آخر للمعنى ، يومىء الى المعنى العكسى Gegenbedeutung ، ومن أجل ذلك يترجم ـ أو يحول ـ الى ضده ، فتقويم السلبيات مثلا ، يلمع ـ فى ظاهره ـ الى الضد الايجابى positives Gegenteil (٤) ٠

---

(٢) Abrams et al., The Norton Anthology of English Literature, Volume 1, 5th Edition; New York — London (1976) p. 2595.

(٣) Abrams, M., H., A Glossary of literary Terms, Holt, Rinehart and Winston, 4th. Edition (1981) p. 92.

وكان زايدلر Seidler يجعل المفارقة الصيغة الأعلى للتعبير عن الأوضاع التى تنشأ من الحصافة العقلية geistige Ueberlegenheit المضادة للعالم ٠ وهذه الحصافة هى غالبا الحالة الوحيدة المضادة لاقتحام متوعد ٠ انظر :

Seidler, Herbert, Allgemeine Stilistik, 2., neu-bear beitete Auflage, Goettingen Vandenhoeck und Rurrecht (1963) S. 344

(٤) Fleischer, W., Michel, G., Stilistik der deutschen Gegenwartssprache, VEB Bibliographisches Institut, Leipzig (1977) S. 155

والمفارقة تعبير انتقادى يعرض ملمحا سلبيا فيه مغالاة أو مبالغة ، فيهون من شأنه . وربما جعلت المفارقة - فى الوقت نفسه - أداة تلطيفية ، كأن يقال مثلا : هذه ليست فكرة غبية ! ففى هذه العبارة : اشارة الى قدر من الذكاء . فاذا قيل : هذه ليست - بحال - فكرة ذكية ، كان وضع الذكاء فى موضع الغباء ، علامة التخفيف أو التهوين من أمر الغباء ، على نحو تعبيرى تلميحى تلطيفى تهكمى ironisch euphemistisch (٥)

ان الأساس الذى تبنى عليه المفارقة اللغوية ، هو مفارقة التعبير المنطوق للمعنى المقصود ، الذى يحتمه السياق اللغوى ، أو الموقف التبليغى الراهن ، ويحدده . من أجل ذلك ، فان المفارقة اللغوية ، تكشف عن أمرين اثنين :

(أولهما) عنصر الاخفاء .

(والآخر) حقيقة كون المتخفى فى التعبير المنطوق ، هو المقصود اظهاره (٦) .

٢/١/١ وتتعدد صور المفارقة ووظائفها ؛ فقد تكون سلاحا للهجوم الساخر ، وقد تكون أشبه بستار رقيق ، يشف عما وراءه من هزيمة الانسان . وربما أدارت المفارقة ظهرها لعالمنا الواقعى وقلبته رأسا على عقب . وربما كانت المفارقة تهدف الى

---

(٥) المرجع السابق ص ١٥٦ .

(٦) Leech, N., Geoffrey, A Linguistic Guide to English Poetry, 7th Impression, London (1979) P. 171

اخراج أحشاء قلب الانسان الضحية لنرى مافيه من متناقضات وتضاربات تثير الضحك(٧) ٠

من أجل ذلك ، كانت المفارقة أداة أسلوبية فعالة للتهكم والاستهزاء ٠ ويخرج عن ذلك ، الاستهزاء الذى تخلو صياغته اللغوية من مفارقة اللفظ للمعنى ، بل يرد الى أدوات لغوية أسلوبية أخرى ، وهو ما نجده مثلا فى قوله تعالى : « أهذا الذى بعث الله رسولا »(٨) ، وقد جاء على لسان المشركين استهزاء بالرسول الكريم ٠ العبارة هنا أدت هذا المعنى بأدوات أهمها الاستفهام الاستنكارى والاشارة ٠

---

(٧) نبيلة ابراهيم (دكتورة) : المفارقة ، مجلة فصول ، المجلد السابع العددان الثالث والرابع (ابريل - سبتمبر) (١٩٨٧م) ص ١٣١ - ١٤١ ص ١٣٢ ٠

ويقول فريد ريك شليفل : « كل شىء فى المفارقة (irony) يجب أن يكون نكتة ، وكل شىء يجب أن يكون جديا ، أى بسيطا صريحا ومفرط التصنع فى آن ٠ ان المفارقة تظهر حين تتحد الرهافة ازاء فن الحياة مع الروح العلمية ، حين تتفق فيما بينها فلسفة الطبيعة كاملة مع فلسفه الفن كاملة ٠ انها تتضمن وتبعث فينا شعورا يتناقض لا حل له بين ما هو حتمى وما هو مشروط ، شعورا بتعذر الكمال فى القول وبضرورته ٠ انها أكثر الحريات حرية ، اذ بفضلها يستطيع الانسان أن يسمو على نفسه ، وعلى جميع ما يختص بها من معايير ، لأن المفارقة ضرورية حتما » (انظر : الوعى والفن لغيورغى غاتشف ، ترجمة دكتور نوفل نيوف ، مراجعة دكتور سعد مصلوح ، سلسلة عالم المعرفة - الكويت (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م) ص ٢٣٨) ٠

(٨) الفرقان ٤١ ٠

٣/١/١ ولا ريب أن عامل التهكم والهزء والسخرية(٩) من العوامل المهمة التى تؤدى الى قلب المعنى ، وتغيير الدلالة الى ضدها فى كثير من الأحيان .

وهذا مما لاحظه دكتور رمضان عبد التواب(١٠) . وضرب على ذلك أمثلة منها : كلمة « التعزير » ؛ فأصلها فى العربية التعظيم ، ومنه قوله تعالى : « لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه »(١١)،غير أنها تستعمل فى معنى التأديب والتعنيف

---

(٩) يفرق أبو هلال العسكرى (ت بعد سنة ٤٠٠هـ) بين الاستهزاء والسخرية ، بأن الانسان يستهزأ به من غير أن يسبق منه فعل يستهزأ به من أجله ، والسخر يدل على فعل يسبق من المسخور منه . وذلك أنك تقول: استهزأت به ، فتعدى الفعل منك بالباء ، والباء للالصاق ، كأنك ألصقت به استهزاءا من غير أن يدل على شيء وقع الاستهزاء من أجله وتقول : سخرت منه ، فيقتضى ذلك من وقع السخر من أجله ، كما تقول : تعجبت منه ، فيدل ذلك على فعل وقع للتعجب من أجله ، ويجوز أن يقال : أصل سخرت منه، التسخير ، وهو تذليل الشيء وجعلك اياه منقادا ، فكأنك اذا سخرت منه، جعلته كالمنقاد لك :

الفروق فى اللغة لأبى هلال العسكرى ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت، ط ٤ (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م) ص ٢٤٩ .

(١٠) رمضان عبد التواب (دكتور) : فصول فى فقه العربية ، مكتبة الخانجى بالقاهرة ودار الرفاعى بالرياض ، ط ٢ (١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م) ص ٣٤٩ .

(١١) الفتح ٩ ٤

واللوم تهكما واستهزاء بالمذنب !(١٢) ٠

وتذكر مصادر الأضداد فى تراثنا اللغوى ألفاظا أخرى ، أطلقت على أضدادها اطلاقا فيه تهكم ٠ من ذلك قول ابن الأنبارى (ت ٣٢٨هـ) : « ومما يشبه الأضداد أيضا ، قولهم للعاقل : يا عاقل ، وللجاهل اذا استهزءوا به : ياعاقل»(١٣) ٠ ويروى القدماء ألفاظا أخرى ، نلحظ فيها آثار التهكم ، نحو « التقريظ » ، وهى تعنى مدح الحى (فى مقابل « التأبين » التى تعنى مدح الميت) ، لكنها وردت عندهم بمعنى الذم أيضا(١٤) ٠ وذلك دون ريب ، من آثار التهكم والسخرية بالمذموم ٠

٤/١/١ واذا عدنا الى طبيعة المفارقة ، رأينا أن عناصر التعبير اللغوى قد تدل على معنى الاستحسان ، وان كان هذا المعنى ليس الا المعنى الظاهر أو المباشر overt or direct meaning الذى يتخذه هذا التعبير قناعا يخفى وراءه معنى

---

(١٢) ابن الأنبارى (أبو بكر) : الأضداد ، تحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم ، الكويت (١٩٦٠) ص ١٤٧ ، وقارن :
أبو الطيب اللغوى : الأضداد فى كلام العرب ، تحقيق دكتور عزة حسن ، دمشق (١٩٦٣م) ٢/٥٠٦ ٠

(١٣) الأضداد لابن الأنبارى ، مرجع سابق ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ ٠

(١٤) المرجع السابق ص ٣٩٢ ، وقارن :
الأضداد لقطرب، نشره هانز كوفلر فى مجلة اسلاميكا (١٩٣٢م) ص٣٦٧

آخر مستورا أو غير مباشر covert or oblique meaning وهو معنى الاستحسان . من هنا ، يكمن التهكم أو الاستهزاء sarcasm في قول نقيض الشيء المقصود قوله فعلا ، وذلك أن يكون المقال لطيفا ، بينما الذى أقصده فعلا فى هذا المقام بالذات - وهو ماينبغى للمخاطب أن يفهمه أيضا - أمر آخر كريه أو مستهجن . والمخاطب يرفض المعنى الظاهر للمقال ؛ لأنه يدرك تناقضه ، أو عدم تكافئه مع السياق . وعندما يومىء السياق الى استحالة التفسير الظاهرى للكلام ، فانه يومىء - فى الوقت ذاته - الى ضرورة تفسيره تفسيرا باطنيا ، وذلك أنك حين تنعت وضيعا بنعوت الشرف ، فهذا مما لا يؤخذ مأخذ الجد ! انه نوع مبالغة exaggeration . وهى مبالغة ترمى الى الهزء والسخرية ridicule . هنا تجد تضادا يجعل المفارقة أداة له . وينشأ هذا التضاد بين لفظ « الشرف » ومعانى « الضعة » أو « الخسة » التى يفرضها الموقف(١٥) .

يتبين لنا مما تقدم ، أن المفارقة اللغوية ، تتجه الى مخالفة ما يجرى تأكيده لما تكون عليه الحال الحاضرة فعلا ، وذلك ما يلحظه آبرامز Abrams (١٦) . ويتجلى من ذلك ، كيف يكون الرجوع الى المفارقة - عند أحد الكتاب - مدحا ضمنيا لذكاء القارىء ، الذى يربط نفسه بالكاتب ، حتى يدرك - على الأقل - مايريد التعبير عنه أو القصد اليه . وهذا مما

---

(١٥) Leech, A Linguistic Guide, op. cit., p. 172.

(١٦) Abrams, A Glossary, op. cit., p. 89.

يفسر لنا سبب سوء تفسير بعض المفارقات . ان المفارقات - عند بعض الكتاب - تعد اختبارا لمهارة القراء فى قراءة ما بين السطور(١٧) . ولعل مرد ذلك الى طبيعة المفارقة ذاتها؛ فالمفارقة - كما يقول كلينث بروكس Cleanth Brooks - هى لغة الفكر ، والصلابة ، والبراعة ، وسرعة الخاطر(١٨) .

١/١/٥ ولعل أهم محددات المفارقة ، ما تذكره الدكتورة نبيلة ابراهيم ، من عناصر نوجزها فيما يلى :

(أولا) وجود مستويين للمعنى فى التعبير الواحد : المستوى السطحى للكلام ، على نحو ما يعبر به ، والمستوى الكامن الذى لم يعبر عنه ، والذى يلح القارىء على اكتشافه .

(ثانيا) لا يتم الوصول الى ادراك المفارقة الا من خلال ادراك التعارض أو التناقض بين الحقائق على المستوى الشكلى للنص .

(ثالثا) لابد من وجود ضحية فى المفارقة(١٩) .

ويلاحظ أن الكلام المنطوق ، يعول على أدوات للمفارقة ، تنسجم مع طبيعته وخصائص تركيبه ؛ ففى الكلام المنطوق

---

(١٧) المرجع السابق ص ٩٠ .

(١٨) كلينث بروكس : لغة المفارقة ، ترجمة محمد منصور أبا حسين ، مجلة الدارة ، تصدر عن دارة الملك عبد العزيز بالرياض ، العدد الثانى، السنة السادسة عشرة (المحرم - صفر - ربيع الأول) (١٤١١هـ)ص١٧١

(١٩) نبيلة ابراهيم (دكتورة) : المفارقة ، مرجع سابق ص ١٣٣

« يمكن أن تنتقل المفارقة ، من خلال أنماط محددة من النبر stress والتنغيم intonation • وينتقل أيضا بواسطة وسائل فوق لغوية paralinguistic ، مثل الايقاع rhythm وطريقة الأداء Tempo ، ونغمة الصوت tone of voice وعلو الصوت loudness ، ونحو ذلك(٢٠) •

٦/١/١ هذا ، ولم أجد فيما وقع بين يدى من مصادر عربية قديمة : لغوية وبلاغية ، من ذكر مصطلح « المفارقة » • وما نجده فيها مقابلا للمفارقة ـ استنتاجا من النماذج المتمثل بها : فى المضمون العام والمغزى ـ هو اصطلاح « التهكم » • وقد ذكره البيانيون وعنوا به الى حد ما • ومن هنا ، يجوز لنا القول بأن ظاهرة المفارقة ، التى يهتم بها اليوم علماء الدلالة والأسلوب ، قد عرفت طريقها ـ على نحو ما ـ الى البحث البلاغى العربى القديم ، وبعض المباحث اللغوية اليسيرة ، تحت مصطلح « التهكم » •

ويعرف الزركشى (ت ٧٩٤هـ) التهكم بأنه « اخراج الكلام على ضد مقتضى الحال ، كقوله تعالى : « ذق انك أنت العزيز الكريم »(٢١) • فتراه يقترب اقترابا شديدا من حد المفارقة فى بحوث المعاصرين ، وان أغفل عنصر الضدية الملازم ، فى

---

(٢٠) Enkvist, Nils Erik, Linguistic Stylistics, Mouton, the the Hague — Paris (1973) p. 89.

(٢١) الزركشى (بدر الدين محمد بن عبد الله) : البرهان فى علوم القرآن ، دار المعرفة للطباعة والنشر (١٩٧٢م) ٤/٥٨ •

تعريفه التهكم فى موضع آخر ، بقوله : « الاستهزاء بالمخاطب، مأخوذ من « تهكم البئر » اذا تهدمت »(٢٢) .

وكان الزركشى قد أفرد فى برهانه بابا لوجوه الخطاب والمخاطبات فى القرآن ، وجعل منها خطاب التهكم(٢٣) .

ولصاحب (الطراز) : يحيى بن حمزة (ت ٧٤٥هـ) ، اشارات مفيدة الى هذه الظاهرة . وهى اشارات ترقى الى محاولات علمية تنظيرية أصيلة . عرف يحيى بن حمزة التهكم بقوله : « وهو تفعل ، من قولهم « تهكمت البئر » ، اذا تساقطت جوانبها . وهو عبارة عن شدة الغضب ، لأن الانسان اذا اشتد غضبه ، فانه يخرج عن حد الاستقامة وتتغير أحواله . وهو فى مصطلح علماء البيان عبارة عن اخراج الكلام على ضد مقتضى الحال استهزاء بالمخاطب . ودخوله كثير فى كلام الله تعالى ، وكلام رسوله ، وعلى ألسنة الفصحاء . وله موقع عظيم فى افادة البلاغة والفصاحة(٢٤) . فتراه فطنا الى أصل التهكم اللغوى ، والى عنصر الضدية فى حد التهكم ، والى الأثر البلاغى الذى يفيده هذا اللون من التعبير اللغوى .

وقد جعل يحيى بن حمزة للتهكم خمسة أوجه :

(أولها) أن يكون واردا على جهة الوعيد بلفظ الوعد

---

(٢٢) المرجع السابق ٢/٢٣١ .

(٢٣) المرجع نفسه ٢/٢٣١ وما بعدها .

(٢٤) العلوى (يحيى بن حمزة بن على بن ابراهيم العلوى اليمنى) : كتاب الطراز ، مكتبة المعارف ، الرياض، بدون تاريخ نشر ٣/١٦١ - ١٦٢.

تهكما ، وهذا كقوله تعالى : « فبشرهم بعذاب أليم » .

و (ثانيها) أن تورد صفات المدح والمقصود بها الذم ، كقوله تعالى : « ذق انك أنت العزيز الكريم » .

و (ثالثها) لم يسمه يحيى بن حمزة . ولنا ، من أمثلته ذاتها ، أن نسميه بما جاء على القلة والغرض التكثير والتحقيق للعلم بما ذكره ، كقوله تعالى : « قد يعلم الله المعوقين منكم » .

و (رابعها) لم يسمه كذلك . ولنا أن نسميه بما جاء على جهة التقليل ، وأخرج مخرج الشك ، والغرض به التكثير والتحقيق أيضا ، كقوله تعالى : « ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين » .

و (خامسها) لم يسمه هو لآخر ، ويمكن تسميته بالحكاية وذلك كقوله تعالى حكاية عن قوم شعيب : « انك لأنت الحليم الرشيد »(٢٥) .

وقد ارتأى يحيى بن حمزة ، أن التقسيم السابق الى هذه الأوجه المختلفة ، « ليس له ضابط يضبطه ، وانما الجامع لشتات معانيه ، هو ما ذكرناه من اخراج الكلام على خلاف مقتضى الحال ، فلابد من مراعاة ما ذكرناه ، وان اختلفت صوره »(٢٦) .

١/١/٧ واذا كنا آثرنا فى هذا البحث اصطلاح «المفارقة» فذلك أنه أخص من « التهكم » ، فى اشتراط عنصر الضدية

---

(٢٥) المرجع السابق ٣/١٦٢ ، ١٦٤ .
(٢٦) المرجع نفسه ٣/١٦٤ .

الذى يخلو منه التهكم فى حالات متنوعة ، ولأن المفارقة أشد ارتباطا بعلم الدلالة ـ لا سيما علم الدلالة المعجمى lexical semantics ، وعلم الأسلوب ـ لا سيما علم الأسلوب اللغوى Linguistic Stylistics . من ناحية أخرى فان تحليل المكونات اللغوية لبنية المفارقة ، وربطها بالعوامل الخطابية الواردة فى النص ، انما هى اجراءات لغوية فى أسسها وأولياتها .

الفصل الثانى

المفارقة ومعنى المعنى

١/٢/١ وتبقى المفارقة ، فيما رسم لها من حدود فى الفصل السابق ، شيئا مختلفا عن معنى المعنى ، بحسب ماحدده عبد القاهر الجرجانى (ت ٤٧١هـ) : وسيلة وغاية(٢٧) . لقد جعل عبد القاهر الكلام على ضربين : المعنى ، ومعنى المعنى . والمعنى عنده : المفهول من ظاهر اللفظ ، والذى نصل اليه بغير واسطة . أما معنى المعنى ، فهو أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضى بك ذاك المعنى الى معنى آخر(٢٨) .

ويجعل عبد القاهر مدار الأمر فى معنى المعنى ، على الكناية والاستعارة ، والتمثيل(٢٩) . ومثال ذلك قولهم : كثير رماد القدر ، وطويل النجاد،وقولهم فى المرأة : نؤوم الضحى(٣٠) . فانك فى جميع ذلك ـ كما يقول عبد القاهر ـ لا تفيد غرضك

---

(٢٧) قدم دكتور عز الدين اسماعيل اضاءات باهرة لنظرية معنى المعنى عند عبد القاهر فى بحثه (قراءة فى معنى المعنى عند عبد القاهر الجرجانى) ـ مجلة فصول ، المجلد السابع ، العددان الثالث والرابع (أبريل ـ سبتمبر ١٩٨٧م) ص ٣٧ ـ ٤٥ .

(٢٨) الجرجانى (عبد القاهر) : دلائل الاعجاز ، دار المعرفة ، طبعة السيد محمد رشيد رضا ، بيروت (١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م) ص ٢٠٣ .

(٢٩) المرجع السابق ص ٢٠٢ .

(٣٠) المرجع نفسه ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

الذى تعنى من مجرد اللفظ ، ولكن يدل اللفظ على معناه الذى يوجبه ظاهره ، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى - على سبيل الاستدلال - معنى ثانيا ، هو غرضك ، كمعرفتك من كثير رماد القدر أنه مضياف ، ومن طويل النجاد أنه طويل القامة ، ومن نؤوم الضحى فى المرأة أنها مترفة مخدومة ، لها من يكفيها أمرها.. الخ(٣١) .

٢/٢/١ ولعل من المناسب ، أن نربط بين كلام عبد القاهر السابق ، وما يقول به الآن ، أصحاب نظرية الحدث الكلامى Speech act theory ، حين يبحثون فى المعنى المباشر direct meaning والمعنى الاستعارى metaphorical meaning والمعنى المفارقى ironical meaning ، والحدث الكلامى غير المباشر indirect speech act ، ويظهرون ما بينها جميعا من فروق وتشابهات .

ان أبسط حالات المعنى ، هى تلك التى يلفظ فيها المتكلم بجملة ، ويعنى ما يقوله تماما وحرفيا . فى مثل تلك الحالات يعتمد المتكلم على انتاج تأثير وظيفى أو مغزوى illocutionary effect فى المستمع . وهو يعتمد فى انتاج هذا التأثير على حمل المستمع على تعرف مقصده ؛ لتحقيق هذا المقصد . وهو يعتمد على حمل المستمع بالقوانين التى تحكم منطوق هذه

---

(٣١) دلائل الاعجاز ، مرجع سابق ص ٢٠٣ .

الجملة . ولكن ليست كل حالات المعنى بهذه البساطة: ففى الالماع hint ، والتلميح أو اللمز insinuation ، والمفارقة irony ، والاستعارة metaphor ، ينفرد معنى المنطوق utterance meaning عن معنى الجملة sentence meaning على أنحاء متنوعة(٣٢) .

واذا كان عبد القاهر يشير ، فى نصه السابق ، الى أننا فى افادة الغرض الذى نعنيه ، لا نقف عند مجرد اللفظ ، بل ان السامع يعقل من المعنى الظاهر ، معنى ثانيا على سبيل الاستدلال ، فان أصحاب نظرية الحدث اللغوى يطرحون اشكالية : كيف يكون ممكنا أن نقول شيئا ما ونقصد شيئاً سواه ؟ كيف ينجح المرء فى ابلاغ ما يعنيه ، بالرغم من أن كلا من المتكلم والمستمع ، يدرك أن معانى الكلمات التى ينطقها المتكلم لا تعبر تماما وحرفيا عما يعنيه هذا المتكلم ؟ انهم يبحثون الآن ، فى الحالات التى ينقطع فيها معنى المنطوق عند المتكلم speaker's utterance meaning عن معنى الجملة الحرفى literal sentence meaning ، نحو : الاستعارة ، والمفارقة .

---

(٣٢) Searle, John, R., Expression and Meaning, Studies in the Theory of Speech Acts, Cambridge Uni. Press (1993) p. 30.

والأحداث الكلامية غير المباشرة(٣٣) ٠

فى مثل هذه الحالات ، لا يتطابق ما يعنيه المتكلم مع ما تعنيه الجملة ٠ ومع ذلك ، فان ما يعنيه المتكلم ، يعتمد ـ من وجوه متنوعة ـ على ما تعنيه الجملة ٠

٣/٢/١ ان ما يعنيه المتكلم ينطق كلمات ، أو جمل ، أو تعبيرات ، هو ما يطلقون عليه ـ اختصارا ـ معنى المنطوق عند المتكلم (أو معنى منطوق المتكلم) ، بينما يطلقون على ما تعنيه الكلمات ، والجمل ، والتعبيرات ذاتها ، اسم معنى الكلمة أو الجملة ٠ والمعنى الاستعارى ، هو دائما معنى منطوق المتكلم ٠ وفى هذه المسألة يضارع المعنى المفارقى المعنى الاستعارى ٠ بيد أن المتكلم فى الاستعارة ، بما هو متكلم على المجاز ، لا يعنى ما يقوله حرفيا ، بل يعنى شيئا أكثر منه ، بينما يعنى المتكلم فى المفارقة نقيض ما يقوله ٠

---

(٣٣) المرجع السابق ص ٧٦ ، ٧٧ ٠

ولعل من المفيد هنا ، أن نشير الى أن فكرة الحدث الكلامى ذات أهميه خاصة ، فى تعيين الأنماط المتعددة لاستجابات المستمع فى علاقته بمقاصد المتكلم ٠ وقد اعتمد ذلك كثيرا على محاولة المتكلم تحقيق التأثير بفضل منطوقه الخاص his own utterance (قوة حدث المغزى أو الوظيفة illocutionary force) وعلى كون قوة حدث التأثير perlocutionary force لمنطوق ما ، تعنى التأثير فى استجابة المستمع (انظر :

Hartmann, R., R. K., Contrastive Textology, Comparative Discourse, Julius Groos Verlag, Heidelberg (1980) p. 16

وحتى يستطيع المتكلم اقامة الاتصال مستخدما منطوقات استعارية metaphorical utterances ، أو منطوقات مفارقية ironical utterances ، أو أحداثا كلامية غير مباشرة indirect speech acts ، فلا بد من توفر بعض المبادىء ، تبعا لمقدرة المتكلم على أن يعنى أكثر مما يقوله ، أو يعنى شيئا مختلفا عما يقوله • وهى مبادىء معروفة لدى المستمع الذى يستطيع ـ مستخدما معرفته ـ فهم ما يعنيه المتكلم(٣٤) •

واذا كان معنى المتكلم فى المفارقة ـ كما فى الاستعارة ـ يختلف عن معنى الجملة ، فان الميكانيزم الذى تشتغل عليه المفارقة ، هو المنطوق ؛ وذلك أن هذا المنطوق اذا أخذ حرفيا literally ، بدا ـ فى وضوح ـ غير ملائم للموقف situation ولأنه غير ملائم على الاطلاق ، فان المستمع مضطر الى اعادة تفسيره على هذا النحو؛لارجاعه الى أن يكون ملائما • والطريقة الأكثر طبيعة لتفسيره ، من حيث معناه ، هى بالنقيض opposite من صيغته الحرفية literal form (٣٥) •

---

(٣٤) المرجع السابق ص ٧٧ •

(٣٥) المرجع السابق ص ١١٣

٤/٢/١ ويفرق جون ر. سيرل John R. Searle بين أشكال المعنى فى المنطوقات السابقة من خلال الرسوم التوضيحية التالية :

١ - المنطوق الحرفى Literal utterance :

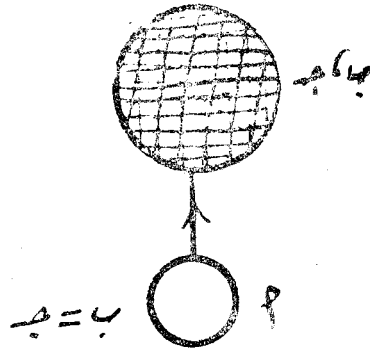

المتكلم هنا يقول أ فتكون ب ، ويعنى أن أ هى ب . على هذا النحو ، فالمتكلم يضع موضوعا هو أ تحت المفهوم ب ، حيثما ب = جـ . هنا اذن ، يتطابق معنى الجملة مع معنى المنطوق .

٢ - المنطوق الاستعارى (البسيط)

Metaphorical Utterance (simple)

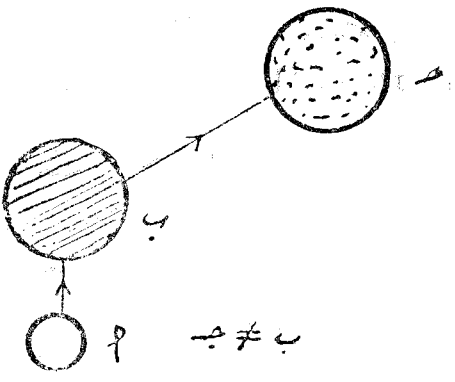

المتكلم يقول أ فتكون ب ، ولكنه يعنى - استعاريا - أن أ هى جـ . يتوصل الى معنى المنطوق هنا بالمرور خلال معنى الجملة الحرفى literal sentence meaning

٣ - المنطوق الاستعارى (مفتوح النهاية)

Metaphorical Utterance (open ended)

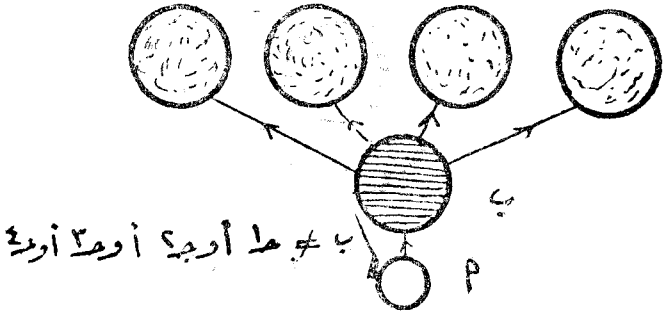

(٣ - للفارقة)

المتكلم يقول أ فتكون ب ، ولكنه يعنى ـ استعاريا ـ سلسلة غير محددة من المعانى ، ف أ هى جـ ١ ، وأ هى جـ ٢ ٠٠٠ الخ٠ وعلى نحو ما كان فى حالة المنطوق الاستعارى البسيط ، فان المعنى الاستعارى ، يتوصل اليه ، بالمرور خلال المعنى الحرفى٠

٤ ـ الحدث الكلامى غير المباشر Indirect Speech Act

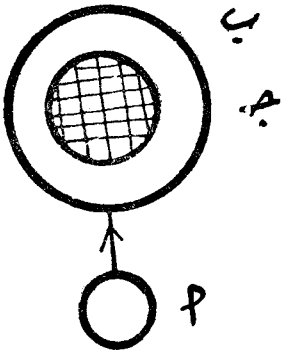

ب متضمنة فى جـ ، ولكن

ب ≠ جـ

هنا يعنى المتكلم ما يقوله ٠ ولكنه يعنى شيئا أكثر من ذلك ٠ من ثم ، فان معنى المنطوق ينطوى على معنى الجملة ، ولكنه يتجاوزه أو يمتد خلفه ٠

٥ ـ المنطوق المفارقى Ironical Utterance

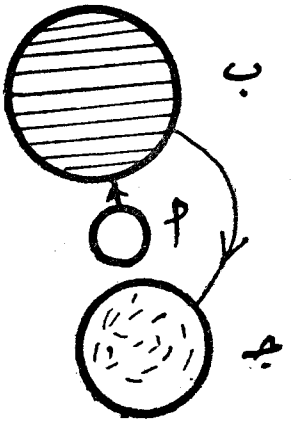

جـ = نقيض ب

المتكلم هنا يعنى نقيض ما يقوله • ويتوصل الى معنى المنطوق Utterance meaning بالمرور خلال معنى الجملة sentence meaning ، ثم عودة مزدوجة الى نقيض معنى الجملة(٣٦) •

هكذا ، تتبدى التشابهات ، كما تتبدى الفروق الجوهرية بين المنطوق المفارقى والمنطوقات الأخرى • وكما أن الفرق بين الأحداث الكلامية المباشرة والأحداث الكلامية غير المباشرة ، يبقى صحيحا لا يمس ، فان الفرق بين معنى الجملة الحرفى ، ومعنى المنطوق الاستعارى ، ومعنى المنطوق المفارقى ، يبقى كذلك فرقا صحيحا لا يمس •

٥/٢/١ ولنا الآن أن نسأل : لماذا نستخدم التعبيرات استخداما مفارقيا ، بالرغم من امكانية قول ما نعنيه تماما وحرفيا ؟ نقول : ان ذلك يرجع الى أن التعبير المفارقى = ويشترك معه فى ذلك التعبير الاستعارى والأحداث اللغوية غير المباشرة ، مع ما بينها جميعا من فروق واختلافات ـ هو انتقال من الآلية والمباشرة والحرفية ، الى الحركية والتعبيرية وشد عرى الخطاب • ان المفارقة ، ومعها التعبيرات الأخرى غير المباشرة ، تعد حالة خاصة من اشكالية عامة ، عن تفسير كيفية انفراد معنى المتكلم عن معنى الجملة أو الكلمة •

---

(٣٦) المرجع السابق ص ١١٥ •

٦/٢/١ من ناحية أخرى ، فانه بتركنا استخدام التعبير المفارقى ، لن ننتج المحتوى الدلالى Semantic content الذى يتناهى الى عقل (فهم) السامع للمنطوق hearer's comprehension of the Utterance

ان الطاقة التعبيرية expressive power التى نشعر بها مع المفارقة ، تنطلق من جعلها المفارقة ، أعظم اسهاما فى عملية الاتصال ، من مجرد الفهم السلبى passive uptake • والمستمع هنا ، يجد لديه ما يفعله ، حين يربط نفسه بالآخر ، بما عنده من محتوى دلالى ، يود أن يقيم به اتصالا • كيف لا يكون ذلك كله ، والمستمع مطالب بأن يفقه السياق ، ويقف على الدور الذى يلعبه فى انتاج المنطوقات المفارقية وفهمها • انه ـ كما سبق القول ـ مطالب بأن يتوصل الى معنى المنطوق ، بالمرور خلال معنى الجملة ، ثم انه يعود عودة مزدوجة الى نقيض معنى الجملة؛ لكى يعيد للمنطوق الحرفى ملاءمته للموقف •

٧/٢/١ ان المقدمات السابقة جميعا ، تقودنا الى القول بأن المفارقة ـ وان دنت من الاطار الدلالى العام الذى تندرج فيه هذه التعبيرات: كناية واستعارة وتمثيلا، من حيث الاتساع والمجاز والاضراب عن المعنى المباشر ووجوب الاستدلال فى ذلك كله ـ أنها لا تعنى عادة لازم اللفظ ، على نحو ما نجد فى: تؤوم الضحى وغيرها ، انها تخرج على ظاهر التعبير ، الى ما يناقض ذلك الظاهر بافادة السياق • من هنا ، يمكننا القول

بأن الدلالة فى المفارقة دلالة لفظية سياقية ، تخرج على معنى الجملة الحرفى الى معنى المتكلم ، على ظاهر المعنى الى ضده ، على المعنى الحرفى الى المدلول الذى تنتجه المقابلة ، بما هي - اتساعا - تضاد لغوى سياقى بين فعلين ، أو حدثين ، أو موقفين ، أو غطين سلوكيين ، أو نحو ذلك ٠

٨/٢/١ ان المفارقة - وان كانت الكناية أو الاستعارة أو التمثيل ، أحيانا ، صياغة من صياغتها الأسلوبية - تخرج على الظاهر الى الباطن النقيض ، ولا تخرج على الظاهر الى لازم معنى اللفظ ، أو تخرج على المعنى الحرفى السطحى literal surface meaning الى المعنى المجازى العميق allegorical deep meaning

ان المفارقة - كما يقول انكفست Enkvist - تعتمد على قوة التوتر tension بين المعنى السطحى والمعنى المضاد له(٣٧) ٠ ولا يخفى ، أن هذا المعنى المضاد ، هو - فى أوليته - تعبير انتقادى تهكمى ٠

ولما كانت المفارقة تشتمل على دال واحد ومدلولين اثنين: الأول حرفى ، وظاهر ، وجلى ، والثانى : متعلق بالمغزى ، وموحى به ، وخفى ، أمكن أن يقال : « ان المفارقة تشبه الاستعارة في هذه البنية ذات الدلالة الثنائية ، غير أن المفارقة

---

(٣٧) Enkvist. N., E., Linguistic Stylistics, ibid. p. 88

تشتمل أيضا على علامة marker توجه انتباه المخاطب نحو التفسير السليم . انها تقوم بتبليغ communicatia رسالة تشتمل على اشارة ، توضح طبيعة هذه الرسالة meta-communication وعندئذ توازى الرسالة الأصلية رسالة أخرى، توضح الطبيعة الصحيحة لمغزى المفارقة . ولذلك ، فان حل شفرة المفارقة ، يستلزم مهارة خاصة لفهم العلامة marker »(٣٨) .

---

(٣٨) سيزا قاسم (دكتورة) : المفارقة فى القص العربى المعاصر ، مجلة فصول ، المجلد الثانى ، العدد الثانى (يناير - فبراير - مارس) ١٩٨٢ ص ١٤٣ - ١٥١ ص ١٤٤ .

الفصل الثالث

المفارقة والسياق

١/٣/١ ان أهم ما يعول عليه فى تجاوز المعنى الحرفى المباشر ، الى المعنى الأسلوبى المفارقى ، هو السياق • ونعنى به هنا ، السياق اللغوى ، وسياق المقام أو الموقف التبليغى ، والسياق التاريخى أو السياق الخارج عن النص •

٢/٣/١ وقد لقيت نظرية السياق عناية خاصة فى كل مدارس علم اللغة الحديث ، فقد تناول اللغويون المحدثون السياق فى اطار تأكيدهم للوظيفة الاجتماعية للغة ، وبيان أثر السياق فى البنية ، ودوره فى تنوع الدلالة • بقول بلومفيلد : « ان معنى الصيغة هو الموقف الذى ينطلق فيه المتكلم بتلك الصيغة • وهو الاستجابة التى تصدر عن المستمع • ويرتبط موقف المتكلم واستجابة المستمع أحدهما بالآخر ارتباطا وثيقا »(٣٩) •

ويرى فيرث Firth ، أن اللغة ليس لها أهمية الا فى سياقها الموقفى(٤٠) • وينص على أن الكلام شىء ديناميكى ؛

---

(٣٩) Bloomfield, Language, Uni. of Chicago U.S.A. (1984) pp. 139 - 140.

(٤٠) Caulthard, Malcolm, An Introduction to Discourse Analysis, Longman Group LTD England (1977) p. 1

لأنه نشاط شخصى واجتماعى ، يتفاعل مع قوى أخرى فى موقف بعينه(٤١) .

ومن نظريات المعنى ، النظرية المعروفة بالسياقية أو الوظيفية . والأساس فى هذه النظرية أن معنى الكلمة - كما يقول جان كوهين Jean Cohen - هو مجمل السياقات التى يمكن أن تنتمى اليها . والمعنى هنا يلحق بالتركيب(٤٢).

وينبه فان دايك Van Dyk الى أن الموقف متوالية من الحالات ، وأن المواقف التبليغية لا تظل متشابهة عبر الزمن بل هى متغيرة . ومن أجل ذلك ، فان الموقف التبليغى متوالية من الأحداث Course of event . ويشير فان دايك الى ما يسمى بالسياق الراهن actual context وهو السياق الممكن فى حالة محددة . وهو يتحدد بجزء من الزمان والمكان اللذين تتحقق فيهما النشاطات المشتركة بين المتكلم والمستمع اللذين يحددان خواص الـ (هنا) والـ (الآن) منطقيا ، وفيزيقيا ، ومعرفيا(٤٣) .

---

(٤١) Firth, J. R. The ttongues of Men and Speech, Oxford Uni. Press, London (1978) p. 18.

(٤٢) جان كوهين : بناء لغة الشعر ، ترجمة دكتور أحمد درويش مكتبة الزهراء ، القاهرة (١٩٨٥م) ص ١٣٣ .

(٤٣) Van Dijk, T. Text and Context, Explorations in the Semantics and Pragmatics of Discourse, Longman, London and New York (1977) pp. 191 - 192.

وقد عرف الأسلوب نفسه ، بأنه تنوع لغوى مرتبط بالسياق ، فاللغة تمارس فى مواقف لغوية ٠

ويحدد انكفست Enkvist طريقتين اثنتين للكشف عن العلاقة بين التنويعات اللغوية وسياقاتها :

(الأولى) فصل النص عن سياقه الخاص ، وذلك لملاحظة أنماط اللغة المستخدمة فيه ٠

و (الثانية) دراسة أثر السياق فى السمات اللغوية للنص، وهى بذلك عكس الطريقة الأولى ٠

ونحن نستخدم الطريقتين معا : فعندما نريد أن نعرض النص فى اطار سياقه ، نبدأ عادة بالسياقات ٠ وعندما نريد تأمل النص بعيدا عن سياقه ، فاننا نعود بمعارفنا الى الوراء مع الفقرات الأولى ، لنتصور السياق المحتمل الذى استخدمت فيه اللغة(٤٤) ٠

٣/٣/١ ويؤكد أصحاب نظرية تحليل الخطاب ، أن محلل الخطاب ، يحتاج الى تقرير العلامات السياقية التى توائم

وانظر فى تفصيل القول فى السياق والموقف التبليغى : محمد العبد (دكتور) : اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة : بحث فى النظرية ، دارالفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة ـ باريس ، (الطبعة الأولى (١٩٩٠م) ص ٦٩ ـ ٨١ ، ص ١١٢ ـ ١٢٠ ٠

(٤٤) Enkvist, Linguistic Stylistics, ibid, pp. 28 - 29.

تفسيره لشريحة خاصة من الخطاب • ولابد من فحص محتوى النص • ومن محتوى النص يستطيع المحلل ـ من حيث المبدأ ـ تحديد الجوانب المؤثرة من السياق فى النص ، وهى تلك الجوانب التى تعرف باسم العلامات الايجابية من السياق activated features of context وتصنع هذه العلامات الاطار السياقى الذى يتشكل داخله ما يعرف باطار المحور the topic framework • (٤٥)

ان المنطوقات ـ عند مدرسة تحليل الخطاب ـ تمثل أحداثا actions • واذا كانت البداية بدراسة كيفية استخدام اللغة فى تفاعل اجتماعى ، فلن يكون التبليغ ممكنا الا بالمعرفة بالمواضعات المشتركة بين المتكلمين والمستمعين • ويترتب على ذلك ، أن اللغة والسياق متلازمان(٤٦) •

وتتبدل السياقات وتصنع باستخدام اللغة على أنحاء مختلفة؛ وذلك نحو اختيار الهمس الرقيق أو الصياح أو التنديد أو التشكى أو الاتهام • أن أى اختيار من العلمات يبتكر عالما صغيرا mini-world ، أو كونا من الخطاب universe of discourse ويضع كذلك توقعات لما يمكن أن يقع بالمثل فى السياق ذاته •

---

(٤٥) Brown, Gillian / Yule, George, Discourse Analysis, Cambridge Uni. Press (1983) p. 75.

(٤٦) Stubbs, Michael, Discourse Analysis, The Sociolinguistic Analysis of Natural Languaga, Basil Blackwell, Oxford (1989), p. 1

ومن الوضوح بمكان ، أن اللغة لا تؤخذ حرفيا • انها تستخدم لانجاز أفعال • وباختلاف السياقات الاجتماعية تختلف اللغة(٤٧) •

ان مثل هذه النظرة الى اللغة ، بما هى فعل فى سياق بعينه as action in context ، كانت قد عرفت طريقها عند مالينوفسكى Malinowski ، فى العشرينات من هذا القرن ، ولكنها لم تكن النظرة المركزية فى كثير من علم اللغة الحديث(٤٨) •

٤/٣/١ ان الأحداث الكلامية speech acts ، لا تتحدد تماما عن طريق الصيغة النحوية الدلالية للجمل - Syntactico Semantic form ، ولكن يتوصل اليها عن طريق المنطوقات فى السياق utterances in context • ولذلك ، يبدو الأمر مع تلك الأحداث ، أمر أداء performance لا أمر كفاية Competence • ان الجمل ليست أبدا ذات قيمة صوابية أو ما صدقية truth value دائما وعلى نحو مجرد • ولكن الصواب (أو الحقيقة) فيها ، هو بالنسبة لاستعمالها فى سياقات بعينها • وهذه الاعتبارات ، لها ما يربطها بالتقابلات التى تذكر غالبا ، نحو : الكفاية / الأداء / الجملة / المنطوق(٤٩) •

---

(٤٧) المرجع السابق ص ٢ •
(٤٨) المرجع نفسه ص ٣ •
(٤٩) المرجع نفسه ص ٨٥ •

١/٣/٥ ان الوحدة الأساسية فى تحليل الخطاب ، هى المنطوق لا الجملة • وقد جعل ذلك من باب المقابلة بين اعمال السياق Contextualisation وابطاله Decontextualisation ولابد بالطبع من اعمال السياق ، لتحديد المقصد الحقيقى للقائل • ان المقابلة بين اعمال السياق وابطاله ، هى التى كانت وراء تمييز نظرية تحليل الخطاب بين عدة ثنائيات هى :

النظام النحوى العام usage / والممارسة الفعلية use
الجملة sentence / المنطوق utterance ، حدث التعبير
locutionary / وحدث الوظيفة illocutionary
النص text / والخطاب discourse ؛ التماسك
cohension / والترابط coherence .

واذا كان النحاة يتعلقون بقوانين النظام النحوى العام rules of usage التى تتمثل فى الجمل ، فان محللى الخطاب يتعلقون بقوانين الممارسة rules of use التى تصف كيفية قيام المنطوقات بأحداث اجتماعية •

ان الجملة حالة للنظام النحوى العام ، مادمنا نعثر عليها فى المنطوق • ولكن المنطوق حالة للممارسة ، ما دام يصنع قضية من نوع خاص • ان الجمل تنضام لتكون نصوصا • وما بين هذه الجمل من علاقات ، هى مظاهر للتماسك النحوى grammatical cohesion

أما المنطوقات ، فتتضام لتكون خطابا • وما بين هذه المنطوقات من علاقات ، هى مظاهر للترابط الخطابى discourse coherence • (٥٠) •

٦/٣/١ ويكفى هنا ـ اشارة الى وعى القدماء بأثر السياق فى البنية والدلالة ـ هذا الفصل الذى عقده الزركشى (ت ٧٩٤هـ) : (فى ذكر الأمور التى تعين على المعنى عند الاشكال) ، وقد جعل الزركشى من هذه الأمور : دلالة السياق (٥١) • فدلالة السياق : «ترشد الى تبيين المجمل ، والقطع بعدم احتمال غير المراد ، وتخصيص العام ، وتقييد المطلق ، وتنوع الدلالة • وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم ، فمن أهمله غلط فى نظيره ، وغالط فى مناظراته »(٥٢) •

وقد جعل الزركشى مثاله على الكلام السابق ، قرينة من قرائن المفارقات القرآنية ، يقول : « وانظر الى قوله تعالى :

---

(٥٠) انظر فى ذلك :

Coulthard, Malcolm, An Introduction to Discourse Analysis, ibid, pp. 9 - 10.

(٥١) والأمور الأخرى هى : رد الكلمة الى ضدها ، أوردها الى نظيرها أو ملاحظة النقل عن المعنى الأصلى • انظر فى ذلك : البرهان ٢/١٩٩ـ٢٠٥

(٥٢) البرهان ٢/٢٠٠ ـ ٢٠١ •

« ذق انك أنت العزيز الكريم » كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير »(٥٣) ٠

ويلفت النظر فى كلام الزركشى السابق ، أنه ـ مع اختزاله وعمومه ـ يتلاقى الى حد بعيد مع جل الأفكار السابقة عن السياق وجوهرها ؛ فحديثه عن القطع بعدم احتمال غير المراد وتخصيص العام ، ونحو ذلك ، يدنو من فكرة « فان دايك »عن السياق الراهن ، وهو الممكن فى حالة محددة ٠ وحديث الزركشى عن دلالة قرينة السياق على مراد المتكلم ، وأنه من أعظم القرائن الدالة على ذلك ، يدنو من تنويه « كالشارد » بضرورة اعمال السياق لتحديد المقصد الحقيقى للمتكلم ٠٠٠ وهكذا ٠

من ناحية أخرى ، فان حديث الزركشى عن دلالة السياق على أن المقصود فى الآية أنه الذليل الحقير ، ينصرف ـ فى الغالب ـ الى السياق اللغوى فى اطار النص ، وان كان كلامه يحتمل أيضا السياق الخارج عن النص ٠

وفى ضوء كلام براون / يول السابق عن اطار المحور ، نرى أن اطار المحور فى الآيات ، هو يوم الفصل ، بما فيه من رحمة أو عذاب ٠ وهنا تقرر العلاقات السياقية الايجابية الفعالة فى الآيتين : ٤٧ ، ٤٨ ، أن أمرا بشأن أخذ أبى جهل، وعتله الى سواء الجحيم ، والصب فوق رأسه من عذاب الحميم،

---

(٥٣) البرهان ٢/٢٠١ ٠

ينفى أن يكون وصفه بالعزيز الكريم ، على مأخذ الحقيقة ، انما هو - كما تقرر تلك العلاقات السياقية - تهكم يقلب معانى الكلمات الى النقيض !

ان التفسير هنا ، ينطلق من فكرة وحدة المنطوق ، بما أن المنطوق حالة للممارسة ، وبما أن المنطوقات ، تتضام لتكون خطابا ، وبما أن العلاقات الكائنة بين هذه المنطوقات ، هى المسئولة عن الترابط الخطابى • اننا ننظر ، بعبارة أخرى ، الى الجمل المترابطة ، والى عنصر الصدق أو الحقيقة فيها ، بالنسبة الى استعمالها فى سياق بعينه ، وهو فى هذه الآيات ، سياق التهكم والسخرية •

١/٣/٧ ان المنطلق فى ذلك كله ، انما هو من مبدأ أساسى من مبادىء تحليل الخطاب ، يرتبط بالعلاقات بين الجمل clause relations - وهو مبدأ ركناه الرئيسان - كما يقول هوى Hoey - : وضع الجملة فى سياق الجمل المرتبطة بها ، لبيان السبب فى أن نحوها ومعناها ، لا يمكن أن يفسرا تفسيرا كاملا ، الا اذا أخذ فى الاعتبار سياقها الأكبر its larger context • ويمكن هنا أن تتأثر قراءتنا للجمل فى ذلك السياق • والركن الآخر : أنه لابد من العناية بالكشف عن منظومة الجمل المترابطة فى قطعة ما ، حال كونها كلا واحدا ، دون تركيز على جملة بعينها داخل تلك القطعة تركيزا خاصا(٥٤) •

---

(٥٤) Hoey, M., P., On the Surface of Discourse, George Allen and Unwin, London (1983) p. 17.

ويعرف هوى العلاقة الجملية ، بأنها الاعتبار المعرفى cognitive process ، الذى يفسر عن طريقه معنى الجملة، أو مجموعة من الجمل ، فى ضوء الجملة ، أو مجموعة الجمل التى ترتبط بها • ويدخل فى حد الجملة الجزء منها • والمقصود بالجمل المترابطة ، الجمل الأكثر تشابها فى موقعيتها داخل خطاب بعينه(٥٥) •

وينبه « هوى » الى أن النظر الى مسألة العلاقات ، ينبغى له أن يأخذ بحقيقتين اثنتين عند تحليل الخطاب :

(الأولى) أن تحدد العلاقة ، وتبين علاماتها، على نحو لغوى •

و (الثانية) أن العلاقة ليست « لافتة » على مجموعة من العلامات الجاهزة Signals ، وانما يمكن تحديدها ـ فحسب ـ عن طريق فحص محتوى الجمل وسياقها(٥٦) •

وحصيلة ذلك ، أن المفارقة ليست ظاهرة سياقية فحسب ، بل هى ـ اضافة الى ذلك ـ أداة أسلوبية فعالة فى تنمية قوى التماسك الدلالى للنص ، وذلك باعتبار بنية المفارقة جزءا من بنية نصية أكبر • انها أداة لاعلاء دور السياق ذاته ، الذى يكون المخاطب جزءا ضروريا منه •

---

(٥٥) المرجع السابق ص ١٨ •

(٥٦) المرجع نفسه ص ٢٢ •

الباب الثانى

المفـارقة فى النص القرآنى

مدخـــل

الفصل الأول : مفارقة النغمة •

الفصل الثانى : المفارقة اللفظية •

الفصل الثالث : مفارقة الحكاية أو الايهام •

الفصل الرابع : المفارقة البنائية •

الفصل الخامس : الالمـاع •

الفصل السادس : مفارقة المفهوم أو التصور •

الفصل السابع : مفارقة السلوك الحركى •

مدخل

تعرض المفارقة القرآنية ، بأنماطها المختلفة ، أسلوبا من أساليب انتاج الدلالة اللغوية فى النص القرآنى . انها من كبريات الظواهر الدلالية : وظيفة وقرائن ، التى يعتمد عليها فى تشخيص ملامح الاعجاز اللغوى ومحدداته فى الخطاب القرآنى . وقد تميز خطاب المفارقة فى جميع أشكاله ، بشرف البنية الموضوعية أو المضمونية propositional structure ، وبقوة منقطعة النظير فى حدث التأثير perlocutionary force وقد أدى ذلك كله الى اتساع المحاور الخطابية ، والى اعلاء الطاقات والامكانيات الأسلوبية للعربية .

وتحدد دراسات المفارقة الحديثة أشكالا رئيسة ثلاثة ، هى : مفارقة النغمة ، والمفارقة اللفظية ، والمفارقة البنائية ، ينصرف اليها الحديث عن خطاب المفارقة غالبا . ويدلنا استقراء النص القرآنى ، على توفير حالات أخرى ، بالاضافة الى ماذكرناه . وما التمسناه من مسميات لتلك الحالات الجديدة ، انما ترجع الى مظاهرها الخطابية ذاتها التى تتبدى بها داخل بنية النص . وقد عرفت هذه الأشكال والحالات الأخرى هنا باسم : مفارقة الحكاية أو الايهام ، والالماع ، ومفارقة المفهوم أو التصور ومفارقة السلوك الحركى . ويعنى ذلك أن النص القرآنى قد عرف لخطاب المفارقة سبعة أنماط مختلفة : بنية ووظيفة .

وفى معالجتنا هذه الأنماط السبعة المختلفة ، سوف ننهج نهجا وصفيا بنائيا وظيفيا متكاملا ، ينطلق دائما - وبوعى - مما يقدمه خطاب المفارقة فى كل نمط من مستويات لغوية العملية التحليل : فونولوجيا ، ومورفولوجيا ، وتركيبيا ، ودلاليا (بما فى ذلك الفحص المعجمى) ، من معطيات متنوعة ، تعرض فى مجملها كيفية بناء المفارقة فى النص القرآنى .

الفصل الأول

مفارقة النغمة

١/١/٢ ومفارقة النغمة irony of tone ، تعنى أداء المنطوق ـ على الكلية ـ بنغمة تهكمية ، يعول عليها فى اظهار التعارض أو التضاد ، بين ظاهر المنطوق وباطنه ، بين سطحه وعمقه ، بحيث تقتلع هذه النغمة التهكمية ، محتوى ذلك الظاهر لمصلحة الباطن المضاد ٠

ومفارقة النغمة نوع من التهكم sarcasm ، الذى يبدو ذما فى ثوب المدح ٠ ويشير ليتش Leech ، الى أن هناك نوعا آخر من مفارقة النغمة ، هو توجيه اهانة فى كياسة أو أدب لا لوم عليهما ٠ ولكن يشترط فى هذا ، البعد عن المغالاة أو المبالغة exaggeration ٠ ويذكر ليتش أن المثال المشهور على ذلك ، هو الاستخدام التهكمى لألقاب مثل « السيد » أو « السيدة » أو « فخامتكم » ، ونحوها ، لأناس لا تصلح لهم مثل هذه الألقاب ، أى ليسوا أهلا لها ، على الاطلاق ٠

ويذكر ليتش ـ من ناحية أخرى ـ أن جانبا من استراتيجية هذا النوع من الصراع اللفظى verbal warfare المبنى على عرض شىء سام لخصم لدود ، سوف يفقد فاعليته ، اذا اختلفت صياغة لغته عما ينبغى لها أن تكون ٠

اذن لابد فى هذا النمط ، من تهكمية النغمة sarcasm of tone التى تخرج بالاستخدام اللغوى عن أن يكون خطابا مباشرا direct address ، وذلك كأن يقال ـ على سبيل المثال ـ فى نغمة تظلمية :

ـ « ماذا تريد السيادة ؟! »

أو حتى أن يقال فى صيغة الغائب :

ـ « ماذا تريد السيادة ؟! » .

وتتميز مفارقة النغمة ، بوجه عام ، بنغمة عالية سامية elevated tone ، وذلك لاظهار التهكم على المستويين : اللفظى والتركيبى(٥٧) .

٢/١/٢ واذا نظرنا الى النص القرآنى ، وجدنا هذا اللون من المفارقة ، فى قوله تعالى : « خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم . ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذق انك أنت العزيز الكريم »(٥٨) .

وقد ورد فى تفسير ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) قوله : « لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا جهل ، لعنه الله ، فقال : « ان الله تعالى أمرنى أن أقول لك : أولى لك فأولى ، ثم أولى لك فأولى » ، فنزع ثوبه من يده ، وقال : ما تستطيع لى أنت ولا صاحبك من شىء ، ولقد علمت أنى أمنع أهل البطحاء .

---

(٥٧) Leech, A linguistic, ibid, pp. 176 - 177.

(٥٨) الدخان ٤٧ ـ ٤٩ .

وأنا العزيز الكريم ، فقتله الله يوم بدر وأذله بكلمته ، وأنزل: « ذق انك أنت العزيز الكريم » »(٥٩) ٠

وأورد الزركشى فى تعقيبه على الآيات : « وهو خطاب لأبى جهل ؛ لأنه قال : « ما بين جبليها - يعنى مكة - أعز ولا أكرم منى »(٦٠) ٠

وقد مرت بنا - فى بحث العلاقة بين المفارقة والسياق - اشارة الزركشى الى دلالة السياق على أن المقصود : الذليل الحقير ٠

وتسعى نظرية تحليل الخطاب دائما ، الى ايراز مقولة من مقولاتها الأولية ؛ هى أن معنى المنطوق لا يسترد - أو يسترجع - من تركيبه النحوى أو الدلالى، منعزلا عن غيره in isolation ولكنه يسترجع فقط من موقعه فى سلسلة الخطاب discourse sequence ٠ وبنية الخطاب هى التى تضبط المعنى الذى يمكن توصيله(٦١) ٠

فى ضوء ما سبق ، يمكن القول بأن قرينة المفارقة ، تقع فى علاقة تضاد دلالى مع الآيات السابقة عليها ٠ بعبارة أخرى:

---

(٥٩) ابن كثير (الحافظ عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى) : تفسير القرآن العظيم ، دار المعرفة ، بيروت (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) ٤/١٤٦ ٠

(٦٠) البرهان ، مرجع سابق ٢/٢٣١ - ٢٣٢ ٠

(٦١) Stubbs, M., Discourse Analysis, ibid, p. 79.

بين قرينة المفارقة والآيات التى تقدمت عليها عدم ملاءمة irrelevance • والقدرة على تعرف عدم الملاءمة تعنى، فى ذاتها ، أن هناك انحرافا عن التوقعات deviation from expectations • وأن هذا الانحراف (بالمعنى الاصطلاحى اللغوى) ، يمكن التعرف عليه ، من مقارنة المحتوى الدلالى لقرينة المفارقة ، بالمحتوى الدلالى لما تقدم عليها من قرائن اخرى • هكذا ، نلحظ كسرا للتوقعات breaking of expectations • وكسر التوقعات فى المفارقة والتهكم ونحوهما ، هو ذاته ـ كما يقول ستوبس Stubbs ـ اشارة الى وجود توقعات قد كسرت • ونحن غالبا نتعرف على المعايير norms ، عندما تنكسر هذه المعايير فقط • وترتبط هذه الفكرة بمبدأ أساسى مقرر فى تحليل الخطاب ؛ وهو أن المنطوقات تنشىء توقعات ، وأن التوقعات يمكن أن تنكسر(٦٢) •

كان المتوقع اذن ، الوصف بالذليل المهان ونحوه ، وكان كسر هذه التوقعات ، وسيلة لغاية التهكم وصفا بالنقيض •

ان السياق النصى فى اطار اللغة ، والسياق الخارج عن النص (ونعنى به السياق التاريخى للخطاب)(٦٣) ،

Stubbs, M., Discourse Analysis, op. cit., pp. 94 - 95

(٦٣) يعرف كوزيريو السياق التاريخى ، بأنه مجموع الظروف والملابسات التاريخية المعروفة لدى المتكلمين • وهو يسهم فى تحديد معنى العلامات المستخدمة فى الحدث اللغوى • انظر فى ذلك :

Coseriu, Eugenio, Textlinguistik, Eine Einfuehrung, Guntar Narr Verlag, tuebingen (1981) p. 98.

يتآزران فى نقل المدح الظاهرى الى ذم مبطن ؛ يعكس المفهوم الضمنى الذى ترشحه تلك السياقات ٠

ولعل من المفيد هنا ، أن نشير الى كلام لابن جنى (ت٣٩٢هـ) فى الآية الكريمة السابقة ، قد يستنبط منه وعيه بما يسمى بالسياق التاريخى ؛ هو قوله : « ٠٠٠ ومثله مما مخرجه منه على الحكاية ، قوله : « ذق انك أنت العزيز الكريم » ٠ وانما هو فى الحقيقة الذليل المهان ٠ لكن معناه : ذق انك أنت الذى كان يقال له : العزيز الكريم »(٦٤) ٠

واذا انتقلنا الآن ، الى تحليل قرينة المفارقة ذاتها ، فان أول ما نلاحظه ؛ أنها تمثل نحويا جملتين اثنتين : أولاهما فعلية ، والأخرى اسمية ٠ وهى تمثل أدائيا ، أو من ناحية الشريحة اللغوية التى ينعقد بها التغير الدال ، جملتين نغميتين اثنتين :

١ ـ فالمجموعة النغمية الأولى Paratone ، تبدأ وتنتهى بالجملة النحوية « ذق » ٠ وهى متلوة بوقفة قصيرة ٠ واذا تأملنا درجة الصوت Pitch (وهى تعنى الذبذبات الرئيسية fundamental frequences للمقاطع المتتابعة فى التعبير) على الوحدة الصرفية « ذق » ، فى ضوء المستويات الأربعة لدرجة الصوت فى النظام النغمى ، لوجدنا أن أنسب المستويات ، هو المستوى الثالث الذى تكون درجة الصوت فيه

---

(٦٤) ابن جنى (أبو الفتح عثمان) : الخصائص ، تحقيق محمد على النجار ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، بدون تاريخ ٢/٤٦١ ٠

عالية(٦٥) . ولعل السبب فى ذلك ، هو أنه أنسب المستويات

---

(٦٥) يعمل فى النظام النغمى أربعة مستويات لدرجة الصوت ، وتعرف هذه المستويات بالأرقام :

فالرقم ١ درجة منخفضة .

والرقم ٢ درجة متوسطة .

والرقم ٣ درجة عالية .

والرقم ٤ درجة عالية جدا .

ومن المؤكد أن هذه المستويات الأربعة ليست مطلقة بل نسبية . ويلاحظ أن المستوى الرابع محدود الوجود والتوزيع ، ولا يبدأ به أى لفظ . وغالبا ما يوجد فى الألفاظ الانفعالية ، كالدهشة الكبيرة أو الحزن أو الفرح الشديد وغيرها . انظر : سلمان حسين العانى (دكتور) : التشكيل الصوتى فى اللغة العربية (فونولوجيا العربية) ترجمة دكتور ياسر الملاح ، مراجعة دكتور محمد محمود غالى ، النادى الأدبى الثقافى بجدة ، الطبعة الأولى (١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م) ص ١٤١

ويميز هاليداى Halliday بين خمس نغمات رئيسة تبعا للحركة النغمية pitch movement .

النغمة	الرمز البصرى	الحركة النغمية	الميل النغمى عند النهاية
١	\	هابطة	منخفضة
	/	صاعدة	عالية
٢	٧	هابطة ـ صاعدة	عالية
٣	ـ/	صاعدة	متوسطة
٤	/٧	(صاعدة) ـ هابطة ـ صاعدة	متوسطة
٥	(٧	(هابطة) ـ صاعدة ـ هابطة	منخفضة

انظـــر :

Coulthard, M., An Introduction to Discourse Analysis, ibid, p. 117.

لاظهار النغمة التهكمية العالية ، التى تقتضيها هذه المفارقة ، وذلك بتشديد الأمر (النحوى) ـ فى الأداء ـ على هذه الوحدة الصرفيـة .

واذا كانت « ذق » ، تمثل نحويا جملة فعلية طلبية ، فهى منبورة ؛ لأنها تبنى على مقطع واحد ، وهو مقطع طويل مغلق، يقع عليه النبر بالطبع . ومعلوم أن الكلمة ذات المقطع الواحد تستقبل نبرا أوليا فحسب ؛ أى أنها لا تستقبل النبر الثانوى ولا النبر الضـعيف(٦٦) . ومعـلوم كذلك أن قوة اسـماع المقطع المنبور ، أشـد من غير المنبور ، لا سـيما أن النبر على «ذق» ، نبر أولى كما قلنا . ويؤدى ذلك بالطبع الى علو النغمة .

٢ ـ أما المجموعة النغمية الثـانية ، فهى قوله تعـالى : « انك أنت العزيز الكريم » . ونجـد هنـا ، أن الدراسـات الصـوتية المعمليـة ، تثبت أن الذبذبات الأولية للمقـاطع المتتابعة فى جملة خبرية ما ، تبدأ من المستوى الثانى لدرجة الصوت (أى الدرجة المتوسطة) . ويمتد هذا المستوى خلال التعبير حتى المقطع الأخير ، حيث ينزل فجأة الى المستوى الأول (أى درجـة الصـوت المنخفضـة) . ويمثل هـذا النمط من الـكلام المتـوازن المسـتمر والذى يخفض عنـدما الوقف sustaining falling بـ : (٢ ـ ٢ ـ ١)(٦٧) .

---

(٦٦) سلمان العانى : التشكيل الصوتى ، مرجع سابق ص ١٣٤ .

(٦٧) المرجع السابق ص ١٤٣ .

ولكننا نجد فى الجملة الخبرية فى قوله تعالى : « انك أنت العزيز الكريم » ، أن أنسب شىء للتعبير ، هو أن يبدأ من المستوى الأول (لأن التعبير تتقدمه أداة) ، ثم تنتقل درجة الصوت الى المستوى الثالث ، أى درجة الصوت العالية ، التى تتخلل التعبير بدءا من « أنت » ، وتستمر مع « العزيز » ، حتى تنتهى الذبذبات الأولية الى المستوى الأول ، مع كلمة « الكريم » ؛ أى أن هذا النمط ، يمثل له حينئذ - فيما يبدو - هكذا : (٢ - ٣ - ١) .

ويظهر المستوى الثالث ، فى هيئة قمم Peaks ، عندما يشدد (فى عملية النطق) على بعض المقاطع أكثر من غيرها(٦٨) (كما ينبغى أن تكون الحال مع التشديد والضغط على المقاطع : / أن / فى « أنت » ، و /زى/ فى «العزيز») . ويكسبها النبر نطقا أشد ، كما يكسبها مدى أطول ، ويؤدى ذلك ، الى ابراز النغمة التأنيبية التهكمية ، أو لنقل : انه يرتبط بها ويلتقى فى آن معا .

٣ - ومعلوم أن التنغيم intonation ، يسخر لوظائف خطابية discoursal functions (٦٩) . ولعل ذلك، يعنى هنا أن نغمة الأمر فى « ذق » ، ينبغى لها أن تؤدى أداء مختلفا عن نغمة الأمر فى « خذوه » و « فاعتلوه » و «صبوا» قبلها ؛ وذلك أن هذه الأفعال الأخيرة، ترتبط بجزء من الخطاب،

---

(٦٨) انظر فى تفصيل ذلك : المرجع السابق ص ١٤٣ .
Brown / Yale, Discourse Analysis, ibid, p. 153.

النغمة فيه نغمة أمر بانزال عقاب ، بينمـا هى نغمة أمر فى تأنيب وتهكم فى الفعل « ذق » ، أو لنقل ـ بعبارة سيد قطب ـ انها نغمة تهكمية ساخطة مزدرية ، فيها التأنيب الذى يصاحب التعذيب(٧٠) .

ويلاحظ هنا ، أن عنصر المفاجأة ، يلعب دورا رئيسا فى التمييز بين الحركات النغمية . ونعنى بذلك المفـاجأة التى تنتج عن الانتقـال من أفعـال الأمر الثـلاثة فى : « خذوه » و « فاعتلوه » و « صبوا » ، وهى ممـدودة بالواو (والواو أثقل الحركات نطقا وفيها مد الشفتين الى الأمام ؛ كأنها تحكى ثقل وطأة الموقف ، كما تحكى حركة الجذب والعتل) الانتقال من هـذه الأفعـال الى الفعـل « ذق » ، الذى يخلو من مثـل هـذا المد .

ونعـود الآن الى تحليل بنية المفـارقة اللغوية من وجـوه مختلفة ، وأول هذه الوجوه : أنه اذا نظرنا الى فعل الأمر «ذق» بعد « خذوه » و « اعتلوه » و « صبوا » ، فى ضوء علم الدلالة النصى ونظـرية تحليل الخطـاب ، لرأينـا أنه يحقيق لهـذه المفارقة ، بما هى بنية نصـية صـغرى ، نوعا من التماسـك الدلالى النصى ، وهو هنا التماسك الناتج عن التماثل الزمنى temporale Gleichzeitigkeit ؛ فالأفعال السابقة جميعا متماثلة

---

(٧٠) سيد قطب : مشاهد القيامة فى القرآن ، دار الشروق (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م) ص ١٥٣ .

تماثلا زمنيا • والتماثل الزمنى يعد - كما يقول سوونسكى Sowinski - علامة من العلامات الدلالية التى تحقق التماسك الدلالى للنص(٧١) •

وقد اختير فعل الأمر بالذات ، لتبدأ به المفارقة • والأمر من أنواع الانشاء • والأظهر - كما ينص البلاغيون - أن صيغته موضوعة لطلب الفعل استعلاء(٧٢) •

وفى المفارقة مراعاة النظير ، وذلك ما نجده من تناسب أو ائتلاف دلالى بين اللفظتين « صبوا » و « ذق » • وتعرف مراعاة النظير فى البلاغة العربية بالتناسب والائتلاف والتوفيق أيضا • وهى أن يجمع فى الكلام بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد ، كقوله تعالى : «الشمس والقمر بحسبان»(٧٣) •

وتدرس هذه الظاهرة الآن فى علم اللغة النصى ، تحت مبحث « التماسك المعجمى lexical Cohesion » - وهو يعنى أثر التماسك الناتج عن اختيار المفردات • والتماسك المعجمى هنا ، يتولد عن تآلف الوحدات المعجمية التى يصاحب

---

(٧١) Sowinski, Bernhard, Textlinguistik, Eine Einfuehrung, Verlag W. Kohlhammer, Stuttgart, Berlin, Voeln — Mainz (1983) S. 89 u. SS. 86 - 89.

(٧٢) الخطيب القزوينى : الايضاح فى علوم البلاغة ، شرح وتعليق وتنقيح دكتور محمد عبد المنعم خفاجى ، دار الكتاب اللبنانى - بيروت ، الطبعة الرابعة (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م) ٢٤١/١ •

(٧٣) الرحمن ٥ ، وراجع الايضاح للقزوينى ٤٨٨/٣ •

بعضها بعضا ، فهو من نوع « المصاحبة Collocation »(٧٤)؛ وذلك أن الكلمتين « صبوا » و « ذق » ، من المحيط المعجمى ذاته ، وتميلان الى الظهور فى سياقات متماثلة • ولذلك ، فالكلمتان تولدان قوة تماسكية بوقوعهما فى جمل متجاورة ، على نحو ما رأينا فى الآيات الكريمات السابقات •

ويسترعى الانتباه هنا ، العلاقة الدلالية بين عملية الذوق ونوع الشىء الذى أمر بذوقه (عذاب الحميم) • وهى علاقة تؤكد معنى الاهانة • وقد لاحظ الخطيب القزوينى (ت ٧٣٩هـ) هذا المعنى وأشار اليه(٧٥) • ويؤكد هذا المعنى ، اذا علمنا أن الذوق ملابسة يحس بها الطعم(٧٦) •

لابد اذن من ملابسة طعم العذاب باستخدام « ذق » !

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فان ما أمر بذوقه هنا كثير وفير ؛ لأنه تكون عن صب لا عن سكب ، والصب - كما يحدده أبو هلال العسكرى (توفى بعد عام ٤٠٠هـ) - يكون دفعة واحدة ، بينما يكون السكب صبا متتابعا • ولهذا يقال : صبه فى القالب ولا يقال : سكبه فيه ؛ لأن ما يصب

---

(٧٤) Hlliday, M., A., K., / Hassan, Ruqaiya, Cohesion in English, 4th impression, Longman group LTD, London (1983) p. 274, 284, 280.

(٧٥) الايضاح ، مرجع سابق ١/٢٤٢ •

(٧٦) العسكرى (أبو هلال) : الفروق فى اللغة ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، الطبعة الرابعة (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م) ص ٣٠٥ •

فى القالب يصب دفعة واحدة(٧٧) . وقد ائتلف الصب والعتل أحدهما مع الآخر من حيث الشدة والقوة ؛ فالعتل يعنى اقتلاع هذا المدعى من مكانه .

واذا كان استخدام الصب يفيد وفرة المذوق ، فان ذلك يستلزم منا العودة الى أصل المعنى المعجمى للذوق . فأصل الذوق - كما يقول الراغب الأصبهانى (ت ٥٦٥هـ) - فيما يقل تناوله دون ما يكثر ، فان ما يكثر منه يقال له الأكل(٧٨) . وهنا يتطور المعنى المعجمى الأصلى للذوق ، الى المعنى الأسلوبى الذى يفيده السياق اللغوى ، من حيث استخدام لفظ الذوق مع العذاب . وهنا تكون اجابة الأصبهانى عن المسألة التى نحن بصددها ، وذلك فى قوله : « واختير فى القرآن لفظ الذوق فى العذاب ؛ لأن ذلك وان كان فى المتعارف للقليل ، فهو مستصلح للكثير ، فخصه بالذكر ؛ ليعم الأمرين »(٧٩) .

وقد ورد اللفظ « ذق » مع العذاب ، فى غير موضع من القرآن(٨٠) . وكان لأبى عبيدة (ت ٢١٠هـ) التفات الى

---

(٧٧) المرجع السابق ص ٣٠٨ - ٣٠٩ .

(٧٨) الأصبهانى (الراغب) : المفردات فى غريب القرآن ، أعده للنشر وأشرف على الطبع دكتور محمد أحمد خلف الله ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، بدون تاريخ ص ٢٦٤ .

(٧٩) المرجع السابق ص ٢٦٤ .

(٨٠) انظر مثلا : الطلاق ٩ ، النساء ٥٦ ، ص ٨ ، ٥٧ ، آل عمران ١٠٦ ، ١٨١ ، الأنعام ٣٠ ، الأعراف ٣٩ ... الخ .

المعنى المجازى ، بحسب نظريته ، فى مثل هذا الاستخدام ، فقال عن « ذق » : « مجازه : فجربوا ، وليس من ذوق الفم »(٨١) .

وينبغى لنا - فضلا عما سبق - أن نشير الى دلالة فعل الأمر « ذق » على الانكار والتبكيت . وقد سبق اليه الزركشى(٨٢) .

من ناحية أخرى ، ينبغى النظر - على المستوى الاستبدالى - اختيار الفعل « ذق » دون مرادفاته . وذلك أن فيه - كما فطن الى ذلك دكتور عبد الحليم حفنى - رقة ولطفا ، حيث انه يستعمل فى اختبار طعم الأشياء ذات الطعم ، ولكن من يقوله انما يقوله عادة حين يكون واثقا من لذة طعم هذا الشىء . فأنت - كما يقول دكتور حفنى - حين تريد شراء فاكهة من بائع ، وتسأله عن مدى جودة طعمها لا يقول لك « ذق » الا اذا كان واثقا من طيب طعمها ، فكذلك حين يقولون لهذا الزعيم - يعنى أبا جهل - « ذق » ، فان هذا يقتضى أن يكونوا واثقين من لذة طعم ما يقدمونه اليه ، وهذه سخرية بالغة من هذا الزعيم ، فانهم يعلمون أن ما يقدمونه اليه لا يذاق أصلا لأنه نار تتلظى . هذا فضلا عن أن ما يقدم اليه ، لا يقدم اليه

---

(٨١) أبو عبيدة (معمر بن المثنى التيمى) : مجاز القرآن ، عارضه بأصوله وعلق عليه دكتور محمد فؤاد سزكين ، مكتبة الخانجى بمصر ، بدون تاريخ ١/٢٤٦ .

(٨٢) البرهان ، مرجع سابق ٢/٣٢١ .

ليذوقه فحسب ، وانما ليملأ منه جوفه !(٨٣) ٠

وكأننا نرى التأويل السابق ، يجتهد - وان خلا من وعى نظرى بائن - فى تناول اللغة باعتبارها خطابا ، أو حدثا تبليغيا ، الأفضلية فيه للدلالة الاجتماعية لمكونات هذا الحدث ، داخل سياق موقفى بعينه ٠ انه نوع من ربط المعنى المعجمى بالدلالة الاجتماعية التى تظهر من استخدامات متعددة لهذا اللفظ ، فى حقل الاستعمال اللغوى اليومى ٠ ولذلك يمكن أن يعد مظهرا للثنائية المتقابلة use / usage ٠

ومهما يكن من أمر ، فان الذى يستحق منا الانتباه الآن ، هو حذف مفعول « ذق » ٠ وحذف المفعول على هذا النحو ، يعد من اعمال السياق Contextualisation ؛ فالسياق اللغوى النصى ، يحدد هذا المحذوف ؛ وهو العذاب بألوانه المذكورة آنفا فى الآيات ٠ كذلك ، فان حذف المفعول أو تقديره ، يعنى تحقيق التماسك النحوى Cohesion بين منطوق آية المفارقة وما قبلها من آيات ٠ ومعلوم أن مفهوم التماسك ، يصف أو يقرر العلاقات الدلالية الجوهرية التى تجعل رسالة منطوقة أو مكتوبة قادرة على أن تقوم بوظيفة نص ٠ وقد صنف مفهوم التماسك عند دارسيه الى عدد أصغر من المقولات المتمايزة ،

---

(٨٣) عبد الحليم حفنى (دكتور) : التصوير الساخر فى القرآن الكريم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩٢م) ص ٢٢٣ ٠

وكان من بينها الحذف أو التقدير ellipsis (٨٤) .

ان الأعلى فى حكم البلاغة هنا ، ألا يظهر لفظ المفعول به . فاذا رجعنا فيه الى ما هو أصله،فقيل : ذق العذاب ، أو ما شابه، لضاعت مزية الحذف فى تقوية التماسك الدلالى بين هذا الفعل ومفعوله المفهوم من الكلام من ناحيـة ، ولكان فى تخصـيص المفعول به باللفظ الصريح ، ما يحد من قوة التهكم وعمق تأثيره فى هذه المفارقة من ناحية أخرى .

وكان عبد القـاهر الجرجانى (ت ٤٧١هـ) قد أفاض فى شأن الحذف ، نحو حذف المفعول به ، وفخم أمره ، ونوه بذكره، وذكر أن مأخذه مأخذ يشبه السحر ، ويبهر الفكر(٨٥) .

وتبدأ الجملة الخبرية مؤكدة بـ « إن » . وينقلب التوكيد مع المعنى الأسلوبى غير المباشر للعبارة ، الى توكيد لاختصاص المستهزأ به بمعانى الذلة والمهانة .

وفى قرينة المفارقة ، نرى عودة الى ضمير المخاطب المنفصل « أنت » ، بعد كاف الخطاب فى « انك » ؛ تأكيدا لرد المهـانة والتوبيخ اليه هو لا الى غيره . ولا ريب أن ذكر « أنت » يناسب

---

(٨٤) والمقولات الأخرى هى : المرجع reference والاستبدال substitution والربط conjunction ، والتماسك المعجمى lexical cohesion ـ انظر فى ذلك :
Halliday / Hassan, Cohesion in English, ibid, p. 13

(٨٥) انظر فى ذلك : دلائل الاعجاز ، مرجع سابق ص ١٢٥ ـ ١٣١

هنا الكلام عمن هو أشد اعجابا بنفسه ، وأعرض دعوى فى أنه العزيز الكريم ! أنها تريد أن تثبت العزة والكرامة له فى ظاهر اللفظ، وبالطريقة نفسها تسلبه اياهما تماما بالمعنى المفارقى، حين يكون الغرض الباطن : الذليل المهان ! وكأن ابراز الضمير « أنت » الى بنية المفارقة ، نوع من دحض « الأنا » المعلنة من أبى جهل ، وهز ما فيها من غرور ، واقتلاعه !

ولعبد القاهر لمحة من لمحاته الذكية ، تشبه ما نحن بشأنه الآن ، وذلك فى قوله : « فاذا قلت : أنت لا تحسن هذا ، كان أشد لنفى احسان ذلك عنه من أن تقول : لا تحسن هذا ، ويكون الكلام فى الأول مع من هو أشد اعجابا بنفسه وأعرض دعوى فى أنه يحسن ، حتى أنك لو أتيت بأنت فيما بعد « تحسن » ، فقلت : لا تحسن أنت ، لم يكن له تلك القوة »(٨٦) .

ان ضمير الفصل من طرق الحصر (أو القصر) المعروفة(٨٧) .

ويؤكد البيانيون هذا الأمر فى بحث المسند اليه . وعلى ذلك فان الاتيان بـ « أنت » فى الآية ، كان ـ فى ظاهر اللفظ ـ لرد

---

(٨٦) دلائل الاعجاز ص ١٠٦ .

(٨٧) جمع السيوطى أربع عشرة طريقة للحصر ؛ كالنفى ، والاستثناء وانما ، وأنما (بالفتح) ، والعطف بلا أو بل ، وتقديم المعمول ، وضمير الفصل ، وتقديم المسند اليه ، وتقديم المسند ، وذكر المسند اليه ..الخ انظر فى تفصيل ذلك :

السيوطى (جلال الدين) : الاتقان فى علوم القرآن ، تحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم ، دار التراث ، القاهرة ، الطبعة الثالثة (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م) ٣/ ١٥٠ ـ ١٥٦ .

أى ادعاء بتجريده من العزة والكرامة ، فان المفهوم الحقيقى ، أو ما أسميناه من قبل بمنطوق المتكلم ، يؤكد المعنى الضدى، وهو تجريده تماما من هاتين الصفتين ، ورد أى ادعاء بنسبة شىء منهما اليه هو بالذات !! .

ولننظر الآن الى التعريف بأل فى « العزيز » و « الكريم »، حتى نرى أثره فى بنية الدلالة المفارقية . كأن كلا من هذين الوصفين ، وبالتالى عكسهما تماما ـ كما تريد المفارقة حقيقة أن تقول ـ قد تناهى فى الظهور على الموصوف ، حتى امتنع خفاؤه !

ونستند الآن مرة أخرى الى تحليلات عبد القاهر ، فى مجال التعريف ، وذلك فى قوله : « واعلم أنك تجد الألف واللام فى الخبر على معنى الجنس ، ثم ترى له فى ذلك وجوها : أحدها أن تقصر جنس المعنى على المخبر عنه ؛ لقصدك المبالغة ، وذلك قولك : زيد هو الجواد ، وعمرو هو الشجاع : تريد أنه الكامل، الا أنك تخرج الكلام فى صورة توهم أن الجود أو الشجاعة لم توجد الا فيه ، وذلك لأنك لم تعتد ما كان من غيره لقصوره عن أن يبلغ الكمال »(٨٨) .

فى ضوء ذلك ، نرى أن « ال » فى الخبر وصفته ـ فى قرينة المفارقة ـ قصر جنس المعنى على المخبر عنه ؛ لقصد المبالغة ، أى أنه الكامل ، وأخرج الكلام فى صورة توهم أن كلا من العزة والكرامة ، لم توجد الا فيه . فاذا انقلب المعنى الظاهر هذا

---

(٨٨) دلائل الاعجاز ص ١٣٨ .

الى معنـاه المقصـود الخفى ، الذى ترمى اليه البنيـة الدلالية للمفارقة هنا ، زاد التهكم واشتد ، وصار المتهكم به من الضعة واللؤم ، بحيث بلغ فيهما الكمال ! ٠

وسوف يصير تأثير هذا التهكم البالغ أعمق فى نفوسنا ، اذا علمنا أن الكرم اذا وصف به الانسان ، فهو اسـم للأخلاق والأفعال المحمودة التى تظهر منه ٠ ولا يقال : هو كريم ، حتى يظهر ذلك منه ٠ والكرم لا يقال الا فى المحاسن الكبيرة ، كمن ينفق مالا فى تجهيز جيش فى سبيل الله ، وتحمل حمالة ترقى دمـاء قـوم(٨٩) ٠

كذلك يصبح هذا التأثير أبلغ ، اذا علمنـا أن العزة حالة مانعـة للانسـان من أن يغلب ، من قولهم : أرض عزاز ، أى صلبة(٩٠) ٠ فمعانى الكرامة والعـزة على هـذا النحو ، مما لم يعرف له سبيل عند أبى جهل ؛ فأمره ليس الا حميـة وأنفة مذمومة ، وليس له من العزة والكرامة أى نصيب !

---

(٨٩) المفردات ص ٦٤٦ ٠

(٩٠) المرجع السابق ص ٤٩٨ ٠

الفصل الثانى

المفـارقة اللفظيـة

١/٢/٢ تكشف المفارقة اللفظية Verbal irony عن قوة العلاقة بين المفارقة والمجاز • ويشير آبرامز Abrams الى أن المفارقة اللفظية كانت تصنف تصنيفا تقليديا ، على أنها احدى صـور المجاز tropes • ويلاحظ أن ما يؤكده المتكلم فى ظاهر القضـية التى تعرضـها المفارقة اللفظيـة ، يختـلف عن المعـنى الضـمنى the implicit meaning الذى يرمى اليه المتكلم فيها(٩١) •

والمفارقة اللفظية ، فى أبسط تعريف لها ، هى شـكل من أشكال القول ، يساق فيه معنى ما ، فى حين يقصـد منه معنى آخر ، يخالف غالبا المعنى السطحى الظاهر • ومن ناحية أخرى، نجد أن المفارقة اللفظية أعقد كثيرا من هذا التعريف ، حيث انها تتحقق فى مجموعة من المستويات ، أو يجتمع فيها أكثر من عنصر ؛ فهى تشتمل على عنصر يتعلق بالمغزى illocutionary هو مقصد القائل • وهذا العنصر قد يتراوح فى درجات عنفه

---

(٩١) Abrams, M., H., A Glossary of literary Terms, ibid,p. 89.

وقوته بين العدوان والتدليل اللين . وتشتمل كذلك على عنصر لغوى locutionary أو بلاغى هو عملية عكس الدلالة . ويتمثل هذا العنصر فى شكل المغايرة antiphrasis (٩٢) .

ويحسن بنا أن نشير الى أن تحليل الخطاب ، الذى يتخذ المنطوق وحدة أساسية للتحليل ، يضم هذه العناصر ذاتها ؛ فمن المعروف فى نظرية تحليل الخطاب ، أن اصدار المنطوق ، يقتضى من المتكلم ، أن يقوم بثلاثة أحداث فى الوقت ذاته : الحدث اللغوى a locutionary act ، ويتم بقول شىء ما بالمعنى الكامل للقول . والحدث الذى يتعلق بالمغزى أو الوظيفة illocutionary وهو ما يتحقق فى قول شىء ما . وحدث التأثير perlocutionary act وهو ما يتحقق بقول شىء ما أو يكون نتيجة له(٩٣) .

واذا كان كل منطوق يضم هذه الأحداث الثلاثة جميعا ، فانه ينبغى لنا ، لادراك المفارقة أن ننفذ من الحدث اللغوى أو اللفظى الى حدث المغزى ، من القول الى مقصد القائل . وفى المرحلة التالية ، يترك مقصد القائل تأثيره الذى يصل اليه هنا بواسطة بنائه على المفارقة ، فى المستمع أو المخاطب .

---

(٩٢) سيزا قاسم (دكتورة) : المفارقة فى القص العربى المعاصر ، مرجع سابق ص ١٤٤ .

(٩٣) انظر فى تفصيل ذلك :

Coulthard, Malcom, An Introduction to Discourse Analysis, ibid, p. 17.

وحرى بنا ، كما يدلنا استقراء هذا النوع من أنواع المفارقة في الخطاب القرآني ، أن نجعله وقفا على تغير مجال الاستعمال اللفظي الى الضد تهكما ؛ بمعنى انتقال اللفظ من حقله الدلالي المعروف له في أصل الاستخدام ، الى حقل دلالي آخر ، بحيث يقيم مع لفظ آخر ، داخل الاستعمال اللغوي القرآني الخاص ، علاقة دلالية جديدة ، من نوع التضاد أو التخالف ، لغاية انتقادية :

٢/٢/٢ فالمعروف أن البشرى ، لا تكون كذلك الا بخبر سار ، ولكنها في الاستخدام المفارقي الخاص ، وضعت مع ألفاظ تتضاد (أو تتناقض) معها في الدلالة ؛ وذلك كالبشرى بالعذاب في قوله تعالى:«وبشر الذين كفروا بعذاب أليم»(٩٤)، وقوله : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم »«٩٥» ، وقوله : « يل الذين كفروا يكذبون • والله أعلم بما يوعون • فبشرهم بعذاب أليم »(٩٦) ، وقوله : « واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كان لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم »(٩٧) ، وقوله : « ان الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم »(٩٨) ، وقوله : « ويل لكل أفاك أثيم • يسمع آيات الله

---

(٩٤) التوبة : ٣

(٩٥) التوبة : ٣٤ •

(٩٦) الانشقاق ٢٢ ـ ٢٤ •

(٩٧) لقمان : ٧

(٩٨) آل عمران : ٢١ •

تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم »(٩٩) ، وقوله : « بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما »(١٠٠) .

قال الراغب الأصبهانى (ت ٥٦٥هـ) فى تفسير هذه المادة: « وأبشرت الرجل . وبشَّرته ، وبشرته : أخبرته بسار يسط بشرة وجهه . وذلك أن النفس اذا سرت ، انتشر الدم فيها انتشار الماء فى الشجر . وبين هذه الألفاظ فروق . فان بشرته عام ، وأبشرته نحو أحمدته ، وبشرته على التكثير ... ويقال للخبر السار : البشارة والبشرى »(١٠١) .

وجاء فى لسان العرب : « والبشارة المطلقة لا تكون الا بالخير ، وانما تكون بالشر اذا كانت مقيدة ، كقوله تعالى : « فبشرهم بعذاب أليم » . قال ابن سيده : والتبشير يكون بالخير والشر ، كقوله تعالى : « فبشرهم بعذاب أليم » . وقد يكون هذا على قولهم : تحيتك الضرب وعتابك السيف ؛ والاسم البشرى »(١٠٢) .

---

(٩٩) الجاثية : ٨ .

(١٠٠) النساء : ١٣٨ .

وتذكرنا هذه الاستخدامات ، باستخدام لفظ البشرى على التهكم فى شىء من الشعر ، نحو قول الشاعر :

لقيناهم بأرماح طوال تبشرهم بأعمار قصار

فبشر بالعمر القصير ، ونقل اللفظ عن موضعه ، على جهة التهكم بهم !

(١٠١) المفردات ص ٦٢ .

(١٠٢) ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم) : لسان العرب ، دار المعارف بمصر ، بدون تاريخ ٢٨٧/١ (مادة نشر) .

وأحسب أن الاطلاق والتقييد فى الكلام السابق ، يوازيان الأصل اللغوى وما تطور اليه هذا الأصل ، أو النقل : يوازيان النظام العام usage والممارسة الفعلية use ، فى مفاهيم تحليل الخطاب • وليس التقييد الا فى الممارسة اللغوية الخاصة ، حيثما يكون النقل المجازى ، من مجال دلالى هو الأصل فى المواضعة والاصطلاح الى مجال دلالى آخر ؛ لغاية أسلوبية يقتضيها المقام •

ومهما يكن من أمر ، فان الذى ينبغى لنا ملاحظته ، أن وضع البشرى مع العذاب، أو جعلها ـ على هذا النحو ـ بشرى بالعذاب، يبين أنه لا مجال للبشرى بما يسر مع هذه المواقف المنكرة من أولئك الكفار والمكذبين والمستكبرين وأمثالهم • وذلك مما يزيد طاقة العبارة وقدرتها على التهكم •

ان المبشر به فى الآيات السابقة ـ وهو العذاب الأليم ـ جاء على التنكير ، وسببه التعظيم ، أى عذاب لا يوقف على حقيقته ، كما يقول الزركشى(١٠٣) •

ولا يخفى ما فى استخدام الفعل « بشر » فيما سبق ، من مجاز لغوى ، وهو هنا تسمية الشىء باسم ضده • والبشارة ـ كما يقول السيوطى ـ حقيقة فى الخبر السار(١٠٤) •

وكان الزركشى قد جعل الفعل « بشر » فى مثل قوله تعالى:

---

(١٠٣) البرهان ٤/٩١ •

(١٠٤) الاتقان ، بتحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم ٣/١١٥ •

« فبشرهم بعذاب أليم »(١٠٥) ، من المجاز الافرادى من نوع (اطلاق اسم الضدين على الآخر) . وقد سبق أن ألمحنا الى علاقة هذا اللون من المفارقة بالمجاز ؛ لما فيه من نقل ، يبدو القصد فيه واضحا ؛ لغاية انتقادية، أداتها هذا التهكم الموجع.

وفى الوقت ذاته ، يدخل استخدام « بشر » على النحو الذى رأيناه ، فى نوع من أنواع الاستعارة ، يعرف باسم الاستعارة العنادية التهكمية(١٠٦) ، وهى التى تستعمل فى ضد أو نقيض ، فمثلا قوله تعالى : « فبشرهم بعذاب أليم »(١٠٧)،أى أنذرهم ؛ استعيرت البشارة ، وهى الاخبار بما يسر ، للانذار الذى هو ضده ، بادخاله فى جنسها ، على سبيل التهكم والاستهزاء(١٠٨) .

من ناحية أخرى ، حاول الزركشى أن يربط بين استخدام الفعل « بشر » فى آية التوبة واستخدامه قبل ذلك فى السورة

---

(١٠٥) التوبة : ٣٤ .

(١٠٦) ويناظر هذا النوع من الاستعارة ، نوع ثان يعرف باسم الاستعارة الوفاقية ، وذلك بأن يكون اجتماعهما فى شىء ممكنا ، نحو قوله تعالى : « أو من كان ميتا فأحييناه » (الأنعام ١٢٢) أى ضالا فهديناه — استعير الاحياء من جعل الشىء حيا للهداية ، التى بمعنى الدلالة على مايوصل الى المطلوب . والاحياء والهداية مما يمكن اجتماعهما فى شىء (الاتقان للسيوطى ، بتحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم ١٣٩/٣) .

(١٠٧) آل عمران : ٢١

(١٠٨) الاتقان ١٣٩/٣ .

نفسها ؛ وهو قوله تعالى : « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون . يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم »(١٠٩) . قال الزركشي : « لما قال : بشر هؤلاء بالجنة ، قال : بشر هؤلاء بالعذاب ؛ والبشارة انما تكون في الخير لا في الشر »(١١٠) .

وكأن الزركشي ، يفعل كما يفعل محللو الخطاب الآن ، بل كما يفعل أصحاب علم اللغة النصي ؛ من حيث انه يربط استخدام اللفظ في بنية نصية صغرى ببنية نصية كبرى ، هي مجموع المنطوقات وماتحتويه من حركات moves (١١١) ؛

---

(١٠٩) التوبة ٢٠ ـ ٢١ .

(١١٠) البرهان ٢٨٣/٢ .

(١١١) بالرغم من جعل المنطوق الوحدة الأساسية للتحليل ، فقد كان هناك شعور عند بعض محللي الخطاب ، بالحاجة الى وحدة أصغر ، أطلقوا عليها اسم الحركة move . والحركات قد تتساوى في امتدادها مع المنطوقات ، ولكن بعض المنطوقات قد تتكون من حركتين ، كالمنطوقات « أ » فيما يلي :

(أ) أيمكنك أن تخبرني ، لماذا تأكل كل ذلك الطعام ؟

(ب) لأجعلك قويا .

(جـ) لأجعلك قويا . نعم .

لأجعلك قويا . لماذا تريد أن تكون قويا ؟

انظر في ذلك :

Caulthard, Malcolm, An Introduction to Discourse Analysis, ibid, p. 8.

لملاحظة العلاقة - على المستوى الدلالى - بين هاتين البنيتين. وكأن الزركشى ، من ناحيـة أخرى ، يحدثنا هنـا عن معيار التماسـك الذى تزدهى به الآن نظرية تحليـل الخطاب . وهو عبارة عن الوسائل والأدوات التى تنتجها الصـيغ السطحية surface forms للنص ، فى هيئة علاقات فردية ، تنهض بين الجمل أو الوحـدات الجملية الكبرى clause units فى النص - وهى تمظهر سطحى surface manifestation للعلاقات الكامنة التى تربط النص . وهى طائفة من العلامات Signals التى يتم تشفيرها فى هيئة بنية نحوية دلالية طولية . ويحدث هذا التماسـك بعدة وسـائل متنوعة ؛ منها ما نراه هنا من العلاقات المعجمية للتكرار ، والمصاحبة ، وذلك مع الفعل « بشر » فى سياق البشرى الحقيقية بالجنة والبشرى بالعذاب . وهذه العلاقات - مع غيرها من العلاقات الأخرى - تعد أدوات لربط البنية النصية السطحية(١١٢) .

واذا نظرنا الآن الى كلمة « بشر » - بالتضعيف - لرأينا ايثار « فعل » ، على الصيغ الثلاث الأخرى التى أشـار اليها الأصبهانى فى كلامه المتقدم . وذلك أن هذه الصيغة ، هى التى تدل على التكثير ؛ فهى بشرى بعـذاب ، وما أشـده على المبشرين !

---

(١١٢) انظر فى تفصيل ذلك :

Grabe, William, Written Discourse Analysis, ARAL,, Vol. 5, U.S.A. (1985) 110.

واذا كان البشر أول ما يظهر من السرور بلقى من يلتاك، والبشارة أول ما يصل اليك من الخبر السار(١١٣) ، فانها لن تجرى مجراها ؛ لأنها بشارة بعذاب أليم • ان لفظ البشارة - كما يقول يحيى بن حمزة - دال على الوعد ، وعلى حصول كل محبوب ، فاذا وصل بالمكروه ، كان دالا على التهكم ؛ لاخراجه المحبوب فى صورة المكروه • ولذلك ، جعله يحيى بن حمزة - وقد أصاب - واردا على جهة الوعيد بلفظ الوعد تهكما(١١٤) •

ولعل من أطرف توجيهات البشرى بالعذاب ، ما وجدته عند الأصبهانى أيضا فى قوله : « فاستعارة ذلك (يعنى استعارة البشرى للعذاب) تبين أن أسر ما يسمعونه ، الخبر بما ينالهم من العذاب • وذلك نحو قول الشاعر :

« تحية بينهم ضرب وجيع »(١١٥)

وهو توجيه ، يتوخى فيه الأصبهانى ، التماس خيوط المعنى التى تربط بين المعنى اللغوى للفظ الفعل والاسم المشتق منه وبين الاستخدام اللغوى القرآنى فى السياقات السابقة ، وهو ما يصحب البشرى أو التبشير من سرور • ولما كانت قرينة المفارقة تنقض السرور أو تناقضه ، فانها تظهر ما يحل بهم من هم وغم ، لما يلقونه من هذا العذاب الأليم !

---

(١١٣) الفروق فى اللغة ، مرجع سابق ص ٢٥٩ •

(١١٤) الطراز ، مرجع سابق ١٦٢/٣ •

(١١٥) المفردات ص ٦٣ •

٣/٢/٢ ومن المفارقات اللفظية فى الخطاب القرآنى كذلك ما نجده فى الكيفية التى استخدمت بها كلمة « نفحة » :فأصلها أن تستعمل فى الخير ؛ يقال : له نفحة طيبة ، أى هبة من الخير(١١٦) • وقال الراغب الأصبهانى : « نفح الريح ينفح نفحا ، وله نفحة طيبة ، أى هبوب من الخير • وقد يستعار ذلك للشر »(١١٧) •

ونرى استعارة هذا اللفظ للشر ، على جهة التهكم ، فى مثل قوله تعالى : « ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا انا كنا ظالمين »(١١٨) • ونلحظ هنا أن لفظ العذاب ينفى عن النفحة معناها المباشر وطبيعتها المعروفة ؛ ليصير المقصود المعنى الأسلوبى المفارقى ، وهو نقيض ذلك المعنى المعجمى المباشر تماما •

وربما استدعت البنية الصوتية لكلمة « نفحة » ، كلمة أخرى تدنو منها تلك البنية ، وتخالفها فى مدلولها ؛ وهى كلمة « لفحة » • وهذا نوع من العلاقات الايحائية التى يعنى بدراستها علم اللغة الحديث تحت مبحث (علاقة العلامة

---

(١١٦) الايضاح ١/١٢٨ •
(١١٧) المفردات ص ٧٦٢ •
(١١٨) الأنبياء ٤٦ •

بالعلامات الأخرى) : ففضلا عن العلاقة التركيبية(١١٩) ، هناك العلاقة الايحائية ، التى تعنى أن العلامة يمكن أن توحي بعلامات أخرى مشابهة لها من الناحية النحوية ، أو من حيث معناها ، أو من حيث التشابه الصوتى • وينبه علماء اللغة المحدثون الى أن العلاقات الايحائية علاقات غيابية in absentia جائزة ، تعتمد على الذاكرة • أما العلاقات التركيبية ، فهى علاقات حاضرة praesenta ؛ لأنها تعتمد على لفظتين أو أكثر ، جميعها حاضرة فى سلسلة حقيقية أو تعاقب حقيقى(١٢٠) •

ان تنكير « نفحة » ، التى لم ترد فى القرآن الكريم الا فى

---

(١١٩) وهى علاقات العلامة بالعلامات التى تسبقها و تتبعها ، أو تلك التى تحتويها أو تقع فيها • وهذه العلاقات نتيجة حقيقة معينة ، وهى أن العلاقات التى يتألف منها جزء من الكلام تنتظم فى خط (تعاقب زمنى):

انظر فى ذلك :

رولون س.ويلز : علم اللغة الحديث ، الأسس الأولى ، ترجمة دكتور يوئيل يوسف عزيز ، دار الشئون الثقافية العامة بوزارة الثقافة والاعلام، بغداد (١٩٨٦م) ص ٤٨ ، ٤٩ •

(١٢٠) المرجع السابق ص ٤٨ ، ٤٩

وقد ضرب ابن جنى أمثلة على ما أسماه بالطبع والوهم ، قد يستنبط منها ادراكه وفطنته الى شىء من ذلك ، يقول : « فكذلك الآخر : لما سمع ملكا وطال ذلك عليه ، أحس من « ملك » فى اللفظ ما يحسه من « حلك »• فكما أنه يقال : أسود حالك ، قال هنا من لفظة « ملك » : مالك ، وان لم يدر أن مثال « ملك » : « فعَل » أو « فعِل » ، ولا أن مالكا هنا « فاعل » أو « ما فل » » :

الخصائص ، مرجع سابق ٣/٢٧٦ •

الموضع السابق ، هو تنكير تقليل ؛ وذلك - كما يقول الخطيب القزويني - : « مستفاد من البناء للمرة ومن نفس الكلمة ؛ لأنها اما من قولهم : نفحت الريح ، اذا هبت ، أى هبة ، أو من قولهم : نفح الطيب ، اذا فاح ، أى فوحة »(١٢١) .

وفى تنكير التقليل فى « نفحة » ، ملحظ أسلوبى لطيف ؛ فاذا كانت النفحة الواحدة من العذاب تذكرهم بالويل المنتظر وبالظلم الذى اكتسبوه ، فما بالهم بما وراءها من لفحات العذاب ؟!

إنه التنكير المفيد للتقليل ؛ ليستقيم التوبيخ ، وللتنبيه على أن مس قدر يسير من العذاب لأمثال هؤلاء ، حقه أن يكون فى حكم المقطوع به .

ولكلمة « المس » فى المعجم القرآنى ، خصوصية تميزها عن « اللمس » . وذلك أن « المس » يقال فى كل ما ينال الانسان من أذى . قال الراغب : « المس كاللمس » . لكن اللمس قد يقال فى كل ما ينال الانسان من أذى ، نحو قوله تعالى : « وقالوا لن تمسنا النار »(١٢٢) ، وقوله « مستهم البأساء والضراء»(١٢٣)،وقوله : «ذوقوا مس سقر»(١٢٤)، وقوله : « مسنى الضر »(١٢٥) ، وقوله : « مسنى الشيطان »(١٢٦) ، وقوله : « مسهم اذا لهم مكر فى

---

(١٢١) الايضاح ١/١٢٨ .
(١٢٢) البقرة /٨٠ .
(١٢٣) البقرة /٢١٤ .
(١٢٤) القمر /٤٨ .
(١٢٥) الأنبياء /٨٣ .
(١٢٦) ص /٤١ .

آياتنا»(١٢٧) ، وقوله : « واذا مسكم الضر»(١٢٨) »(١٢٩)

وفى مواضع أخرى من القرآن ، استخدم المس استخداما كنائيا ؛ فكنى بالمس عن الجنون ، قال تعالى : « الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس »(١٣٠) .

وهكذا ، يبدو من الاستخدامات القرآنية المتقدمة ، أن المس أشد ارتباطا بالمدلولات المعنوية من عذاب وضر وجنون ونحوها .

ومن الجرى بالاشارة هنا ، تأكيد دلالة المعنى النحوى للتنكير فى « نفحة » ، والمعنى المعجمى فى « المس » ، باستخدام «من» التى للتبعيض ؛ فما أصابهم ، أو يصيبهم ، بعض من عذاب ربك ، وهناك المزيد !

ويتساوق المعنى العام السابق مع استخدام « ان » بالذات أداة للشرط هنا ؛ لتدل على أن مجرد وقوع مثل هذا المس الخفيف ، كاف لتنبيههم أنهم كانوا ظالمين . واذا كان هذا الأمر متيقن الوقوع ، فهو مبهم الوقت ؛ ولذلك جاز استعمال « ان » بدلا من « اذا » .

من ناحية أخرى ، فان هذا المعنى ، يتوافق مع دخول اللام

---

(١٢٧) يونس / ٢١ .

(١٢٨) الاسراء / ٦٧ .

(١٢٩) المفردات ص ٧٠٩ .

(١٣٠) البقرة / ٢٧٥ .

على « ان » . وهى هنا اللام المؤذنة ؛ أى اللام الداخلة على أداة الشرط ، بعد تقدم القسم لفظا أو تقديرا (وهو هنا متقدم تقديرا) ؛ لتؤذن أن الجواب له ، لا للشرط ، أو للايذان بأن ما بعدها مبنى على قسم قبلها . وتسمى أيضا الموطئة ؛ لأنها وطأت الجواب للقسم ، أى مهدته(١٣١) .

٤/٢/٢ ومن المفارقات اللفظية فى الخطاب القرآنى أيضا، قوله تعالى : « وأما ان كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم . وتصلية جحيم »(١٣٢) . ومثل ذلك نجده فى قوله تعالى : « ثم انكم أيها الضالون المكذبون . لآكلون من شجر من زقوم . فمالئون منها البطون . فشاربون عليه من الحميم . فشاربون شرب الهيم . هذا نزلهم يوم الدين »(١٣٣) ، وقوله « انا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا »(١٣٤) .

وقد وردت « النزل » فى القرآن فى ثمانية مواضع ، منها المواضع السابقة التى استخدمت فيها جميعا الكلمة فى معنى الشر . أما المواضع الأخرى ، فقد استخدمت فيها استخدامها المألوف .

قال الزركشى فى تفسير « النزل » : « والنزل لغة : هو الذى يقدم للنازل تكرمة له قبل حضور الضيافة »(١٣٥) .

---

(١٣١) ينظر فى ذلك مثلا : البرهان ٤/٣٣٨ .
(١٣٢) الواقعة ٩٢ - ٩٤ .
(١٣٣) الواقعة ٥١ - ٥٦ .
(١٣٤) الكهف /١٠٢ .
(١٣٥) البرهان ٢/٣٣٣ .

ويقول الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) : « والعذاب لا يكون نزلا ، ولكن لما قام العذاب لهم في موضع النعيم لغيرهم ، سمي باسمه »(١٣٦) .

ويقول الراغب الأصبهاني : « والنزل ما يعد للنازل من الزاد . قال تعالى : « فلهم جنات المأوى نزلا »(١٣٧) ،وقال: « نزلا من عند الله »(١٣٨) ، وقال في صفة أهل النار : « لآكلون من شجر من زقوم .. » الى قوله : « هذا نزلهم يوم الدين »(١٣٩) ، وقال : « فنزل من حميم »« ١٤٠) »(١٤١).

وجاء في أساس البلاغة للزمخشري (ت ٥٣٨هـ) : « وهو حسن النزل والنزالة ، وأعد لضيفه النزل ، وطعام ذو نزل ونزل ، وهو ريعه .. ورجل ذو نزل : ذو فضل »(١٤٢) .

أما « الحميم » ، فقال عنه الراغب : « الحميم : الماء الشديد الحرارة »(١٤٣) .

هكذا يتضاد معني « النزل » في هذا السياق ، مع معناها

---

(١٣٦) البيان والتبيين ، مرجع سابق ١٠٦/١ .

(١٣٧) السجدة /١٩ .

(١٣٨) آل عمران /١٩٨ .

(١٣٩) الواقعة /٥٦ .

(١٤٠) الواقعة /٩٣ .

(١٤١) المفردات ص ٧٤٥ .

(١٤٢) الزمخشري (جار الله ابو القاسم محمود بن عمر) : أساس البلاغة ، تحقيق عبد الرحيم محمود ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م) ص ٤٥٣ .

(١٤٣) المفردات ص ١٨٥ .

المعجمى الذى وردت به فى مواضع أخرى من النص القرآنى ؛ كقوله تعالى : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا »(١٤٤) ، وقوله تعالى : « نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون • نزلا من غفور رحيم »(١٤٥) ، وقوله : « لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله وما عند الله خير للأبرار »(١٤٦) ؛ وقوله : « فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون »(١٤٧) .

فى مقابل هذا المعنى للنزل فى الآيات السابقة ، كان معنى النزل ، فى الآيات التى ضمت قرينة المفارقة ، وأكل شجر الزقوم وشرب الحميم • ومن هذا التضاد يتأتى معنى التهكم بالمخاطب وبهذا المصير الذى ينتظره ؛ فاذا كان النزل للراحة والاستقرار والدعة ، فان هؤلاء « هذا نزلهم » الذى لا راحة فيه ولا دعة بنواله !

ويجىء هذا التهكم بيانا لمصيرهم ، وردا على سخريتهم من البعث ، وتكذيبهم له حين قالوا : « أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون »(١٤٨) • ففى أسلوبهم - كما يقول دكتور عبد الحليم حفنى - نغمة واضحة السخرية ، ولو لم

---

(١٤٤) الكهف ١٠٧ •
(١٤٥) فصلت ٣٢ •
(١٤٦) آل عمران ١٩٨ •
(١٤٧) السجدة ١٩ •
(١٤٨) الواقعة ٤٧ •

يقتدوا الى السخرية من البعث ومن القائلين به لقالوا مثلا : لن نبعث بعد أن نكون ترابا وعظاما نحن وآباؤنا ، ولكنهم يصوغون انكارهم وتكذيبهم فى هذا الاستفهام الساخر «أئذا متنا ٠٠ » ثم « أئنا لمبعوثون »(١٤٩) ٠

وفى تنكير « نزل من حميم » بيان للنوعية ، أى نوعية النزل الذى ينتظرهم ٠ وفى عبارة « هذا نزلهم » نلحظ ثلاثة أشياء مهمة :

(أولها) تعريف المسند اليه بالاشارة ؛ وذلك « لتمييزه أكمل تمييز ؛ لصحة احضاره فى ذهن السامع بوساطة الاشارة حسنا »(١٥٠) ٠

و (ثانيها) أن الاشارة هنا للقريب ، وربما جعل القرب ذريعة الى التحقير ٠ وهو هنا تحقير نوع النزل ٠

و (ثالثها) اضافة المسند « نزل » الى الضمير « هم » ٠ ومعروف أن من أغراض الاضافة التحقير أيضا(١٥١) ٠

٥/٢/٢ ومن المفارقات اللفظية كذلك ، ما نجده فى قوله تعالى : « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ٠ فى سموم وحميم ٠ وظل من يحموم ٠ لا بارد ولا كريم »(١٥٢) ٠

وهذا هو الموضوع الوحيد الذى استخدم فيه الظل مع

---

(١٤٩) التصوير الساخر فى القرآن الكريم ، مرجع سابق ص ٢١٥

(١٥٠) الايضاح ١١٨/١ ٠

(١٥١) المرجع السابق ١٢٦/١ ٠

(١٥٢) الواقعة ٤١ ـ ٤٤ ٠

اليحموم . وهو كذلك الموضع الوحيد الذى وردت فيه كلمة « يحموم » .

يقول الراغب الاصبهانى فى شرح « اليحموم » : « وقوله عز وجل : « وظل من يحموم » للحميم ، فهو يفعول من ذلك . وقيل : أصله الدخان الشديد السواد ؛ اما لما فيه من فرط الحرارة ، كما فسره فى قوله : « لا بارد ولا كريم » ، أو لما تصور فيه من الحممة ، فقد قيل للأسود يحموم . وهو من لفظ الحممة »(١٥٣) .

وقد جعل الزركشى الآيات السابقة من سورة «الواقعة» من خطاب التهكم ؛ « وذلك لأن الظل من شأنه الاستراوح واللطافة ، فنفى هنا ؛ وذلك أنهم لا يستأهلون الظل الكريم »(١٥٤) .

ولا شك أن تقديم الظل ثم نفيه ومنعه عنهم ، فيه التذكرة بحقيقة الظل الذى كان سيكون لهم ، لو لم يكونوا كذلك . انه ظل ليس له من الظل الا اسمه ، كما يقول سيد قطب(١٥٥) ؛ وذلك لأنه من « يحموم » « لا بارد ولا كريم » . ان الظل هنا « ظل الدخان اللافح الخانق . انه ظل للتهكم والسخرية من نوع ذلك الظل ذى الثلاث الشعب الذى لا ظليل ولا يغنى من اللهب ! وقد ذكره فى المرسلات . أو هنا «لا بارد ولا كريم» .

---

(١٥٣) المفردات ص ١٨٦ .

(١٥٤) البرهان ٢/٢٣٢ - ٢٣٣ .

(١٥٥) سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن ، دار الشروق ، الطبعة العاشرة (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م) ص ١٠٥ .

هو ظل ساخن ، وهو كذلك كز بخيل ، لا يحسن استقبالهم ولا يهيىء لهم الراحة والاسترواح »(١٥٦) .

ومما يتسم به الأسلوب القرآنى ، أنه يبث فى الجامد نبض الحياة ؛ فالظل - كما يقول سيد قطب(١٥٧) - ظاهرة تشهد وتعرف ، ولكنه فى تعبير القرآن نفس تحس وتتصرف ، على نحو ما نجد فى الآية السابقة .

ومهما يكن من أمر،فان بناء العبارة ، فى «ظل من يحموم» على التضاد ، أبلغ ما يكون فى التهكم بهم ، مع اثارة الحسرة فى نفوسهم ، على ذلك المصير الذى انقلبوا اليه ، وحرمانهم الظل الظليل .

وينبغى لنا أن نتوقف عند « من » فى : « نفحة من عذاب»، و « نزل من حميم » ، و « ظل من يحموم » : ف : « من » فى هذه المواضع جميعا لبيان الجنس ؛ فالأشياء المذكورة هنا ، هى « النفحة » و « النزل » و « الظل » ، ولكن الأجناس التى تندرج تحتها هى « العذاب » و « الحميم » و « اليحموم » . و «من» التى لبيان الجنس لها علامتان :

(الأولى) أن يصح وضع « الذى » موضعها .

و (الأخرى) أن يصح وقوعها صفة لما قبلها(١٥٨) .

---

(١٥٦) سيد قطب : مشاهد القيامة فى القرآن ، مرجع سابق ص ١١٠ - ١١١ .

(١٥٧) التصوير الفنى ص ٢٥١ .

(١٥٨) البرهان ٤/٤١٧ .

وبناء على ذلك ، يصير التقدير فيما سبق : النفحة التى هى العذاب ، والنزل الذى هو الحميم ، والظل الذى هو اليحموم ؛ أى : النفحة العذابية ، والنزل الحميمى ، والظل اليحمومى . وذلك أن « من » التى لبيان الجنس ، عكس التى للتبعيض ؛ فالتى للتبعيض ، يكون ما قبلها بعضا مما بعدها . فاذا قلت : أخذت درهما من الدراهم ، كان الدرهم بعض الدراهم . أما « من » هذه التى لبيان الجنس ، فيكون ما بعدها بعضا مما قبلها(١٥٩) .

اذن العذاب بعض النفحة ، والحميم بعض النزل ، واليحموم بعض الظل .

ويمكننا ، فى ضوء معرفة أنواع العلاقات الدلالية داخل الحقول المعجمية ، أن نلاحظ أن هذه الاستخدامات القرآنية ، ترتكز على احدى العلاقات الدلالية المعروفة ؛ وهى علاقة التضاد Antonymy . وللتضاد أنواع عدة(١٦٠) . وهى

---

(١٥٩) انظر فى تفصيل ذلك : البرهان ٤/٤١٧ .

(١٦٠) منها بخلاف ما نذكر هنا : التضاد الحاد أو غير المتدرج ، مثل : ميت ـ حى ، والتضاد العكسى ، وهو علاقة بين أزواج من الكلمات مثل : باع ـ اشترى . والتضاد الاتجاهى مثل العلاقة بين : أعلى ـ أسفل . والتضاد العمودى ، مثل : الشمال بالنسبة للشرق والغرب ، حيث يقع عموديا عليهما . والتضادات التقابلية أو الامتدادية ، مثل : الشمال بالنسبة للجنوب .

(انظر فى تفصيل ذلك : أحمد مختار عمر (دكتور) : علم الدلالة ، عالم الكتب ، الطبعة الثانية ، القاهرة (١٩٨٨م) ص ١٠٢ ـ ١٠٤) .

فى هذه الاستخدامات أقرب شىء الى ما يسمى بالتضاد المتدرج gradable ؛ فالكلمتان : « ظل » و « يحموم » ، يمكن وضعهما على مقياس متدرج ، يشتمل - الى جانب التضاد المتطرف - على أزواج من التضادات الداخلية ، مثل : جهنم ، لظى ، الحطمة ، السعير ، سقر ، الجحيم ، الهاوية .

يتضح لنا من كل ذلك ، أن الاستخدام القرآنى ، قد استعاض عن الطيب الذى يدخل مع النفحة فى حقل دلالى واحد بالعذاب ؛ وعن الطعام الكريم الذى يدخل مع النزل فى حقل دلالى واحد بالحميم ، وهو من حقل آخر تماما ؛ وعن الشجر الظليل الذى يقع مع الظل فى حقل دلالى واحد باليحموم ، وهو من حقل آخر مغاير تماما كذلك . وكأن الاستخدام القرآنى ، حين يذكر العذاب يومىء الى الطبيب وعيش السعادة ، وحين يذكر الحميم يومىء - فى الوقت ذاته - الى التذكرة بالعيش الكريم ، وحين يذكر اليحموم ، يومىء كذلك الى الجنات والظل الظليل !

واذا كان المحدثون من أصحاب نظرية الحقول الدلالية Semantic Field Theory ، يؤسسون نظريتهم ، على أن فهم معنى الكلمة ، يوجب علينا - كما يقول ألستون Alston - أن نفهم كذلك مجموعة الكلمات المتصلة بها دلاليا(١٦١)، أو يوجب - كما يقول ليونز Lyons - دراسة العلاقات بين المفردات داخل الحقل أو الموضوع الفرعى(١٦٢) ، باعتبار

---

(١٦١) Alston, William, Theories of Meaning, in: Theory of Meaning, USA. (1970) P.14

(١٦٢) المرجع السابق ص ١٤ .

أن معنى الكلمة - فى رأيه - هو محصـول علاقاتها بالكلمات الأخرى فى داخل الحقل المعجمى lexical field (١٦٣) ، اذا كان ذلك كذلك ، فان الاستخدامات القرآنية السـابقة ، والسياقات التى وردت فيهـا ، تقضى بوجوب ضـم الكلمات الأخرى التى تدخل مع كلمات كل حقل فى علاقة تضاد أو تخالف حتى يصبح تحديدنا معنى الكلمة أدق وأقوى تكاملا • ويدعم رأينا ثلاثة أمور :

(أولها) الاسـتخدامات اللغوية ذاتهـا ، وما لها من قيم أسلوبية خاصة فى بعض المواقع •

(ثانيها) أن أصـحاب نظرية الحقول الدلالية أنفسـهم ، يتفقـون على أنه لا يصـح اغفـال السـياق الذى ترد فيـه الكلمة (١٦٤) •

و (ثالثها) أن بعض أصحاب نظرية الحقول الدلالية ، قد وسعوا مفهوم الحقـل الدلالى ، حتى صار يضـم - من جملة ما يضم - الكلمات المتضـادة والكلمـات المترادفة ؛ على نحو ما فعل جوليس Jolles ، أول من اعتبر الألفاظ المترادفة والمتضادة من الحقول الدلالية (١٦٥) •

---

(١٦٣) Lehrer, A., Semantic Fields and Lexical Structures Amsterdam — London (1974) P. 22

(١٦٤) Lyons, John, Semantic, Vol. 1, Cambridge Uni. Press (1977) p p. 268 — 269

(١٦٥) Vassilyve, L.,M., The Theory of Semantic Fields, in: Linguistics, No. 137 (1974) P. 89

وقارن : علم الدلالة ، مرجع سابق ص ٨٠ - ٨١ •

ومهما يكن من أمر ، فان الآيات السابقة ، قد عقدت بين الثنائيات اللفظية : نزل / حميم ؛ ظل / يحموم ؛ نفحة / عذاب ... الخ ، عقدت علاقة دلالية من النوع السابق ، فاخرجتها من حيز المفردات ، فصارت استخداما لغويا ، يعرض الكفاءة الدلالية التى تتمتع بها كل علامة منها فى النظام اللغوى القرآنى بخاصة . وتتجلى تلك الكفاءة من مقارنة الاستخدام الحالى المرتبط بسياقه (انزال العذاب بألوانه المختلفة) ، بالاستخدام النمطى الذى تعهده تلك العلامات فى النظام اللغوى العام . ومن المعروف - كما يقول بركله Brekle - أنه ينبغى لنا - عند تحديد مضمون العلامات اللغوية - أن نميز تمييزا جوهريا ، بين مواصفات الاستخدام الحالى المرتبط بسياق الحدث اللغوى وبين الاستخدام النمطى الذى يحدد الكفاءة الدلالية للعلامة فى النظام اللغوى ؛ فالاستخدام النمطى الذى يقدم المدلول للعلامة اللغوية ، يتأتى من التحليل الاجمالى للسمات المميزة للاستخدام فى جميع سياقات الحدث اللغوى(١٦٦) .

٦/٢/٢ ولعل من الجائز ، أن نجعل من هذا النوع من المفارقات اللفظية القرآنية - فضلا عما تقدم - قوله تعالى : « فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى .

---

(١٦٦) Brekle. Herbert, E., Semantik, Eine Einfuehrung in die Sprachwissen schaftliche Bedeutungslehre, 2., verbesserte Auflage, Wilhelm Fink Verlag, Muenchen (1972) S. 60

وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى »(١٦٧) .

فالتيسير لليسرى هو الأمر الطبيعى ؛ لأنه تيسير لبلوغ خير . اما أن يكون التيسير للعسرى ، فذلك قصد فيه الى الجمع بين متناقضين جمعا يجعل التيسير تيسيرا من نوع آخر ، للشر والمعصية ، لجهنم !

وهذا هو الموضع الوحيد فى القرآن الكريم لاستخدام التيسير مع العسرى .

ويلاحظ أن الغضب أو الانتقاد الشديد الذى يبنى دلاليا على السخرية المبطنة ، يقتضى مثل هذا المستوى من مستويات المجاز الذى يتأسس على التغاير والتضاد . وهنا تقصد العبارة الى المفارقة ؛ لبلوغ الاتقان وتحقيق الاعجاز .

وترى الأستاذة الدكتورة عائشة عبد الرحمن - وتوافقها الرأى - « أن استعمال العسرى ، كاستعمال اليسرى ، ليس ملحوظا فيه المصدرية كالعسر واليسر ، وانما الملحوظ فيهما ، بصيغة الفعلى ، أقصى اليسر وأشد العسر ، أو هما اليسر الذى لا يسير مثله ، والعسر الذى ما بعده عسر . ونظيرهما فى القرآن من غير المادة : البطشة الكبرى ، والنار الكبرى .

واستعمال التيسير مع العسرى ، مبالغة فى الوعيد والنذير لمن بخل واستغنى »(١٦٨) .

---

(١٦٧) الليل ٥ - ١٠ .

(١٦٨) عائشة عبد الرحمن (دكتورة) : التفسير البيانى للقرآن الكريم ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة (١٩٧٧م) ٢/١٠٠٩ .

وللراغب الأصبهانى لفتة صائبة ، يربط فيها بين التجليات اللغوية المختلفة للنسق القرآنى ، نراها فى قوله : « وقوله « فسنيسره لليسرى » ، « فسنيسره للعسرى » ـ فهذا وان كان قد أعاره لفظ التيسير، فهو على حسب ماقال عزوجل: « فبشرهم بعذاب أليم »(١٦٩) .

ولا شك أن استخدام فعل التيسير فى الحالين ، قد حقق على المستوى اللفظى نوعا من المشاكلة . وقد نتجت هنا عن ذكر الشىء بلفظ غيره .

ان استخدام « فسنيسره » مرتين ، يعنى أن هناك تيسيرين أحدهما لليسرى ، والآخر للعسرى . وتصبح المقابلة هنا بين

---

(١٦٩) المفردات ص ٨٤٨ .

وللسلف آراء كثيرة فى قوله تعالى : « فسنيسره للعسرى » : « قال عطاء : سوف أحول بين قلبه وبين الايمان به وبرسولى . وقال مقاتل : يعسر عليه أن يعطى خيرا . وقال عكرمة عن ابن عباس : نيسره للشر . قال الواحدى : وهذا هو القول ، لأن الشر يؤدى الى العذاب ، فهو الخلة العسرى . والخير يؤدى الى اليسر والراحة فى الجنة ، فهو الخلة اليسرى: يقول : سنهيؤه للشر ، بأن يجريه على يديه » (انظر : التبيان فى أقسام القرآن لابن قيم الجوزية ، تصحيح وتعليق محمد حامد الفقى ، دار المعرفة بيروت (١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م) ص ٦٢ » .

وقال ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) : « والتيسير للعسرى يكون بأمرين : (أحدهما) أن يحول بينه وبين أسباب الخير ، فيجرى الشر على قلبه ونيته ولسانه وجوارحه . و (الثانى) أن يحول بينه وبين الجزاء الأيسر ، كما حال بينه وبين أسبابه » (المرجع السابق ص ٦٢ ـ ٦٣) .

النوعين أشد بيانا . والمقابلة ، كما نعرف ، من الأدوات الأسلوبية التى تزيد البنية الدلالية للمفارقة عمقا وقوة تأثير . وذلك أن المقابلة تعنى الجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر وبين ضديهما . فاذا شرطنا هنا شرطا شرطنا هناك ضده . والأشياء تتمايز - كما نعرف - بأضدادها .

واذا نظرنا مرة أخرى الى الآيات من قوله تعالى : « فأما من أعطى ... » الى قوله تعالى : « فسنيسره للعسرى » ، لرأيناها أيضا مقابلة نقيضية ، جاءت على مقابلة أربعة بأربعة ؛ فهى ذات تشكيل ثمانى(١٧٠) .

٧/٢/٢ وفى هذا الاطار المضمونى للتيسير للعسرى ، نجد الهداية الى صراط الجحيم فى قوله تعالى : « هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون . احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون . من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم »(١٧١) .

وقد وقع لفظ « الصراط » فى القرآن الكريم ، خمسا وأربعين مرة، منها ثلاث وثلاثون مرة للصراط المستقيم . وفى المواضع الأخرى ، كان الصراط السوى ، وسواء الصراط وصراط الحميد ، وصراط العزيز الحميد ونحوها .

ويلاحظ أن وصف الصراط ، بمثل هذه الصفات ، هو ما يتفق مع معناه الذى يلازمه فى المألوف من الكلام ، حتى عند اطلاق اسم الجنس دون تخصيص ، وهذا ما نجده فى نحو

---

(١٧٠) البرهان ٣/٤٦٤ .
(١٧١) الصافات ٢١ - ٢٣ .

قوله تعالى : « وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون»(١٧٢) · فالصراط اذن، هو الطريق المستقيم(١٧٣)، والسراط بالسين لغة فيه ، وهو أيضا يعنى الطريق المستسهل(١٧٤) · كذلك ، فان الاضافة فى « صراط الجحيم» تصنع مفارقة ظاهرة ·

أما الفعل « هدى » ومشتقاته ، فقد استخدم مع الصراط المستقيم ، والصراط السوى ونحوهما ، فى واحد وعشرين موضعا من القرآن · ويعنى ذلك أن الهداية الى الصراط المستقيم ونحوه ، صارت فى لغة القرآن ، أشبه بالمصاحبة اللفظية التى تخرج الهداية الى صراط الجحيم ، الى زاوية المفارقة اللفظية ·

فالهداية ينبغى لها أن تكون الى الخير · والهداية فى قرينة المفارقة التى معنا ، من باب تعريف الطريق ، وهو تعريف بطريق هو الشر والهلاك بعينه ·

وينبغى ، فضلا عما سبق ، الالتفات الى عدة أمور مهمة :

(أولها) استخدام لفظ الهداية بالذات ؛ لأنه يكمل البنية الدلالية للمفارقة ، مع صراط الجحيم ، على خير ما ينبغى لهذه البنية أن تكون · وذلك أن الهداية تعنى : الدلالة بلطف(١٧٥) ·

---

(١٧٢) المؤمنون ٧٤ ·

(١٧٣) المفردات ص ٤١٢ ·

(١٧٤) المرجع السابق ص ٣٣٧ ·

(١٧٥) المرجع نفسه ص ٧٨٤ ·

والدلالة بلطف الى صراط الجحيم ، من أشد أساليب التهكم بهؤلاء الضالين .

ويذكرنا استخدام لفظ الهداية ، على هذا النحو التهكمى، بما نجده كذلك فى موضع آخر من القرآن الكريم ، هو قوله تعالى : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد . كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه الى عذاب السعير »(١٧٦) . فهناك الهداية الى صراط الجحيم ، وهنا الهداية الى عذاب السعير .

وقد أثار استعمال لفظ الهداية ، فى الموضعين السابقين، انتباه الراغب الأصبهانى ، وذلك فى قوله : « ان قيل : كيف جعلت الهداية دلالة بلطف ، وقد قال الله تعالى : « فاهدوهم الى صراط الجحيم » ، وقال : «ويهديه الى عذاب السعير»؟ قيل: ذلك استعمل فيه استعمال اللفظ على التهكم،مبالغة فى المعنى؛ كقوله تعالى : « فبشرهم بعذاب أليم » ، وقول الشاعر :

* تحية بينهم ضرب وجيع *(١٧٧)

و (ثانيها) أن الفعل «هدى»، فى قرائن المفارقة السابقة، من باب الهداية لا الهدى . وذلك أن الهدى ، وان كان والهداية فى موضوع اللغة واحدا ، قد خصه الله عز وجل ، بما تولاه وأعطاه واختص هو به دون ما هو الى الانسان ؛ نحو قوله تعالى : « هدى للمتقين »(١٧٨) . وقوله :

---

(١٧٦) الحج ٣ ، ٤ .

(١٧٧) المفردات ص ٧٨٤ .

(١٧٨) البقرة ٢/ .

« أولئك على هدى من ربهم »(١٧٩) ، وقوله : « وهدى للناس »(١٨٠) ، وقوله : « فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى » - الآية(١٨١) ، وقوله : « ولو شاء الله لجمعهم على الهدى »(١٨٢) ، وغير ذلك مما نجده فى مواضع أخرى كثيرة من القرآن .

و (ثالثها) أن لفظ الهداية ، فى قرينة المفارقة السابقة ، أقوى أثرا من مرادفات أخرى ؛ كالارشاد ونحوه ، فى انتاج الدلالة المفارقية ؛ وذلك أن الارشاد الى الشىء ، هو التطريق اليه والتبيين له(١٨٣) . فهو اذن محض تطريق وتبيين . أما الهداية ، فهى التمكن من الوصول الى الشىء ، كما يقول أبو هلال(١٨٤) . والتمكن ، من الوصول الى طريق الجحيم ، فيه من بالغ التهكم بهم ما لا يخفى .

و (رابعها) أن وضع « الصراط » فى هذه المفارقة ، أنسب هو الآخر للمعنى المفارقى من مرادفات أخرى . وذلك أن « الصراط » ، فى ذاته وعلى اطلاقه ، يعنى الطريق السهل . قال الشاعر :

حشونا أرضهم بالخيل حتى تركناهم أذل من الصراط

---

(١٧٩) البقرة ٥ .
(١٨٠) الأنعام ٩١ .
(١٨١) البقرة ٣٨ .
(١٨٢) الأنعام ٣٥ .
(١٨٣) الفروق فى اللغة ، مرجع سابق ص ٢٠٣ .
(١٨٤) المرجع السابق ص ٢٠٣ .

وهو من الذل خلاف الصعوبة ، وليس من الذل خلاف العز(١٨٥) ٠

أما الطريق ، فلا يقتضى السهولة ٠ والسبيل اسم يقع على ما يقع عليه الطريق وعلى ما لا يقع عليه الطريق ٠ تقول : سبيل الله وطريق الله ٠ وتقول : سبيلك أن تفعل كذا ، ولا تقول : طريقك أن تفعل به ، ويراد به سبيل ما يقصده ، فيضاف الى القاصد(١٨٦) ٠

من هنا ، فان افادة لفظ الصراط - فى ذاته - معنى السهولة ، فضلا عن اختصاصه اذا أطلق بما هو الحق، مما يقيم تضادا مع نوع الصراط المخصوص فى قرينة المفارقة ؛ وهو صراط الجحيم ٠ انه بالطبع تضاد ، قصد اليه الخطاب تهكما بهؤلاء المستسخرين بالآيات ، المنكرين للبعث ، المكذبين بيوم الفصل ٠ فما أشقه من صراط ، وما آلم ما يوصل اليه من عذاب !

وقد اكتسب لفظ « الهدى » ، فى موضع آخر من القرآن ، معنى لغويا سياقيا ، كان فيه حكاية لزعم ، وهو على سبيل التهكم بهذا الزعم أيضا ٠ وذلك قوله تعالى : « قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد اذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه الى الهدى ائتنا قل ان هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم

---

(١٨٥) المرجع نفسه ص ٢٩٥ ٠

(١٨٦) المرجع نفسه ص ٢٩٥ ٠

لرب العالمين »(١٨٧) · قال الشوكانى : « (له أصحاب يدعونه الى الهدى) ويزعمون الذى يأمرونه به هدى »(١٨٨) · فحكى زعمهم باستخدام لفظ « الهدى » · واللفظ فى سياقه يخرج الى الدلالة على النقيض · فهو ليس من الهدى بمعناه المعجمى المعروف ؛ لأن هدى أمثال أولئك الأصحاب ، انما هو الى طريق الشر ، وهو بهذه الكيفية التى يفيدها السياق اللغوى النصى ، ليس الا تحرى طريق الضلال والكفر ·

وفى استعمال « أصحاب » مقابلا بالمعنى الضمنى الذى يفيده لفظ « الهدى » فى السياق ، وهو - كما رأينا - ضد معناه تماما ، فى ذلك ما يكشف عن فجأة النتيجة التى أتت بها مثل هذه الصحبة · ومعلوم أن الصاحب هو الملازم · ولا فرق بين أن تكون مصاحبة بالبدن ، وهو الأصل والأكثر ، كما يقول الأصبهانى ، أو بالعناية والهمة(١٨٩) · واذا كان الصاحب لا يقال فى العرف الا لمن كثرت ملازمته(١٩٠) ، فقد تكشف طول الملازمة بينه وبين أصحابه عن هذه النهاية الخائبة : الضلال ، لا الهدى المزعوم !

ولعل من المفيد هنا ، أن نشير الى ما ذكره أبو هلال العسكرى عن معنى الصحبة ؛ فعنده أن الصحبة ، تفيد انتفاع أحد

---

(١٨٧) الأنعام /٧١ ·

(١٨٨) الشوكانى (محمد بن على بن محمد) : فتح القدير ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م)

(١٨٩) المفردات ص ٤٠٥ ·

(١٩٠) المرجع السابق ص ٤٠٥ ·

(١٩١) الفروق فى اللغة ص ٢٧٧ ·

الصاحبين بالآخر(١٩١) · وعنده أن أصل الصحبة فى العربية : الحفظ ، ومنه يقال : صحبك الله ، وسر مصاحبا : أى محفوظا(١٩٢) ·

فاذا كان على الصاحب أن يكون لصاحبه نافعا وحافظا ، فقد خدع هذا الحيران بأصحابه ، فزعموا له الضلال هدى ، فلا نفعوه ولا من الاستغواء لا ستهواء والحيرة حفظوه !

ولعل فى الكلام السابق ، ما يلمح الى ارتباط كلمة«صاحب» بالسياق اللغوى العام للآية ، وأنها أوفق من أخواتها المرادفات - نحو : صديق وخليل وقرين - لهذا السياق ؛ فالصاحب ينبغى له أن يكون لصاحبه - كما ذكرنا - نافعا حافظا ، وكذلك قدمت الآية ، قبل قرينة المفارقة التى فيها « صاحب » ، بحديث عن نفى النفع : « أندعو من دون الله ما لا ينفعنا » ، ونفى الحفظ : « استهوته الشياطين فى الأرض حيران » ، وذلك كشفا لحقيقة هذه الصحبة المزعومة !

٨/٢/٢ ولعله من الجائز لنا كذلك ، أن ندخل فى هذا الاطار الدلالى للمفارقات السابقة ، قوله تعالى : « انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون · من كفر بالله من بعد ايمانه الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم »(١٩٣) ·

---

(١٩٢) المرجع السابق ص ٢٧٧ ·

(١٩٣) النحل ١٠٥ - ١٠٦ ·

دعنا أولا نلاحظ أنه حيثما وردت « شرح » فى القرآن ، صاحبتها لفظيا كلمة « الصدر » . ومواضع ذلك فى القرآن بخلاف الموضع المذكور آنفا ، قوله تعالى : « أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه »(١٩٤) ، وقوله : « ألم نشرح لك صدرك »(١٩٥) ، وقوله : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام »(١٩٦) ، وقوله : « قال رب اشرح لى صدرى »(١٩٧) .

وشرح الصدر فى تلك المواضع جميعا للاسلام والايمان، فصار الشرح - لذلك - الفا فى لغة الخطاب القرآنى ، فضلا عن كونه كذلك فى اللسان العربى بعامة . فأصل الشرح بسط اللحم ونحوه . يقال : شرحت اللحم وشرّحته . ومنه شرح الصدر ، أى بسطه بنور الهى وسكينة من جهة الله وروح منه(١٩٨) . من هنا ، تصنع قرينة « شرح الصدر بالكفر » - بتأثير وقوعها فى علاقة تضاد دلالية مع مألوف المصاحبة اللفظية السابقة (أعنى شرح الصدر للاسلام والايمان) - تصنع مفارقة لفظية ساخرة بهذا الذى انشرح صدره بالكفر ، لا للايمان ! .

وقد استخدمت الباء هنا ، بينما استخدمت اللام فى :

---

(١٩٤) الزمر ٢٢ .

(١٩٥) الشرح : ١ .

(١٩٦) الأنعام /١٢٥ .

(١٩٧) طه /٢٥ .

(١٩٨) المفردات ، طبعة دار المعرفة ، بيروت ص ٢٥٨ .

« للاسلام » ، كأنما جعلوا الكفر وسيلة أو سببا لشرح الصدر عندهم ٠

ولم يرد فى القرآن : « انشرح قلبه » ، كما لم يرد فيه ـ من ناحية أخرى ـ « اطمأن صدره » ٠ ظل الانشراح فيه للصدر واستعمل الاطمئنان للقلب(١٩٩) ٠

ويذكر الأصبهانى قول بعض الحكماء : « حيثما ذكر الله تعالى القلب ، فاشارة الى العقل والعلم ، نحو : « ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب »(٢٠٠) ، وحيثما ذكر الصدر ، فاشارة الى ذلك والى سائر القوى من الشهوة والهوى والغضب ونحوها»(٢٠١)٠ولعل ذلك لما بين الصدر والقلب من علاقة اشتمال ؛ فالصدر مشتمل على القلب ، فكانت اشارات القلب ـ لذلك ـ بعض من جملة اشاراته ٠ وكأنما فى ذلك شىء من منطق اللغة ؛ فلما كان القلب محل الحركات النفسية والشعورية المتقلبة ، ناسبه ـ عند هدأتها ـ الاطمئنان ٠ ولما كان الصدر وعاء القلب وغيره ، ناسبه ـ لظهوره واتساعه ـ الانشراح الذى يعنى البسط !

٩/٢/٢ ومن المفارقات اللفظية فى الخطاب القرآنى كذلك ، قوله تعالى : « وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا

---

(١٩٩) ومواضعه هى : البقرة ٢٦٠ ، آل عمران ١٢٦ ، المائدة ١١٣ ، الأنفال ١٠ ، النحل ١٠٦ ، الرعد ٢٨ ٠

(٢٠٠) ق ٣٧ ٠

ربكم يخفف عنا يوما من العذاب »(٢٠٢) ، وقوله تعالى : « وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا حتى اذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم »(٢٠٣) ، وقوله تعالى : « وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير • اذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور • تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير»(٢٠٤) •

والخزنة جمع الخازن • والخزن حفظ الشيء فى الخزانة ، ثم يعبر به عن كل حفظ(٢٠٥) •

والمفارقة هنا فى « خزنة جهنم » ؛ فقد جعل ملائكة جهنم خزنة ، وكأن جهنم بالمكان الذى يطمع فيه طامع أو يتسلل اليه متسلل ، أو كأنها بالشيء الذى يقام عليه خازن ، من مال أو ذهب أو شيء ثمين • وليست جهنم — على الحقيقة — بشيء من ذلك كله • فهذا تعبير مجازى ، أريد به التهكم بأولئك الكفار ، وما يلقون فى جهنم من عذاب أليم •

وقد سبق الجاحظ — بحسه وذوقه وادراكه اليقظ لما فى العبارة من مثيرات أسلوبية — سبق الى ملاحظة ذلك كله ، حين قال : « والخزنة : الحفظة • وجهنم لا يضيع منها شيء

---

(٢٠٢) غافر ٤٩ •

(٢٠٣) الزمر ٧١ •

(٢٠٤) الملك ٦ — ٨ •

(٢٠٥) المفردات ص ٢١٠ •

فيحفظ ، ولا يختار دخولها انسان فيمنع منها ، ولكن لما قامت الملائكة مقام الحافظ الخازن سميت به »(٢٠٦) ٠

وقد وردت كلمة « خزنة » أيضا فى صفة الجنة ، وذلك فى قوله تعالى : « وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين »(٢٠٧) ٠ ولكن شتان بين الخزنة هنا وخزنة النار فى الاستعمالات السابقة ٠

١٠/٢/٢ وفى هذا الاطار ذاته ، نجد الحديث عن العقاب فى الآخرة فى قوله تعالى : « ان الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط وكذلك نجزى المجرمين ٠ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزى الظالمين »(٢٠٨) ٠

والمفارقة هنا فى قوله تعالى : « لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش » ؛ فالمهاد المكان الممهد الموطأ(٢٠٩) ٠ والغواشى جمع غاشية ٠ والغاشية كل ما يغطى الشىء ٠ وقيل : الغاشية فى الأصل محمودة ، وانما استعير لفظها ههنا على نحو قوله: « لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش »(٢١٠) ٠

---

(٢٠٦) البيان والتبيين ١/١٠٦ ـ ١٠٧ ٠
(٢٠٧) الزمر ٧٣ ٠
(٢٠٨) الأعراف ٤٠ ـ ٤١ ٠
(٢٠٩) المفردات ص ٧٢٣ ٠
(٢١٠) المفردات ص ٥٤١ ٠

وقد استخدمت « الغاشية » فى موضع من القرآن كناية عن القيامة ، هو قوله : « هل أتاك حديث الغاشية »(٢١١) .

ويعنينا الآن أن المفارقة ، قد بنيت على أساس انتقال مجال الاستعمال لهذين اللفظين « مهاد » و « غواش » ، الى مجال دلالى آخر ؛ فقد انتفت عن « المهاد » وعن « الغواشى » ، الصفات المعروفة ، وصارا من جهنم (ولاحظ دور الحرف « من » فى بيان جنس المهاد وابرازه) . وذلك نوع تهكم بحال هؤلاء المكذبين والمستكبرين البائسة .

١١/٢/٢ بهذه الدلالات المفارقية الخاصة للنزل ، والمهاد، والظل الذى هو من حميم ونحوها ، يجوز لنا كذلك أن نجعل من المفارقة اللفظية ، قوله تعالى : « النار وعدها الله الذين كفروا »(٢١٢) . وذلك أن الفعل « وعد » هنا ، قد استعمل بدلا من « أوعد » . وهو - فيما يبدو - استعمال على جهة التهكم بحالهم . لقد وضع « الوعد » موضع « الوعيد » . وحديث الزمخشرى مثلا ، فى مادة « وعد » ، يؤكد استعمال « وعد » فى الخير ، و « أوعد » فى الشر . قال : « وعدته كذا وأوعدته بالعقوبة وتوعدته وأصبحت أرضهم واعدة اذا ترجى خيرها ، وقد وعدت . ويوم وعام واعد . ورأيت شجرها ونباتها واعدا . وأوعد الفحل وعيدا شديدا ، اذا هدر وهم أن يصول »(٢١٣) .

---

(٢١١) الغاشية ١ .

(٢١٢) الحج ٧٢ .

(٢١٣) أساس البلاغة ، مرجع سابق ص ٥٠٤ .

ومن شواهد الزمخشرى على الوعد بالخير ، قول الشاعر فى صفة النخل :

كيف تراها واعدا صغارها تسوء شناء العدا كبارها

ومنها قول ابن ميادة يصف مطرا :

سبقت أوائله أواخر نوئه
يمشرع عذب ونبت واعد(٢١٤)

وقد استعمل « الوعد » تهكما ، فى مواضع أخرى من القرآن ؛ منها قوله تعالى : « ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده »(٢١٥) . قال الأصبهانى : « وكانوا انما يستعجلونه بالعذاب ، وذلك وعيد »(٢١٦) . فوضع « الوعد » موضع « الوعيد » فى الآية ، يصنع مثل هذه المفارقة التهكمية الواضحة .

ومن استعمال « الوعد » تهكما كذلك ، قوله تعالى : « الشيطان يعدكم الفقر »(٢١٧) . وكان الزمخشرى يستشهد باستخدام « وعد » ، فى هذه الآية الكريمة ، على أن من المجاز : وعدته شرا(٢١٨) . بيد أنه ينبغى لنا هنا أن

---

(٢١٤) المرجع السابق ص ٥٠٤ .
(٢١٥) الحج ٤٧ .
(٢١٦) المفردات ص ٨٢٦ .
(٢١٧) البقرة ٢٦٨ .
(٢١٨) أساس البلاغة ص ٥٠٤ .

نبرز القول بأنه من المجاز ، باعتبار اجتياز اللفظ موضعه الذى وضع له فى نظام اللغة Usage الى موضع آخر فى الاستعمال الراهن Use ، على جهة المفارقة التهكمية ؛ وذلك أن الفقر ، انما هو وعيد بشر ، وليس له أن يكون - بحال - وعدا بخير .

ولعل استخدام « الوعد » - فى سياقات لغوية خاصة - للشر ، هو الذى حدا معجميا مثل الراغب الأصبهانى ، الى القول بأن « الوعد » ، يكون فى الخير والشر(٢١٩) . وقد أحصيت لاستعمال « الوعد » فى الشر عشرين موضعا فى القرآن . ومن هنا ، يبدو أن القول باستعمال « الوعد » - فى الآية السابقة - بغرض التهكم ، انما بنى على كون أكثر ما جاء الوعد فى القرآن للخير ؛ وذلك فى نحو مائة موضع . وفى الشر خاصة ، استخدم الوعيد .

ومن استخدام الوعد فى الخير ، قوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة »(٢٢٠) . ومن استخدام « الوعيد » فى الشر خاصة ، قوله تعالى : « كل كذب الرسل فحق وعيد »(٢٢١) . وقد وقع لفظ « الوعيد » فى القرآن فى مواضع ستة فقط(٢٢٢) ، منها الموضع السابق .

---

(٢١٩) المفردات ص ٨٢٦ .
(٢٢٠) المائدة ٩ .
(٢٢١) ق ١٤ .
(٢٢٢) وهى : طه ١١٣ ، ق ١٤ ، ٢٠ ، ٢٨ ، ٤٥ ، ابراهيم ١٤ .

ولا جرم أن البنية النحوية للمفارقة فى آية الحج السابقة، تستلزم الوقوف عند سر تقديم النار • والنار فى هذه البنية، تقوم بوظيفة المسند اليه • ومعلوم أن تقديم المسند اليه ، انما يكون ليفيد تخصيصه بالخبر الفعلى • وللمسند اليه المتقدم أحوال عدة(٢٢٣) ، نرى منها فى الآية الكريمة السابقة ، كونه معرفة والمسند مثبتا ، ولذلك أتى للتخصيص كما قلنا ؛ وهو تخصيصه بأنه - لا غيره - الموعود به • وكان تقديم المسند اليه ، ينتظر معه أن يكون مما يطلبه المخاطب ، أو يكون له فيه خير • فاذا عكس ، فى الوقت الذى أخبر فيه عنه بأنه وعد ، كان ذلك على جهة التهكم بحاله الذى يؤول اليه ، ومصيره الموعود • ولنا أن نلاحظ مجىء الفعل « وعد » - فى هذا الموضع - فى صيغة الماضى بالذات ، لا غيرها ، ايماء الى انتهاء الموعود به على هذه الصورة المتعينة : النار ، وليس لهؤلاء الكافرين معها حول ولا طول !

---

(٢٢٣) والأحوال الأخرى هى : أن يكون المسند منفيا ، وأن يكون المسند اليه نكرة مثبتا ، وأن يلى المسند اليه حرف النفى • انظر فى تفصيل ذلك :

الاتقان للسيوطى ، بتحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم ٣/١٥٣ - ١٥٤

الفصل الثالث

مفـارقة الحكاية أو الايهام

١/٣/٢ هـذا النوع من المفـارقات القرآنيـة ، خطاب بالشيء عن اعتقاد المخاطب دون ما في الأمر نفسه . انه حكاية زعم المخاطب أو المتحدث عنه في المفارقة . هنا تختار المفارقة من اللفظ ، ما يحكي هذا الزعم ، ويوهم بأنه حقيقي ومقرر ، في الوقت الذي تزدريه وتسخر منه . ويعني ذلك ، أن اللفظ الذي تختاره المفارقة ، له معنيان : أحدهما قريب توهم به المفارقة بصحة المعتقد ، والآخر بعيد تنقض به المفـارقة هذا المعتقد وتنفيه ؛ لتثبت ضده تماما .

وكان البيـانيون يسـتخدمون اصـطلاح « الايهـام » . والايهام عندهم ـ ويدعى التورية ـ أن يذكر لفظ له معنيان ، اما بالاشتراك ، أو التواطؤ ، أو الحقيقة ، أو المجاز : أحدهما قريب والآخر بعيد ، ويقصد البعيد ، ويورى عنه بالقريب ، فيتوهمه السامع من أول وهلة(٢٢٤) . بيد أن طريق الايهام في المفارقة ، يأخذ من المعاني السابقة خط المعنى المجازي ، وهو ـ في هذه الحـال ـ مجـاوزة معنى المنطـوق الى ضـده أو نقيضـه .

---

(٢٢٤) الاتقان ، بتحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم ٣/٢٥٠ .

ويروى القدماء ، من التراث الشعرى العربى ، نصوصا بنى المعنى فيها - فى الظاهر - على المدح الكامل ايهاما ، وانما يرد ذلك - فى الواقع - على جهة التهكم والاستهزاء ، ومنه قول الشاعر فى رجل محدودب الظهر :

لا تظنن حدبة الظهر عيبا
هى فى الحسن من صفات الهلال

وكذاك القسى محدودبات
وهى أنكى من الظبا والعوالى

كون الله حدبة فيك ان
شئت من الفضل أو من الافضال

فأنت ربوة على طود حلم
طال أو موجة ببحر نوال

واذا لم يكن من الوصل بد
فعسى أن تزورنى فى الخيال

فظاهر ما أورده مدح كامل ، كما ترى ، لما يظهر من صورته ، وانما أورده على جهة التهكم به والاستهزاء بحاله(٢٢٥) .

٢/٣/٢ واذا نظرنا الى الخطاب القرآنى ، وجدنا من هذا النوع قوله جل ثناؤه : « سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من

---

(٢٢٥) الطراز ، مرجع سابق ٣/١٦٤ - ١٦٥ .

بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله »(٢٢٦) . وهذا على تفسير « المعقبات » بالحرس حول السلطان ، كما يقول الزركشى(٢٢٧) . وقال الراغب الأصبهانى : « والتعقيب أن يأتى بشىء بعد آخر . يقال : عقب الفرس فى عدوه . قال تعالى : « له معقبات من بين يديه ومن خلفه » ـ أى ملائكة يتعاقبون عليه حافظين له »(٢٢٨) . وقال أبو عبيدة (ت ٢١٠هـ) : « مجازه : ملائكة تعقب بعد ملائكة ، وحفظة تعقب بالليل حفظة النهار ، وحفظة النهار تعقب حفظة الليل ، ومنه قولهم : فلان عقبنى ، وقولهم : عقب فى أثره . «يحفظونه من أمر الله » أى بأمر الله يحفظونه من أمره »(٢٢٩) . وعن ابن عباس أنه فسر « معقبات » بقوله : « معقبات » : الملائكة يحفظونه من أمر الله باذنه »(٢٣٠) . وقال الزمخشرى : « « له معقبات » هم ملائكة الليل والنهار يتعاقبون »(٢٣١) . وقال العلوى (يحيى بن حمزة) : « والمعقبات هم الحرس حول السلطان يحفظونه ـ على زعمه ـ من أمر الله ، فهو وارد على جهة التهكم ؛ لأن أمر الله اذا جاء وقضى لا يحفظ عنه حافظ ، ولا يمكن رده ، ولا يستطاع دفعه بحال »(٢٣٢) .

---

(٢٢٦) الرعد ١٠ ـ ١١ .

(٢٢٧) البرهان ٢/٢٣٢ .

(٢٢٨) المفردات ص ٥٠٩ .

(٢٢٩) مجاز القرآن ، مرجع سابق ١/٣٢٤ .

(٢٣٠) الاتقان بتحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم ٢/١٨ .

(٢٣١) أساس البلاغة ص ٣٠٨ .

(٢٣٢) الطراز ٣/١٦٤ .

وجدير بالاشارة ، أن ابن أبان قد جعل « من » فى الآية السابقة ـ بمعنى الباء ، أى يحفظونه بأمر الله(٢٣٣) · وكذلك قال المبرد (ت ٢٨٥هـ) بأن « من » ـ فى هذه الآية ـ بمعنى الباء ؛ أى بأمر الله · وذكر المبرد أن حروف الخفض ، يبدل بعضها من بعض ، اذا وقع الحرفان فى معنى فى بعض المواضع · وذلك كقوله تعالى : « ولأصلبنكم فى جذوع النخل »(٢٣٤) أى على(٢٣٥) ·

والأمر فى هذه المسألة الأخيرة ، يدور حول ظاهرة « التضمين » فى اللسان العربى ، بمعنى أن الحرف قد يضمن معنى حرف آخر · والآية التى ضرب بها المبرد مثلا ، حيثما فسر « فى » بمعنى « على » ، تستحضر الى ميدان البحث ، القيمة الأسلوبية لايثار « فى » على الحرف «على» المعهود تقريبا فى مثل هذا الموقع ، وهو بحث يتسع نطاقه الى حروف أخرى·

وكيفما كان الأمر ، فأنا لا أميل الى أن يكون منطلق البحث فى قرينة المفارقة فى آيات الرعد السابقة ، من ظاهرة « التضمين » ـ وذلك أن السياق اللغوى النصى ، يرشح ابقاء الحرف « من » ـ فى تلك المفارقة ـ على معناه ووظيفته؛ فالآيات المتقدمات على موقع المفارقة ، تخبر عن علمه سبحانه واحاطته بأمور عباده كلها : حملا أو غيضا ، غيبا أو شهادة،

---

(٢٣٣) البرهان ٤/٤٢٠ ·

(٢٣٤) طه ٧١ ·

(٢٣٥) المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد) : الكامل فى اللغة والأدب، مكتبة المعارف ، د·ت ٢/٨٢ ·

اسرارا بالقول أو جهرا به ، من استخفى منهم بالليل أو من هو سارب بالنهار . فلا تخفى عليه سبحانه خافية . فكيف اذن لأحدهم - بعد اخبار السياق اخبارا صريحا عن ذلك كله - أن يظن بأن له معقبات يحفظونه من أمر الله ؟! ومن ثم كانت المفارقة ايهاما بوجود معقبات ، على جهة السخرية بمثل هذا المعتقد الباطل .

وفي منطوق الآية ذاتها ما يؤكد الكلام السابق ؛ حيث يخبر سبحانه بأنه الولى ، وأن لا مرد لسوء اراده سبحانه بقوم من عباده . وفي الآيات الكريمات ابانة عما فات . قال تعالى : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال »(٢٣٦) .

ان اختيار لفظ « يحفظونه » حكاية لزعمه ؛ فالمعقبات - على زعمه - يحفظونه من أمر الله ، وهو تهكم ظاهر ؛ فانه لا يحفظه من أمر الله شيء اذا جاءه .

وفي صياغة المفارقة ما يعطى المزيد ؛ فالفعل «يحفظونه» مضارع ، يدل على الحضور والتجدد . و « المعقبات » لا تألوا

---

(٢٣٦) الرعد ٨ - ١١ .

جهدا ولا تدخر وسعا فى حفظه من أمامه ومن خلفه ! وكأن فى التفصيل ايهاما بحقيقة ، تريد العبارة ـ من جهة أخرى وفى الوقت نفسه ـ أن تقتلعها اقتلاعا • وفى التفصيل كذلك ، ما يمد بنية المفارقة الدلالية بطاقة هائلة على التهكم بسخف معتقدهم •

٣/٣/٢ ومن مفارقة الايهام كذلك قوله تعالى : « قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا »(٢٣٧) • والمفارقة هنا يصنعها الحرف « قد » • ومعلوم أن « قد » ترد مع المضارع ، فتفيد معنى التقليل ، أى تقليل وقوع الفعل • واستعمال « قد » فى الآية للتهكم ؛ فهو تعالى يعلم حقيقتهم ، ولا تخفى عليه خافية •

ولعل من المفيد هنا ، الاشارة الى أن « قد » وردت بهذا الاستعمال ، فى آيتين اثنتين متواليتين من سورة النور :

(الأولى) : قوله تعالى : « قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا »(٢٣٨) •

و (الأخرى) : قوله تعالى : «قد يعلم ما أنتم عليه»(٢٣٩) • ولعل « قد » ، فى هذين الموضعين ، للتقليل لمتعلق ؛ أى أن علمه تعالى بتسللهم ، أو علمه تعالى بما هم عليه ، هو أقل معلوماته سبحانه ، فهو بكل شىء عليم •

---

(٢٣٧) الأحزاب ١٨ •

(٢٣٨) النور ٦٣ •

(٢٣٩) النور ٦٤ •

وعند الزمخشرى (٥٣٨هـ) أن « قد » فى قوله تعالى : « ألا ان لله ما فى السموات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه »(٢٤٠) ـ أنها للتأكيد . وقال بأن « قد » ان دخلت على المضارع ، كانت بمعنى « ربما » ، فوافقت « ربما » فى خروجها الى معنى التكثير ؛ والمعنى : ان جميع السموات والأرض مختصا به خلقا وملكا وعلما ، فكيف يخفى عليه أحوال المنافقين ؟!(٢٤١) .

ويقول الراغب الأصبهانى : « واذا دخل « قد » على المستقبل من الفعل ، فذلك الفعل يكون فى حالة دون حالة ، نحو قوله تعالى : « قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا » ـ أى قد يتسللون أحيانا فيما علم الله »(٢٤٢) .

بيد أننا نلحظ غرض التهكم ـ فى الاستعمالات اللغوية الأسلوبية السابقة جميعا ـ واضحا ؛ فما هذا حاله ـ كما يقول يحيى بن حمزة العلوى ـ دال على القلة ؛ لأن المضارع اذا لصق به « قد » ، فهو دال على القلة ، والغرض ههنا التكثير والتحقيق للعلم بما ذكره ، وانما أورده على جهة التهكم بهم والاستهانة بحالهم ، حيث أسروا الخدع والمكر جهلا بأن الله تعالى غير مطلع على تلك الخفايا ولا محيط بتلك السرائر ،

---

(٢٤٠) النور ٦٤ .

(٢٤١) الزمخشرى (أبو القاسم جار الله محمود بن عمر) : الكشاف عن حقائق التنزيل ، دار المعرفة ، بيروت ، د.ت ٢٠٧/٣ .

(٢٤٢) المفردات ص ٥٩٥ .

فأورده على جهة التقليل ، والغرض به التحقيق انتقاصا بحالهم في ظنهم لما ظنوه من ذلك(٢٤٣) .

من أجل ذلك ، فانني أحسب أنه لا يكفى مع هذه الاستعمالات اللغوية القرآنية ، هذا النظر الشكلى ، الذى انطلق منه السيوطى ؛ حين اكتفى بجعل المضارع المسبوق بـ « قد » ، من باب المجاز اللغوى الذى هو عبارة عن اقامة صيغة مقام أخرى ؛ فقد جعل منه السيوطى : « اطلاق المستقبل على الماضى ، لافادة الدوام والاستمرار ، فكأنه وقع واستمر نحو : « قد يعلم ما أنتم عليه »(٢٤٤) أى علم »(٢٤٥) .

وقد جعل السيوطى من أمثلته كذلك ، قوله تعالى : «ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر »(٢٤٦) ، أى علمنا . وحينما يستشهد السيوطى على هذا النوع من المجاز اللغوى - بالاضافة الى ما سبق - بقوله تعالى : « فلم تقتلون أنبياء الله »(٢٤٧) ، أى قتلتم ، وقوله تعالى : « ويقول الذين كفروا لست مرسلا »(٢٤٨) ، أى قالوا ، فانه لم يلتفت الى وضعية « قد » فى الآيات الأسبق ، حيث دخلت على المضارع،

---

(٢٤٣) الطراز ٣/١٦٢ - ١٦٣ .
(٢٤٤) النور ٦٤ .
(٢٤٥) الاتقان لنسيوطى بتحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم ٣/١١٩
(٢٤٦) النحل ١٠٣ .
(٢٤٧) البقرة ٩١ .
(٢٤٨) الرعد ٤٣ .

فافادت معنى التهكم ، وخرجت بالفعل من اقامة صيغة مقام اخرى ليس غير ، الى هذا المعنى الأسلوبى المفارقى الانتقادى .

٢/٣/٤ ومن مفارقة الايهام أيضا قوله تعالى : « وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين »(٢٤٩) . ففى قوله : « فان لم يفعلوا » ، جىء بالأداة « ان » التى للشك ، وهو واجب ، دون « اذا » التى للوجوب ، سوقا للكلام على حسب حسبانهم أن معارضته فيها للتهكم ، كما يقول الواثق بغلبته على من يعاديه : «ان غلبتك» وهو يعلم أنه غالبه ، تهكما به(٢٥٠) .

٢/٣/٥ وينزل التهكم بمعتقد المشركين أيضا ، أن الأصنام فى زعمهم تخلق ، وذلك باستخدام « من » ، مفتوحة الميم ، فى الكلام عنها ، وهذا الحرف ـ كما نعلم ـ للعاقل . ونجد ذلك فى قوله تعالى : «أفمن يخلق كمن لا يخلق »(٢٥١) .

والمراد بـ « من لا يخلق » فى الآية الكريمة : الأصنام . وكان أصله : « كما لا يخلق » ؛ لأن « ما » لمن لا يعقل ، بخلاف « من » ، لكن خاطبهم على معتقدهم ؛ لأنهم سموها آلهة ، وعبدوها ، فأجروها مجرى أولى العلم (٢٥٢) .

---

(٢٤٩) البقرة ٢٣ ـ ٢٤ .
(٢٥٠) البرهان ٤/٥٦ ـ ٥٧ .
(٢٥١) النحل ١٧ .
(٢٥٢) البرهان ٤/٥٧ .

وعند السكاكى (ت ٦٢٦هـ) ، أن المراد بـ « من لا يخلق» الحى القادر من الخلق ، تعريضا بانكار تشبيه الأصنام بالله تعالى ، من طريق الأولى(٢٥٣) .

وربما قيل : اذا كان معتقدهم خطأ وضلالة ، فالحكم يقتضي - اذ ذاك - أن ينزعوا عنه ويقلعوا ؛ لا أن يبقوا عليه . ولكننا اذا تأملنا المقام مليا ، رأينا أن القصد من الخطاب ، هو ايهامهم بصحة معتقدهم ؛ فجعل العبارة تحكى هذا المعتقد، وكان الايهام أداة للتهكم ، كما كان التهكم بدوره أداة لدحض هذا المعتقد واقتلاعه !

وكما يقول الزركشى فى آية النحل السابقة : « ولو خاطبهم على خلاف معتقدهم ، فقال : « كما لا يخلق » ، لاعتقدوا أن المراد به غير الأصنام من الجماد »(٢٥٤) .

ولعل من أهم زوايا النظر الى بنية الدلالة فى هذه المفارقة، النظر الى بنية التشبيه : فالأصل فى التشبيه ، دخول الأداة على المشبه به ؛ كقولك : ليس الذهب كالفضة ، وليس العبد كالحر ، ولكنها قد تدخل على المشبه ، لأسباب منها قصد المبالغة(٢٥٥) ، فيقلب التشبيه ، ويجعل المشبه هو الأصل،

---

(٢٥٣) البرهان ٤٢٨/٣ .

(٢٥٤) البرهان ٥٧/٤ .

(٢٥٥) ومنها وضوح الحال ، كقوله تعالى : « وليس الذكر كالأنثى » (آل عمران ٣٦) ، فان الأصل : وليس الأنثى كالذكر ، وانما عدل عن الأصل ، لأن معنى « وليس الذكر » الذى طلبت « كالأنثى » التى وهبت لها ، لأن الأنثى أفضل منه (البرهان ٤٢٦/٣) .

ويسمى تشبيه العكس ؛ لاشتماله على جعل المشبه مشبها به ، والمشبه به مشبها ، كقوله تعالى : « قالوا انما البيع مثل الربا »(٢٥٦) . كان الأصل أن يقولوا : انما الربا مثل البيع؛ لأن الكلام فى الربا لا فى البيع ، لكن عدلوا عن ذلك وتجرءوا ، اذ جعلوا الربا أصلا ملحقا به البيع فى الجواز ، وأنه الخليق بالحل(٢٥٧) .

ومن ذلك أيضا ما نجده فى آية النحل السالفة : « أفمن يخلق كمن لا يخلق » ؛ فان الظاهر العكس ؛ لأن الخطاب لعبدة الأوثان ، وسموها آلهة ، تشبيها بالله سبحانه ، وقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق ، فخولف فى خطابهم ؛ لأنهم بالغوا فى عبادتهم وغلوا ، حتى صارت عندهم أصلا فى العبادة ، والخالق سبحانه فرعا ، فجاء الاشكال على وفق ذلك .

والظاهر أنهم لما قاسوا غير الخالق ، خوطبوا بأشد الالزامين ؛ وهو تنقيص المقدس لا تقديس الناقص(٢٥٨) .

من هنا ، يتضح لنا أن بنية المفارقة فى هذه الآية ، لا تؤول الى وضع « من » التى للعاقل موضع « ما » فحسب ، بل أسهم قلب التشبيه كذلك ، على النحو السابق ، فى زيادة السخرية بمعتقدهم ، حين جعلوا الأصل فرعا والفرع أصلا سفها وضلالة ، أو عنادا واستكبارا .

---

(٢٥٦) البقرة ٢٧٥ .

(٢٥٧) البرهان ٣/٤٢٦ .

(٢٥٨) المرجع السابق ٣/٤٢٧ - ٤٢٨ وقرن : الاتقان للسيوطى ، بتحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم ٣/١٣٢ .

وكان ابن جني قد وقف فى خصائصه على هذه الظاهرة فى كلام العرب ، وجعل منه قول ذى الرمة :

ورمل كأوراك العذارى قطعته
اذا ألبسته المظلمات الحنادس

وقول الطائى الصغير :

فى طلعة البدر شىء من ملاحتها
وللقضيب نصيب من تثنيها

وقول المتنبى :

نحن ركب ملجن فى زى ناس
فوق طير لها شخوص الجمال(٢٥٩)

وقال ابن جنى فى البيت الأخير مثلا : « فجعل كونهم جنا أصلا ، وجعل كونهم ناسا فرعا ، وجعل كون مطاياه طيرا أصلا ، وكونها جمالا فرعا ، فشبه الحقيقة بالمجاز فى المعنى الذى منه أفاد المجاز من الحقيقة ما أفاد »(٢٦٠) . وقال ابن جنى : « فهذا من حملهم الأصل على الفرع ، فيما كان الفرع أفاد من الأصل »(٢٦١) .

---

(٢٥٩) الخصائص ، مرجع سابق ١/٣٠٠ - ٣٠٢ .
(٢٦٠) المرجع السابق ١/٣٠٢ - ٣٠٣ .
(٢٦١) المرجع نفسه ١/٣٠٣ .

ومع اختلاف نماذج ابن جنى فى بنية التشبيه ، على النحو السابق ، فان هذه النماذج جميعا ، تختلف عما تقصد اليه بنية التشبيه فى هذه المفارقة من مغزى ؛ فان كان القلب فى نماذج ابن جنى الشعرية يفيد المبالغة ، فان المفارقة فى الآية الكريمة التى نحن بصددها ، تجاوزت اظهار المبالغة الى التهكم بمعتقد المخاطبين . بعبارة أخرى : جعلت من كشف مبالغتهم فيما زعموه ، أداة للتهكم بهم ، وقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق !

٦/٣/٢ فى هذا المدار الدلالى ذاته ، نجد أيضا قوله تعالى : « قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون »(٢٦٢) . والمفارقة هنا قائمة على أساس التعريض والتلويح، والتعريض يعنى الدلالة على المعنى من طريق المفهوم . وسمى تعريضا ؛ لأن المعنى باعتباره يفهم من عرض اللفظ ، أى من جانبه . ويسمى التلويح ؛ لأن المتكلم يلوح منه للسامع ما يريده ، على نحو ما نجد فى الآية الكريمة السابقة ؛ وذلك أن غرض ابراهيم - عليه السلام - بقوله : « فاسألوهم » على سبيل الاستهزاء ، واقامة الحجة عليهم بما عرض لهم به ، من عجز كبير الأصنام عن الفعل ، مستدلا على ذلك بعدم اجابتهم اذا سئلوا ، ولم يرد بقوله : « بل فعله كبيرهم هذا » ، كما ينبه الزركشى ، نسبة الفعل الصادر عنه الى الصنم . فدلالة هذا الكلام عجز كبير الأصنام عن الفعل بطريق الحقيقة(٢٦٣) .

---

(٢٦٢) الأنبياء ٦٣ .

(٢٦٣) البرهان ٢/٣١١ .

وقد مثل الزركشي ، في موضع آخر ، بقوله : « بل فعله كبيرهم هذا »(٢٦٤) على « الأحجية » ؛ فابراهيم - عليه السلام - قابلهم ، كما يقول الزركشي ، بهذه المعارضة ؛ ليقيم عليهم الحجة ، ويوضح لهم المحجة(٢٦٥) .

وقد جعل الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) قول ابراهيم - عليه السلام - من معاريض الكلام ، والقول فيه عنده : « ان قصد ابراهيم صلوات الله عليه لم يكن الى أن ينسب الفعل الصادر عنه الى الصنم ، وانما قصد تقريره لنفسه واثباته لها على أسلوب تعريضي ، يبلغ فيه غرضه من الزامهم الحجة وتبكيتهم، وهذا كما لو قال لك صاحبك ، وقد كتبت كتابا بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط : أأنت كتبت هذا ؟ وصاحبك أمي لا يحسن الخط ولا يقدر الا على خرمشة فاسدة ، فقلت له : بل كتبته أنت ، كأن قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به ، لا نفيه عنك واثباته للأمي أو المخرمش ؛ لأن اثباته والأمر دائر بينكما للعاجز منكما استهزاء به واثبات للقادر(٢٦٦) .

لقد وقع السؤال ، في الآية الكريمة السابقة ، عن الفاعل لا عن الفعل ، ومع كل ذلك صدر الجواب بالفعل ، بالرغم من أنهم لم يستفهموا عن كسر الاصنام ، بل كان عن الشخص الكاسر لها .

---

(٢٦٤) الانبياء ٦٣ .

(٢٦٥) البرهان ٣/٢٩٩ .

(٢٦٦) الكشاف ، مرجع سابق ٢/٥٧٧ .

ويجيب الزركشى عن ذلك ، بأن ما بعد « بل »ليس بجواب للهمـزة ، فان « بل » لا يصلح أن يصـدر بها الكلام ، ولأن جواب الهمزة ينعم أو بلى • فالوجه أن يجعل اخبارا مستأنفا ، والجواب المحقق مقدر ، دل عليه سياق الكلام ، ولو صرح به لقال : « ما فعلته بل فعله كبيرهم » ، وانما اخترنا تقـدير الجملة الفعلية على الجملة المعطوفة عليها فى ذلك(٢٦٧) •

ويفيض الزركشى فى بيان ذلك بقوله : « فان قلت : يلزم على ما ذكرت أن يكون الخلف واقعـا فى الجملتين : المعطـوف عليها المقدرة ، والمعطوفة الملفوظ بها بعد « بل » •

قلت : وانه لازم ، على أن يكون التقدير : ما أنا فعلته ، بل فعله كبيرهم هـذا ، مع زيادته بالخلف عما أفادته الجملة الأولى من التعـريض ، اذ منطوقها نفى الفعـل عن ابراهيم ، عليه السلام ، ومفهومها اثبات حصول التكسير من غيره •

فان قلت : ولابد من ذكر ما يكون مخلصا عن الخلف على كل حال • فالجواب من وجوه :

(أحدها) أن فى التعريض مخلصا عن الكذب ، ولم يكن قصـده ـ عليه السـلام ـ أن ينسب الفعل الصـادر منه الى الصنم حقيقة ، بل قصـده اثبات الفعل لنفسـه على طريق التعريض ؛ ليحصل غرضه من التبكيت ، وهو فى ذلك مثبت معترف لنفسه بالفعل ؛ وليس هذا من الكذب فى شىء •

---

(٢٦٧) البرهان ٤/٥٠ •

و (الثانى) أنه غضب من تلك الأصنام ، غيرة لله تعالى ؛ ولما كانوا لأكبرها أشد تعظيما ، كان منه أشد غضبا ، فحمله ذلك على تكسيرها ، وذلك كله حامل للقوم على الأنفة أن يعبدوه ، فضلا عن أن يخصوه بزيادة التعظيم ، ومنبه لهم على أن المتكسرة متمكن فيها الضعف والعجز ، منادى عليها بالفناء ، منسلخة عن ربقة الدفع ، فضلا عن ايصال الضرر والنفع . وما هذا سبيله ، حقيق أن ينظر اليه بعين التحقير لا التوقير . والفعل ينسب الى الحامل عليه ، كما ينسب الى الفاعل والمفعول والمصدر والزمان والمكان والسبب ؛ اذ للفعل بهذه الأمور تعلقات وملابسات ، يصح الاسناد اليها على وجه الاستعارة .

و (الثالث) أنه لما رأى - عليه السلام - منهم بادرة تعظيم الأكبر ، لكونه أكمل من باقى الأصنام ، وعلم أن ما هذا شأنه ، يصان أن يشترك معه من دونه فى التبجيل والتكبير ، حمله ذلك على تكسيرها ، منبها لهم على أن الله أغير ، وعلى تمحيق الأكبر أقدر . وحرى أن يخص بالعبادة ؛ فلما كان الكبير هو الحامل على تكسير الصغير ، صحت النسبة اليه ، على ما سلف »(٢٦٨) .

وقد نقل السيوطى (ت ٩١١هـ) عن السبكى (تقى الدين على بن عبد الكافى (ت ٧٥٦هـ) قوله : « وأما التعريض ، فهو لفظ استعمل فى معناه للتلويح بغيره ، نحو « بل فعله

---

(٢٦٨) البرهان ٤/٥٠ - ٥١ .

كبيرهم هذا »(٢٦٩) ، نسب الفعل الى كبير الأصنام المتخذة آلهة ، كأنه غضب أن تعبد الصغار معه ، تلويحا لعابدها بأنها لا تصلح أن تكون آلهة ، لما يعلمون اذا نظروا بعقولهم من عجز كبيرها عن ذلك الفعل ، والاله لا يكون عاجزا ، فهو حقيقة أبدا »(٢٧٠) .

وقال تقى الدين السبكى : « التعريض قسمان : قسم يراد به معناه الحقيقى ، ويشار به الى المعنى الآخر المقصود. وقسم لا يراد ، بل يضرب مثلا للمعنى الذى هو مقصود التعريض ؛ كقول ابراهيم : « بل فعله كبيرهم هذا »(٢٧١) .

هكذا ، يبدو لنا ، من كل ما تقدم ، أن مفارقة الايهام ، قد استعانت بأدوات لغوية ـ أسلوبية أساسية ، هى :

١ ـ بنية الدلالة التركيبية ، فى نحو استعمالات « قد » مع المضارع .

٢ ـ الصوغ اللفظى وفق زعم الضحية ، ممثلا على المستوى الاستبدالى ، باختيار مفردات بعينها ، على نحو ما رأينا فى « يحفظونه » .

---

(٢٦٩) الأنبياء ٦٣ .

(٢٧٠) الاتقان ، بتحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم ١٤٧/٣ .

(٢٧١) المرجع السابق ١٤٧/٣ ـ ١٤٨

وكان الأصبهانى قد وقف على وجهى التعريض فى تعريفه هذا المصطلح بقوله : « والتعريض كلام له وجهان من صدق وكذب ، أو ظاهر وباطن » (المفردات ص ٤٩٥) .

٣ ـ التعريض والتلويح على سبيل التهكم والاستهزاء ٠

وغنى عن البيان ، أن هذه الوسائل جميعا ، ترفد محيطا واحدا ، هو الضد أو النقيض ، كما أنها وسائل لغاية دلالية واحدة ، هى التهكم والاستهزاء ، بما يؤديان اليه من رد دعوى الضحية ودحضها وزعزعتها من أصولها ، ،ان كانت لها أصول !

ان الطريقة التى تكشف بها العبارة فى المفارقة عن تصالح الأفكار فى الظاهر ، هى الطريقة ذاتها التى تكشف بها هذه العبارة عمليا عن التضاد والتنافر والتنابذ ٠ فقد سميت الأصنام بالآلهة على زعمهم، ثم كان الاسناد الى الضمير المتصل فى « كبيرهم » وفى « فاسألوهم » ، وهو للعاقل الذى يتضاد ويتنافر مع حقيقة آلهتهم ، على سبيل الاستهزاء بها ٠

٧/٣/٢ ولعل من مفارقة الايهام كذلك ، كيفية استعمال الضمير فى مثل قوله تعالى : « ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون»(٢٧٢) ٠ فالضمائر فى كل من « ألهم » و « أم لهم » للأصنام ؛ فقد أجرى عليهم أولى العقل ، وهو من مفارقة الايهام كذلك ٠

ان الضمير « هم » المتكرر فى « ألهم أرجل » ، و « أم لهم أيد » ، و « أم لهم أعين » ، و « أم لهم آذان » ، للأصنام ؛

---

(٢٧٢) الأعراف ١٩٥ ٠

فأجرى عليها ضمير العاقل • وتكرار الضمير على هذا النحو، يعد مؤشرا واضحا للتماسك الشكلى formal Cohesion الذى يبنى على توظيف الاشارة أو المرجع reference • ومنه الضمائر • وفى اللسان العربى بعامة ، يلحظ المرء تحقيق التماسك الشكلى بواسطة الضمائر بنسبة عالية ، اذا قورن بما تعرفه ألسنة أخرى ، يقع الاسم الظاهر فيها على المستوى السياقى التركيبى غالبا فى مواضع ، تميل فيها العربية الى تحقيق التماسك عن طريق الضمير • وقد يبدو هذا واضحا اذا قارنا بين عدد من الجمل فى اللغتين : العربية والانجليزية مثلا •

ولا يشترط نحويا تكرار « هم » والحرف ، فى المواضع السابقة ، ولكن تكرارها جاء للمبنى بمزية التماسك ، وللمعنى بمزية قوة الايهام باحلال الأصنام محل العاقل ؛ حتى تتأكد المفارقة فى تواليها مع كل ضمير •

٨/٣/٢ ويعول التعبير القرآنى على وسائل تركيبية أخرى لصناعة المفارقة ؛ منها الاستثناء بعد النفى ، وذلك ما نجده فى قوله تعالى : « ليس لهم طعام الا من ضريع »(٢٧٣) • ففى ذلك ما يصنع ايهاما يكون الضريع طعاما ، على وجه المفارقة التهكمية ؛ فالمعنى ـ كما يقول الزركشى ـ « لا طعام لهم أصلا؛ لأن الضريع ليس بطعام البهائم فضلا عن الانس ، وذلك كقولك ليس لفلان ظل الا الشمس ؛ تريد بذلك نفى الظل عنه على

---

(٢٧٣) الغاشية ٦ •

التوكيد . والضريع نبت ذو شوك يسمى الشبرق فى حال خضرته وطراوته ، فاذا يبس سمى الضريع ، والابل ترعاه طريا لا يابسا »(٢٧٤) .

وتذكرنا الآية الكريمة بقول الشاعر :

فقلت أطعمنى عمير تمرا فكان تمرى كهرة وزبرا

والتمر لا يكون كهرة ولا زبرا ، ولكنه على جهة التهكم(٢٧٥) .

واذا عدنا الى بنية المفارقة فى الآية الكريمة السابقة ، وجدنا قول الراغب الأصبهانى : « وأما قوله تعالى : « ليس لهم طعام الا من ضريع » ، فقيل هو يبيس الشبرق ، وقيل نبات أحمر منتن الريح يرمى به البحر . وكيفما كان ، فاشارة الى شىء منكر »(٢٧٦) .

وقد فسر ابن عباس «الضريع» بأنه شجر ذو شوك(٢٧٧) .

والموضع السابق هو الوحيد الذى ورد فيه هذا اللفظ فى القرآن الكريم .

---

(٢٧٤) البرهان ٣/٥١ .

(٢٧٥) البيان والتبيين ١/١٠٦ .

والكهرة : الانتهار . والزبر : الزجر والمنع .

(٢٧٦) المفردات ص ٤٣٧ .

(٢٧٧) الاتقان بتحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم ٢/٤٥ .

ومهمـا يكن من أمر ، فان منطوق الآية يوصـل الى مفهوم المفارقة ، وأنه لا طعام لهم أصلا ، وأن الضريع ـ الذى أطلق عليه لفظ « الطعام » فى بنية المفارقة النحوية ـ ضرب من السخرية بهم والتحقير من شـأنهم ، وذلك أن الابل لا تقوى على تذوقه ، فكيف بالانسان يتخذه طعاما ! !

٩/٣/٢ وقد وقع مثل الاستعمال السابق فى قوله تعالى : « انه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين . فليس له اليوم ههنا حميم . ولا طعام الا من غسلين »(٢٧٨) . وقد فسر ابن عباس « الغسلين » بأنه الصديد(٢٧٩) . وفسره الأصبهانى بأنه « غسالة أيدان الكفـار فى النار »(٢٨٠) . ولم ترد « الغسلين » الا فى هذا الموضع من القرآن . وهو ـ على هذا النحو ـ ليس بطعام يطعم ولا شراب يذاق ، فكأنه ممنوع من الطعام ؛ لأنه كان لا يحض على طعام المسكين ، فلا طعام له اليوم ، وانما جعل «الغسلين» طعاما من باب السخرية بحاله . وذلك ـ كما يقول سيد قطب ـ يناسب قلبه النكد الخـاوى من الرحمة بالعبيد(٢٨١) .

وقد استعملت ، فى بنية هذه المفارقة ، أداة خاصة للنفى ، هى « ليس » ؛ وذلك أنهـا ـ فى هذا الوقت ـ للنفى العـام

---

(٢٧٨) الحاقة ٣٣ ـ ٣٦ .

(٢٧٩) الاتقان ، بتحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم ٢/٤٠ .

(٢٨٠) المفردات ص ٥٤١ .

(٢٨١) سـيد قطب : فى ظـلال القـرآن ، دار الشروق ، ط ١١ (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م) ٦/٣٦٨٣ .

المستغرق به للجنس • كذلك ، فقد مهدت « ليس » مع « الا » طريقا من طرق الحصر او القصر المعروفة ؛ وهى النفى والاستثناء • فما عدا « الضريع » من طعام انتفى عنهم • ويشترط هنا أن يكون المستثنى منه مناسبا للمستثنى فى جنسه • واذا انطبق هذا الشرط هنا ، من جهة كون «الضريع» من جنس الطعام ، فانه ليس بحال من جنس طعام يأكله الآدميون • من ثم ، انتفت صفته - فيما يبدو - بما هو طعام • وانما جعل طعاما على جهة السخرية بحالهم •

٢/٣/١٠ ومما يضاف الى النسق السابق من المفارقات القرآنية ، قوله تعالى : « هذا وان للطاغين لشر مآب • جهنم يصلونها فبئس المهاد • هذا فليذوقوه حميم وغساق »(٢٨٢) • وقد فسر ابن عباس « الغساق » بأنه الزمهرير(٢٨٣) • وقال الجواليقى والواسطى عن «الغساق» : «هو البارد المنتن بلسان الترك »(٢٨٤) • وأخرج ابن جرير عن عبيد الله بن بريدة ، قال : « الغساق ، المنتن ، وهو بالطخارية »(٢٨٥) أى منسوب الى طخارستان •

وقد وقع التناقض اللفظى فى أسلوب القصر على سبيل المفارقة التهكمية ، بين الشراب والغساق فى موضع آخر من

---

(٢٨٢) ص ٥٥ - ٥٧ •

(٢٨٣) الاتقان بتحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم ٢/٣٣ •

(٢٨٤) المرجع السابق ٢/١١٥ •

(٢٨٥) المرجع نفسه ٢/١١٥ •

القرآن ، هو قوله تعالى : « ان جهنم كانت مرصادا • للطاغين مآبا • لابثين فيها أحقابا • لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا • الا حميما وغساقا »(٢٨٦) • والحميم الماء الشديد الحرارة(٢٨٧) فهو ليس بردا • والغساق مايقطر من جلود أهل النار(٢٨٨) ، فهو ليس شراب رى من ظمأ ، وانما شراب من جهنم ، يأتيهم جزاء وفاقا • انه ليس هنا اكتفاء بحرمانهم من ذوق البرد والشراب ، ولكنه يزيد العذاب عن طريق الاستثناء، فكأن المستثنى أدهى من هذا الحرمان • انهم سيذوقون حميما، وهذا لهم هو البرد • وسيذوقون غساقا ، وهذا هو شرابهم !

واذا عدنا الى تأمل لفظ المستثنى ، فى البنية التركيبية للمفارقات السابقة ؛ وهى « الغسلين » و « الغساق » و « الضريع » ، للاحظنا أنها تشترك جميعا فى تقديم بنية صوتية خاصة ، تشد السمع وتثير الانتباه • ان فيها جميعا ألفاظا وعرة توحى بالهول ، وتوائم ما قصدت اليه العبارة خير مواءمة • وينبه ريتشاردز Richards الى أن التأثير الذى تولده الكلمة فعلا عبارة عن توفيق بين أحد تأثيراتها الممكنة والظروف الخاصة التى توجد فيها(٢٨٩) • وقد سبق علماؤنا القدماء الى شىء من ذلك ، على نحو ما نجد فى مثل قول

---

(٢٨٦) النبأ ٢٢ - ٢٥ •

(٢٨٧) المفردات ص ١٨٥ •

(٢٨٨) المرجع السابق ص ٥٤١ •

(٢٨٩) ريتشاردز أ• أ : مبادىء النقد الأدبى ، ترجمة دكتور مصطفى بدوى ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة (١٩٦٣م) ص ١٩١ •

ابن طباطبا (ت ٣٢٢هـ) : « وللمعانى ألفاظ تشاكلها ، فتحسن فيها وتقبح فى غيرها »(٢٩٠) .

ان الأمر هنا أمر تهويل، لا يناسبه الا مثل تلك الألفاظ ذات الجرس الصوتى الخشن ، ولذلك نراها وقد احتوت من الأصوات على ما يفجأ ويثير فى النفس رهبة ؛ كالغسلين بما فيها من صوت الغين الذى يرتبط بايحاءاته على دلالات الكدورة ، وبما فى وزنها الصرفى من زيادة تحكى خروجا على مألوف الغسل وزيادة . وفى الغساق أيضا صوت الغين ، والتضعيف ، والقاف اللهوية الانفجارية الصلبة . وفى الضريع الضاد المفخمة التى توحى بما فيه من كزازة ، وفيه العين الحلقية كأنها تظهر تأثير كزازته فى الحلق !

وهذا النوع من الدلالة الايحائية للألفاظ ، مما يمكن ربطه بنوع من الحكاية الصوتية الثانوية Secondary onomatopoeia الذى تنتمى فيه الحكاية الى حدث مجرد أو نوع مجرد(٢٩١) .

---

(٢٩٠) ابن طباطبا (محمد أحمد بن طباطبا العلوى) : عيار الشعر، شرح وتحقيق عباس عبد الساتر ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، بيروت (١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م) ص ١٤ .

(٢٩١) انظر فى تفصيل ذلك :

Ullmann, Stephen, Meaning and Style, Basil Blackwell, Oxford (1973) P. 14

والنوع الآخر هو المحاكاة الأولية الذى تطابق فيه البنية الصوتية للكلمة معناها أو توافق هذا المعنى ، نحو : bump فى الانجليزية (المرجع السابق ص ١٣) ومثال ذلك فى العربية : الفأفأة والوهوهة ونحوهما .

١١/٣/٢ فضلا عما سبق ، فاننا نرى مثل هذا النوع من المفارقة فى قوله تعالى : « ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين »(٢٩٢) . فأورده - كما نبه يحيى بن حمزة العلوى - على جهة التقليل ، وأخرجه مخرج الشك، والغرض به التكثير والتحقيق فى حالهم تلك ؛ لأنهم فى تلك الحالة يتحققون ، ويقطعون بأنهم لو كانوا على الاسلام قطعا ويقينا ، لما ينالون من العذاب ويتحققونه من النكال ، ولا خلاص عن ذلك الا بالاسلام ، فلهذا قطعنا - يقول يحيى بن حمزة - بتحقق المحبة والود للاسلام، وانما أخرجه مخرج التهكم والاستهزاء(٢٩٣).

ولما كان القرآن الكريم قد نزل بلغة العرب ، جاء على مذاهبهم فى ذلك ، « والعرب قد تخرج الكلام المتيقن فى صورة المشكوك ؛ لأغراض فتقول : لا تتعرض لما يسخطنى، ، فلعلك أن تفعل ذلك ستندم ؛ وانما مراده أنه يندم لا محالة، ولكنه أخرجه مخرج الشك تحريرا للمعنى ، ومبالغة فيه ؛ أى أن هذا الأمر لو كان مشكوكا فيه لم يجب أن تتعرض له ؛ فكيف وهو كائن لا شك فيه !

وبنحو من هذا فسر الزجاج قوله تعالى : « ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين »(٢٩٤) »(٢٩٥) .

---

(٢٩٢) الحجر ٢ .

(٢٩٣) الطراز ١٦٣/٣ وقد نظر الى وقوع المضارع بعد « ربما » على اضمار « كان » ، تقديره « ربما كان يود الذين كفروا » ، وذلك بناء على أن الفعل بعدها لا يكون الا ماضيا ، لأن دخول « ما » لا يزيلها عن موضعها فى اللغة (البرهان ٢٨٠/٤) .

(٢٩٤) الحجر ٢ .

(٢٩٥) البرهان ١٥٩/٤ .

ويستحضر الفعل « يود » فى الآية الكريمة ، الى الذهن مرادفه « يتمنى » • فعن ابن عباس أن « يود » فى هذه الآية بمعنى « يتمنى »(٢٩٦) • وكان السيوطى قد استشهد بالآية على معنى من معانى « رب » وهو التكثير • وقال : « فانه يكثر منهم تمنى ذلك ، وقال الأولون : هم مشغولون بغمرات الأهوال فلا يفيقون بحيث يتمنون ذلك الا قليلا »(٢٩٧) •

لكن مازال السؤال : لم استخدم الأول « يود » ولم يستخدم الثانى « يتمنى » ؟

ان الآية الكريمة قد أخرجت الكلام المتيقن فى صورة المشكوك ، ولم تخرجه فى صورة المكذوب • ولذلك نأت عن الفعل « تمنى » ، واستخدمت « ود » ؛ فالود محبة الشىء وتمنى كونه(٢٩٨) • أما التمنى، فهو تقدير شىء فى النفس وتصويره فيها • وذلك قد يكون عن تخمين وظن ، ويكون عن روية وبناء على أصل ، لكن لما كان أكثره عن تخمين ، صار الكذب له أملك ، فأكثر التمنى تصوير ما لا حقيقة له(٢٩٩) •

وقد أخرج الطبرانى وابن مردويه وابن حبان عن أبى سعيد الخدرى ، أنه سئل : هل سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول فى هذه الآية : « ربما يود الذين

---

(٢٩٦) الاتقان بتحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم ١٩/٢ •
(٢٩٧) المرجع السابق ١٩٦/٢ •
(٢٩٨) المفردات ص ١١٨ •
(٢٩٩) المرجع السابق ص ٧٢٢ •

كفروا لو كانوا مسلمين »(٣٠٠) . قال : نعم ، سمعته يقول: يخرج الله ناسا من المؤمنين من النار بعدما يأخذ نقمته منهم، لما أدخلهم النار مع المشركين ، قال لهم المشركون : تدعون بأنكم أولياء الله فى الدنيا ، فما بالكم معنا فى النار ! فأذا سمع الله ذلك منهم أذن فى الشفاعة لهم ، فتشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون ، حتى يخرجوا باذن الله تعالى ، فاذا رأى المشركون ذلك ، قالوا : ياليتنا كنا مثلهم ، فتدركنا الشفاعة، فنخرج معهم ؛ فذلك قول الله:« ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين »(٣٠١) . وله شاهد من حديث أبى موسى الأشعرى وجابر بن عبد الله وعلى(٣٠٢) .

١٢/٣/٢ ولعل من باب الايهام أيضا ، ما نجده فى قوله تعالى : « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب »(٣٠٣) . فالتماسهم النور يرجوعهم وراءهم ضرب من الايهام ببلوغ النور ، وظاهر الأمر رحمة ، وباطنه تهكم ؛ فلا نور مقتبسا يلتمسونه ، وذلك أن النور الذى يحكى عنه الخطاب فى الآيات والذى ابتغوه مقتبسا ، هو نور المؤمنين ، ونور المؤمنين يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، قال تعالى :

---

(٣٠٠) الحجر ٢ .

(٣٠١) الحجر ٢ .

(٣٠٢) الاتقان بتحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم ٤/١٨٣ .

(٣٠٣) الحديد ١٣ .

« يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم »(٣٠٤) .

انه اذن ، أمر يبلوغ ما يعرف صاحب الأمر ألا وجود له أصلا ! وهذا أبلغ مما لو أخبر باستحالة التماس مثل هذا النور الذى طلبوه اخبارا مباشرا ؛ ففى المفارقة الايهامية تهكم بما طلبوا ، ينفى الأمل فى أنه سيكون لهم وقتا ما .

١٣/٣/٢ وما أطرف وأبدع صنع المفارقة فى نحو قوله تعالى : «ويل يومئذ للمكذبين . انطلقوا الى ما كنتم به تكذبون انطلقوا الى ظل ذى ثلاث شعب . لا ظليل ولا يغنى من اللهب »(٣٠٥) . فوصف الظل هنا ، بأنه ذو ثلاث شعب ، نوع ايهام ؛ وذلك أن الشكل المثلث أول الأشكال ، واذا نصب فى الشمس على أى ضلع من أضلاعه ، لا يكون له ظل ، لتحديد رءوس زواياه ، فأمر الله تعالى أهل جهنم بالانطلاق الى ظل هذا الشكل تهكما بهم(٣٠٦) . فطريق التهكم هنا اذن هو أمر بالانطلاق الى ظل لا ظل له ، أو ظل ليس ظلا أصلا . فالمعنى يفارق - على هذا النحو - المنطوق ويضاده . ولا يخفى ما فى ايثار كلمة « انطلقوا » على غيرها من المترادفات فى العربية، من ازدياد حدة الايهام التهكمى ؛ كأنما هذا الظل من الوجود والكينونة الحقيقية ، حتى يحسن الانطلاق اليه خشية الزوال أو تغير الحال !!

---

(٣٠٤) الحديد ١٢ .

(٣٠٥) المرسلات ٢٨ - ٣١ .

(٣٠٦) الاتقان بتحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم ٢٧٨/٣ .

١٤/٣/٢ ولعل من مفارقة الحكاية والايهام كذلك ، قوله تعالى : « ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا • ان يدعون من دونه الا اناثا »(٣٠٧) • وقد فسر الدامغانى (ت بعد ٧٧٤هـ) « الاناث » هنا بالاصنام والأوثان(٣٠٨) • ومثل ذلك ما وقع فى مواضع أخرى من النص القرآنى ؛ كقوله تعالى « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا أشهدوا خلقهم »(٣٠٩) • وقد بنيت آية المفارقة السابقة على القصر كذلك بان والا • والقصر مما عولت عليه هذه المفارقة فيما سبق • ويذكر الراغب الأصبهانى فى تأويل لفظ « الاناث »، فى آية المفارقة ، أن من المفسرين من اعتبر حكم اللفظ فقال: لما كانت أسماء معبوداتهم مؤنثة ، نحو (اللات والعزى ومناة الثالثة) قال ذلك • ومنهم ـ وهو أصح ـ من اعتبر حكم المعنى، وقال : المنفعل يقال له : أنيث ؛ ومنه قيل للحديد اللين أنيث ، فقال : ولما كانت الموجودات باضافة بعضها الى بعض ثلاثة أضرب : فاعلا غير منفعل ؛ وذلك هو البارى عز وجل فقط ، ومنفعلا غير فاعل ؛ وذلك هو الجمادات ، ومنفعلا من وجه ؛ كالملائكة والانس والجن ، وهم بالاضافة الى الله تعالى منفعلة وبالاضافة الى مصنوعاتهم فاعلة • ولما كانت معبوداتهم من جملة الجمادات التى هى منفعلة غير فاعلة ، سماها الله تعالى:

---

(٣٠٧) النساء ١١٦ ـ ١١٧ •

(٣٠٨) الدامغانى (الحسين بن محمد) : قاموس القرآن أو اصلاح الوجوه والنظائر فى القرآن الكريم ، تحقيق عبد العزيز سيد الأهل ـ دار العلم للملايين ، ط ٥ بيروت (١٩٨٥) ص ٤٨ ـ ٤٩ •

(٣٠٩) الزخرف ١٩ • •

أنشى ، وبكتهم بها ، ونبههم على جهلهم فى اعتقاداتهم فيها أنها آلهة ، مع أنها لا تعقل ولا تسـمع ولا تبصر ، بل لا تفعل فعلا بوجه ٠٠ وأما قوله عز وجل (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا)فلزعم الذين قالوا:ان الملائكة بنات الله»(٣١٠)٠

(٣١٠) المفردات ، بتحقيق وضبط محمد سيد كيلانى ، دار المعرفة - بيروت د٠ت ص ٢٧ - ٢٨ ٠

الفصل الرابع

المفارقة البنائية

٢/٤/١ مع وجود المفارقة اللفظية العرضية occasional verbal irony فقد تدخل الى النص خاصة بنائية structure feature توظف فى تدعيم مخادعة المعنى duplicity of meaning وتأكيدها • والهدف من ذلك - بوجه عام - هو التعبير عن فكرة على لسان الآخر •

ويلحظ المرء فى الأعمال الأدبية مثلا ، أن الاداة الشائعة فى هذا النوع من المفارقات ، هى اختلاق البطل الساذج ، أو على الأقل ، الراوى أو المتحدث الساذج ، الذى يتخفى وراءه المؤلف بوجهة نظره •

واذا كانت المفارقة اللفظية ، تعتمد على معرفة مقصد المتكلم ونيته الساخرة ، التى هى قسمة بين المتكلم وسامعه ، فان المفارقة البنائية structural irony ، تعتمد على معرفة مقصد المؤلف الساخر ، الذى هو من نصيب المستمع ، ولكنه مجهول عند المتكلم(٣١١) •

---

(٣١١) Abrams, A. Glossary of literary terms, ibid, p. 90.

وكيفما كان الأمر ، فان وظيفة المفارقة البنائية ، هى تدعيم بنية الدلالة فى النص وتأكيدها ؛ ومن أجل ذلك عرفت باسم المفارقة المدعمة أو المعضدة (بكسر العين والضاد المضعفتين) sustained irony (٣١٢) .

وفى الخطاب القرآنى ، يمكننا أن نرى شكلا للمفارقة ، هو اقرب شىء الى المفارقة البنائية ؛ وذلك حين يجعل النص القرآنى المحكم متكلما آخر ينزل بغيره تهكما ، فيصير هذا التهكم ذاته وقد انقلب الى تهكم بالمتكلم الاول نفسه . والتهكم الذى يحمله المنطوق ، بصياغته وبنيته الخاصة ، يخفى على ذلك المتكلم بالطبع ، أو هو يجهله ، ولكنه مفهوم ومدرك لدى المستمع أو قارىء النص .

ونلاحظ أن هذا اللون من المفارقة ، يرد فى النص القرآنى؛ لتسفيه المتهكم به فى الحقيقة . بعبارة أخرى : يرد تسفيها لمن يستحق أن ينزل به التهكم ، وان جهل سفهه وتماديه الذى لا يخفى ، فى الضلال والغواية والتخبط الأعمى . من هنا تصبح المفارقة البنائية أداة لتوكيد ظهور المعنى بوجهين مختلفين duplicity of meaning ؛ أى لعرض مستوى من مستويات المعنى ، هو الظاهر ، بغية الوصول الى مستوى آخر، هو المعنى الباطن الذى ترمى اليه البنية الدلالية العميقة للمنطوق أو عدد من المنطوقات التى يضمها النص .

---

(٣١٢) المرجع السابق ص ٩٠ .

٢/٤/٢ ولعل من هذا النوع من المفارقات ، ما نجده فى قوله تعالى : « قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء انك لأنت الحليم الرشيد »(٣١٣) . والمفارقة هنا فى التضاد الظاهر بين المنطوق الأخير « انك لأنت الحليم الرشيد » والمنطوقات السابقة عليها فى الآية .

قال الراغب الأصبهانى فى معنى الحلم : « الحلم : ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب »(٣١٤) .

وفسر « الحلم » أيضا بالعقل . وعلى ذلك تكون كلمة « الحليم » هنا بمعنى العاقل . ولكن الأصبهانى يرى فرقا بين هذا التفسير وحقيقة الحلم . يقول : « وليس الحلم فى الحقيقة هو العقل، لكن فسروه بذلك لكونه من مسببات العقل»(٣١٥) . وأصل « الحلم » فى العربية - كما يقول أبو هلال العسكرى - اللين . ورجل حليم : أى لين فى معاملته ، فى الجزاء على السيئة بالأناة(٣١٦) . وقال الزمخشرى : « ... وحلم فلان فهو حليم وفيه حلم ، أناة وعقل »(٣١٧) . أما الرشد ، فهو ، كما ذكر الزركشى فى هذا الموضع ، حسن التصرف فى الأموال(٣١٨) .

---

(٣١٣) هود ٨٧ .

(٣١٤) المفردات ص ١٨٤ .

(٣١٥) المرجع السابق ص ١٨٥ .

(٣١٦) الفروق فى اللغة ص ١٩٤ - ١٩٥ .

(٣١٧) أساس البلاغة ص ٩٣ .

(٣١٨) البرهان ١/٨٠ .

ان السياق اللغوى النصى فى اطار التأليف ، لا سيما علاقة النص بالوحدات النصية المرتبطة به ، يفيد أن أهل مدين ، انما ينكرون على « شعيب » ما أمرهم به من الخير والمعروف . وينبغى لنا أن نتأمل تقدم الاستفهام الذى يعنى التهكم والاستهزاء - كما يلاحظ الزركشى(٣١٩) - فى قوله تعالى : « أصلاتك تأمرك » . ولذلك فانهم حينما يقولون : « انك لأنت الحليم الرشيد » ، لم يخرجوه على جهة استحقاقه المدح بهاتين الصفتين ، مع كونه أهلا لهما ، ولا يريدون بهاتين الصفتين حقيقة معنييهما ، وانه أصاب وجه الأمر ، وكأنما أطمعهم حلمه ولين معاملته فى الجزاء على السيئة بالأناة ، فى التعريض به تهكما سفيها : تمردا واستكبارا . وغرضهم - سفههم الله - وصفه بالسفه والجهل !

وينبغى أن يكون هناك تلازم ثنائى بين بنية الدلالة فى هذه المفارقة وبين النغمة التى يجب أن تؤدى بها . وهى بالطبع نغمة تهكمية . وهذه النغمة التهكمية ، تقتضى اظهارا لما تنطوى عليه من تهكم ، نبرا أعلى على المقاطع : / ان / فى « انك » ، و / أن - / فى « لأنت » و / - لي - / فى « الحليم » و/ - شيد/ فى « الرشيد » . وهذا النبر الأعلى الذى هو أمر لفظى ، يعكس من وجهة النظر الفسيولوجية - سلوكا حركيا عضويا ، من حيث ان المقطع المنبور نبرا أعلى ، ينطق مصحوبا بشد عضلى

---

(٣١٩) البرهان ٢/٣٤٣ .

muscular tension في مناطق أخرى(٣٢٠) ، مثل عضلات الفم والقفص الصدرى. ولا ريب أن هذه الصورة التى يضعهم فيها النبر الأعلى ، تزيد المفارقة سخرية ؛ لأنهم صوبوا نقيض ما وصفوه به الى أنفسهم ، فى الوقت الذى رغبوا فيه رميه بنقيض هذه الصفات !!

واذا كانت الدلالة المباشرة للعبارة ، تمثل المستوى الأول من مستويات الدلالة ، فان الدلالة الضمنية التى تبنى عليها هذه المفارقة هى المستوى الثانى .

واذا علمنا أن تهكمهم بنبيهم « شعيب » ، من أجل أنه يأمرهم باستيفاء المكيال ، والميزان بالقسط ، وبألا يبخسوا الناس أشياءهم ، وبألا يعثوا في الأرض مفسدين ، وبأن يتركوا ما يعبد آباؤهم ، أدركنا أن للدلالة مستوى ثالثا ؛ يبدو فى جعل تهكمهم بشعيب أداة للتهكم بهم هم أنفسهم ، وكشفا عن

---

(٣٢٠) راجع فى هذه المسألة :

Gosling, John, Kinesics in Discourse, in 5 Studies in Discourse Analysis, edited by M. Coulthard, M. Montgomery. Routledge — London and New York (1989), pp. 158 - 189, p. 161.

ويشير جوسلنج الى تأكيد الدراسات الحديثة أن ايقاعية المنطوق يدعمها نشاط حركي عضلي متزامن معها ـ والمعول عليه في هذه الايقاعية rhythmicality المقاطع النغمية التى تظهر بروزا عاما (المرجع السابق ص ١٦٢)

جهالتهم وعنادهم • وكان المستوى الثالث هـذا ، يقصـد الى اثبات صحة المستوى الأول للعبارة ، وأنه هو صواب الأمر ، وأن نقله الى نقيضه بالتهكم ، هو حقا الذى يستحق التهكم !

وجلى أن تخريج هذه المستويات الدلالية على هذا النحو ، انما يؤول الى ربط جملة المفارقة فى قوله تعـالى : « انك لأنت الحليم الرشيد » ، بما يسبقها من جمل أخرى ، تكون منطوق آيات أخرى قبلها • وهذا ما ألمحنا اليه من قبل ، بأنه العنصر المكون لعلاقة النص بالوحدات النصـية المحيطة به ، وهو أحد عناصر السياق النصى فى اطار التأليف •

ويؤسس هـذا الأمر الآن معلمـا مهما فى نظـرية تحليل الخطاب • وهو ما نجده مثلا فى اشـارة فان دايك Van Dijk, الى أن معنى الجملة ، يعتمـد على معنى جمل أخرى فى منطوق بعينه • وهذا ما يدعو الى القول بأن المنطوقات ، يعاد بناؤها فى حدود وحدة أوسع ؛ هى وحدة النص • وهو مصطلح يشير الى البنـاء النظـرى المجـرد الذى يكمن وراء ما نسـميه بالخطاب(٣٢١) •

وقد أدى اختيار الكلمتين « الحليم » و « الرشيد » بالذات ، الى ظهور البنية الدلالية التى تقوم عليهـا هذه المفـارقة ، فى أعلى صـورة للترابط بين الوحـدات اللغوية الصـغرى التى تألفت منها هذه الآية الكريمة • فاذا كانت الآية كلا دلاليا ؛ فالمفارقة فيه جزء استخلصت دواله من ذلك «الكل» استخلاصا •

---

(٣٢١) Van Dijk Text and Context, ibid, p. 3.

ولو أديرت اللغة على كلمتين أخريين ، تحلان هنا محل «الحليم» و « الرشيد » سياقيا ودلاليا ، ما كان لذلك أبدا وبأى حال أن يكون ٠

ان النص يوصف ـ فى نظرية تحليل النصوص وفهمها ـ بالترابط ، اذا ائتلفت وحداته الصغرى التى يبنى عليها فيما بينها ، ولم تضطرب ، بل تكون كلا دلاليا Sinnganzes ، تسهم فيه كل وحدة من وحداته الجزئية ٠وكل وحدة من هذه الوحدات لا تفهم فى ذاتها ولذاتها ، بل تكشف عن قيمتها فى الموضع الذى تشغله من النص ٠ ان هذا هو مبدأ النص Textprinzip الذى ينص على أن فهمنا أى وحدة جزئية من وحدات النص ، يتبع فهمنا للوحدات الأخرى ٠ كذلك ، فاننا ننظر الى كل وحدة جزئية جديدة ، فى ضوء الوحدات الجزئية المقروءة أو المسموعة قبلها ، والتى تؤثر فى تحديد مواضعها وتوقعاتنا لها(٣٢٢) ٠

ونود الآن ، وقد وصلنا الى هذا الحد ، أن نتأمل هذه المفارقة من حيث بنيتها النحوية والدلالية والمعجمية ، وذلك على النحو التالى :

(أولا) جمعت قرينة المفارقة ـ على قصرها ـ كل ما يمكن أن تجمعه ، بالمعنى الذى تريده ، وفى هذا السياق المعين ، من

---

(٣٢٢) Glinz, Hans, **Text**analyse und Verstehenstheorie, 2., verbesserte Auflage, Akademische Verlagsgesellschaft Athenaion, Wiesbaden (1977) Bd. 1, SS. 50 - 51.

علامات نحوية تأكيدية ، وهى :

(أ) حرف التوكيد « ان » ٠

(ب) كاف الخطاب ، وهو خطاب لمعين ٠

(ج) ضمير الفصل « أنت » الذى يعد طريقا من طرق الحصر ، على نحو ما رأينا فى مفارقة النغمة ٠ (وهم هنا - بمنطوقهم - يوجبون له الحلم والرشد ، فى الوقت الذى يرمون فيه - بمفهومهم - الى أن يسلبوه اياهما) ٠

(د) توكيده باللام ٠

(هـ) تعريف الخبر وصفته بالألف واللام التى للجنس (قصدا للمبالغة فى الخبر ؛ فهى التى يقصر معها جنس المعنى على المخبر عنه ، كما يقول الزركشى)(٣٢٣) ٠ وعلى ذلك ، فهى تفيد ارتفاع شأن المخاطب ظاهريا ، غير أنها تعنى نقيض ذلك ضمنيا وحسبما أرادوا ٠

واستيفاء المعنى - على النحو السابق - باللفظ الوجيز ، يعرض فى لغة الخطاب القرآنى نوعا من اعجاز الايجاز ٠ والايجاز فى أيسر ما حده القدماء من حد ٠ « ايضاح المعنى بأقل ما يمكن من اللفظ »(٣٢٤) ٠ وكان الجاحظ يقول :

---

(٣٢٣) البرهان ٤/٨٨ ٠

(٣٢٤) الخفاجى (أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان) ٠ سر الفصاحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م) ص ٢١١ ؛

« وعلى قدر وضوح الدلالة ، وصواب الاشارة ، وحسن الاختصار ، ودقة المدخل ؛ يكون اظهار المعنى »(٣٢٥) .

ان الايجاز مع وضوح الدلالة ، انما تأتى من العلاقة الحميمة بين النحو ـ بمعناه الواسع ـ والخطاب . ويبدو ذلك من الاختيارات المميزة التى تعد قضية مسلمة بين الموقف situation وحركة تنظيم الكلام او ما يسمى بالتكتيك tactics واذا كان الموقف ينبغى له ـ فى خطاب هذه المفارقة ـ أن يكون الموقف اللغوى النصى الذى يلائم حاجة المفارقة للتهكم ؛ فان التكتيك يتعلق بالأنماط التركيبية للخطاب syntagmatic patterns أى طريقة تركيب وحدات العبارة ، بما فيها من تقديم ، وتأخير ، ومؤكدات ؛ أو طريقة ربط العبارة ـ على نحو ما نجد هنا ـ بعبارات أخرى سابقة . وكأننا بهذه العبارة: «انك لأنت» ـ الآية ، تؤسس ايجازها على الافادة من المعطيات الدلالية لما سبقتها من عبارات .

(ثانيا) جاء الاستفهام بالأداة « هل » . ولعل هذا الأمر ، يوقفنا على أمر آخر ؛ هو أنهم فى الوقت الذى يتهكمون فيه بشعيب ، يكابدون هاجسا فى النفس ، يثبت ما يستفهمون عنه . ويستند فى ذلك ، الى ما حكاه أبو حيان عن بعضهم ، أن الهمزة لا يستفهم بها حتى يهجس فى النفس اثبات ما يستفهم

---

(٣٢٥) البيان والتبيين ١/٥٥ .

عنه ، بخلاف « هل » ، فانه لما يترجح عنده فيه نفى ولا اثبات(٣٢٦) .

(ثالثا) ليس الحلم ولا الرشد ، اذا كان كل منهما مما يتصف به المرء فعلا - وهو ما نراه هنا - مجالا لذم ، فالعكس هو الصحيح . فاذا تهكموا بشعيب لذلك ، فانما هو قلب تهكمهم به تهكما بهم . وما أثقل التهكم بمن يتهكم بغيره لأنه حليم رشيد ! وكأن مجيء هاتين الكلمتين على لسان قوم شعيب اشارة ضمنية الى سفه معتقدهم وحمق عقولهم وتدنى ادراكهم الأمور . فليسوا - بما يفعلون ويقولون - من العقلاء ولا من الراشدين فى شىء !

(رابعا) المناسبة بين الموضع الذى فيه المفارقة والمعنى المتقدم ، وهى مناسبة تحققت من ايقاع الصفتين : « الحليم» و « الرشيد » ، فى السياق اللغوى للآيات ، فى آنس موقع ، وألطف موضع ، وأخص مكان ؛ « فانه لما تقدم ذكر العبادة والتصرف فى الأموال ، كان ذلك تمهيدا تاما لذكر الحلم والرشد ؛ لأن الحلم الذى يصح به التكليف ، والرشد حسن التصرف فى الأموال ، فكان آخر الآية مناسبا لأولها مناسبة معنوية ، ويسميه بعضهم ملاءمة »(٣٢٧) .

وقد جعل هذا من أنواع ائتلاف الفواصل مع ما يدل عليه الكلام ، وهو التمكين ، وهو أن تمهد قبلها تمهيدا تأتى به

---

(٣٢٦) الاتقان ، طبعة بيروت ١/١٤٦ .

(٣٢٧) البرهان ١/٨٠ .

الفاصلة ممكنة فى مكانها ، مستقرة فى قرارها ، مطمئنة فى موضعها ، غير نافرة ولا قلقة ، متعلقا معناها بمعنى الكلام كله تعلقا تاما ، بحيث لو طرحت اختل المعنى واضطرب الفهم(٣٢٨) . وتوفير مثل هذه المناسبة ، يقوى ـ دون شك ـ الدلالة المفارقية فى قرينة المفارقة ، ويجعلها على رابطة فعالة بالبنية الكبرى للخطاب .

---

(٣٢٨) البرهان ٧٩/١ وكذلك جعل السيوطى الآية مثالا على التمكين قال : « فانه لما تقدم فى الآية ذكر العبادة ، وتلاه ذكر التصرف فى الأموال ، اقتضى ذلك ذكر الحلم والرشد على الترتيب ، لأن الحلم يناسب العبادات ، والرشد يناسب الأموال » : الاتقان ، بتحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم ٣٠٢/٣ .

الفصل الخامس

الالمـــاع

١/٥/٢ والالمـاع Innuendo حقيقته ملحظ أو ايماءة تلميحية allusive remark ، تصوب الى شخص أو شيء ما، قصدا الى الانتقـاص من قدره وتحقيره على وجه الخصـوص . ويبرز هذا التعريف نوعا خاصا من عرض قضية ما عرضـا مفارقيـا ، يلحظه المرء فيما تهمله المفـارقة أكثر مما يلحظه فيما تذكره صراحة(٣٢٩) . فاذا قلنـا مثلا : انه كان ذكيا فى الأيام الأخيرة ! ، فان السر فى هذا الكلام ، يكمن فى أن غباءه ، هو الوضع الطبيعى المـألوف ، وأن ذكاءه شيء يجعله ملحوظا ومراقبا .

وحرى بالاشارة ، أن التضاد بين المعانى المباشرة والمعانى غير المباشرة ، فى هذا اللون من المفـارقة ، يمكن تعقبـه من طريق التضاد بين الافتراضـات المباشرة والافتراضـات غير المبـاشرة . وتفصـيل ذلك أن افتراض المتكلم ، أن غباءه هو القاعدة ، وأن ذكاءه اسـتثناء من هذه القـاعدة ؛ يدخل فى تضاد مع الافتراض العادى ، بأن الذكاء هو القاعدة ، وأن

---

(٣٢٩) Leech, A Linguistic Guide, ibid, pp. 174 - 175.

الغباء هو الاستثناء • وعلى ذلك ، يفسر القول السابق، هكذا: « انه غبى ! » •

والطريف هنا ، أن ادخال كلمة «فقط» ، فى المثال السابق يزيل قناع المفارقة irony mask ، ويطلعنا ـ على نحو مباشر ـ على وجهة نظر المتكلم : « انه كان ذكيا فى الأيام الأخيرة فقط »(٣٣٠) •

واذا تأملنا الخطاب القرآنى ، رأينا حالات للمفارقة ، هى أقرب ما تكون الى الالماع ، ان لم تكن من صميمه بالفعل ؛ وذلك أن التضاد فى تلك الحالات بين المعانى المباشرة والمعانى غير المباشرة ، قائم على التضاد بين الافتراضات المباشرة والافتراضات غير المباشرة • من ناحية أخرى ، فان تلك الحالات ، تبدو الماعا غايته انزال المتهكم به منزلة متدنية تليق به ، أو لنقل : غايته طلب النقائص والغمائز التى يشار بها الى ذلك المتهكم به •

٢/٥/٢ ولعل من الجائز أن نجعل من هذا النوع من خطاب المفارقة فى القرآن ، قوله تعالى : « ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون »(٣٣١) • وقوله تعالى : « ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون »(٣٣٢) •

---

(٣٣٠) انظر فى تفصيل هذه الأفكار :
Leech, A Linguistic Guide, ibid, p. 175.

(٣٣١) الأنفال ٢٢ •

(٣٣٢) الأنفال ٥٥ •

ان الدواب ـ كما يقول سيد قطب ـ تطلق عادة على الحيوان، وان كانت تشمل الانسان فيما تشمل ؛ لأنه يدب على الارض. ولكن شمولها هذا للانسان ، ليس هو الذى يتبادر الى الذهن ؛ لأن للعادة حكمها فى الاستعمال ؛ فاختيار كلمة « الدواب » هنا ، ثم تجسيم الحالة التى تمنعهم من الانتفاع بالهدى ـ بوصفهم «الصم البكم» ـ كلاهما يكمل صورة الغفلة والحيوانية التى يريد أن يرسمها لهؤلاء الذين لا يؤمنون ؛ لأنهم « لا يعقلون »(٣٣٣) .

لقد انصبت سخرية القرآن ـ كما يقول دكتور عبد الحليم حفنى ـ على هذا الوضع غير المتلائم فى استخدام العقول ، من حيث انهم يلغونها فيما هو أساس واجب ، وهو الايمان بالله وطاعته ، ثم يستخدمونها استخداما لا قيمة له ، وهو ما يتعلق بأمور الحياة الدنيا ، فهى حينئذ كأنها معطلة ، وكأنهم حينذاك بغير عقول(٣٣٤) .

ان التضاد قائم بين المعنى المباشر المعروف للدواب (وهى عامة فى جميع الحيوانات، كما يقول الراغب الأصبهانى)(٣٣٥) وبين المعنى غير المباشر ، الذى نقلت عنه هذه الكلمة الى حقل دلالى آخر يبدو مضادا له ، وهو حقل الحيوان . هذا التضاد قائم ـ بدوره ـ على التضاد بين افتراض كون المتحدث عنهم

---

(٣٣٣) التصوير الفنى فى القرآن ، مرجع سابق ص ١٩٠ .

(٣٣٤) التصوير الساخر فى القرآن الكريم ، مرجع سابق ص ٧٧ .

(٣٣٥) المفردات ص ٢٣٧ .

فى الآيات دوابا بالفعل ، وبين ما تقدمه كل آية ـ بعد ذلك ـ من علامات لغوية ، تلمح الى ان المقصود بالدواب هنا ، طائفة خاصة من جنس البشر ، هم ـ فى جهلهم وغفلتهم عن الهدى والحق ـ كالدواب ! • وهذه العلامات هى : « الصم البكم » ، « الذين لا يعقلون » ، « الذين كفروا » ، « فهم لا يؤمنون » • وتساعد هذه العلامات ـ التى تنصرف مثبتة أو منفية الى بنى الانسان فحسب ـ تساعد فى كشف المعنى غير المباشر فى خطاب هذه المفارقة وتحديده ، بعد أن كان الحكم على أمثال هؤلاء الناس ـ منذ بداية الكلام ـ بأنهم دواب ، بل هم ـ استغراقا لصفة الحكم ـ شر الدواب !

ان السياق اللغوى هنا ، لا يعرض أبدا للدواب ؛ وانما جعلت الدواب علامة على المفارقة ، بما تنبه اليه فى المخزون اللغوى لدى المخاطبين ، من معانى البهيمية ، والتسخير ، وحرمان التكريم • ونحن نعلم أن العلامات المفارقية ، التى لا تجعلنا نفهم وحدة نصية ما فهما حرفيا ، أو نفسر مثيرا نصيا بمعناه الحرفى ، لا تحتاج دائما الى أن تكون حاضرة فى النص حضورا صريحا • ومن أجل ذلك ، فانه باستطاعتنا أن نجعل دال « الدواب » علامة برانية exophoric على المفارقة؛

لانها تشير الى مدلولات خارج النص ذاته • وتتجلى بلاغة النص هنا فى توظيف محمولها الدلالى ، وفى جعلها تصنع تعارضا بين حقيقة الحيوان وحقيقة الانسان ، وفى وضعها ـ على مستوى البنية اللغوية التركيبية لخطاب المفارقة ـ موضعها الذى يقتضيه ذلك الخطاب ، حتى يكون خطاب مفارقة بالفعل!

ووصف القرآن الكفار في هذا الموضع بالدواب ، يذكر بوصفهم بالأنعام في مواضع أخرى . من ذلك قوله تعالى : « ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم »(٣٣٦) ، وقوله : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون »(٣٣٧) .

وتبدو « الدواب » و « الأنعام » مترادفتين ترادفا جزئيا ، وهو ترادف جزئى ؛ لأن القرائن التى وقعت فيها « الأنعام »، تختلف الدلالة فيها جزئيا عن تلك التى وقعت فيها «الدواب» . وذلك سر من أسرار الاعجاز اللغوى للقرآن ؛ يتجلى فى ايقاع اللفظ موقعه الذى لا يغنى عنه فيه لفظ آخر فى اللغة . وبيان ذلك من ناحيتين :

(الأولى) أن الدواب أعم من الأنعام ، فهى كل ما يدب على الأرض من انسان وحيوان . أما الأنعام ، فتقال للابل والبقر والغنم ، ولا يقال لها أنعام - فيما يذكر الأصبهانى - حتى يكون فى جملتها الابل(٣٣٨) .

---

(٣٣٦) محمد ١٢ .

(٣٣٧) الأنعام ١٧٩ .

(٣٣٨) المفردات ص ٧٦١ .

وقد ناسبت « الدواب » البنية الدلالية التى قامت عليها المفارقة ؛ وذلك لعموم « الدواب » . ان المفارقة أرادت تشبيه الكفار الذين هم كذلك ، بشر الدواب . ولو قيل : ان شر الأنعام عند الله الصم البكم،لفات المغزى فى الآية ، وماستقام المعنى . .

و (الأخرى) أن « الدواب » ، بما ترتبط به مادتها اللغوية من دب وخبط وجموح ونفور ونحوها ، ناسبت وصف هذه الفئة من الكفار ، بأنها أعرضت جهلا . أما «الأنعام» بماترتبط به مادتها اللغوية من تنعم وطيب عيش وحالة حسنة ، ناسبت وصف فئة أخرى من الكفار أعرضت غفلة ولهوا ، ولم تلق لداعى الحق بالا ، ولم تعره سمعا ، وأعماهم ما هم فيه من لين وخصب عن الهدى .

وخلاصة القول ، أن اختلاف بيان دواعى الكفر كان وراء اختلاف أحد اللفظين عن الآخر فى موضعه . واذا كانت « الدواب » و « الأنعام » فى قرائنها موصوفة ، فان العلاقة بين كل منها وبين ما عقد بها من أوصاف ، جاءت على ألطف ماتكون العلاقة بين المدلول اللغوى للموصوف ووصفه وأوفقها؛ فمع الكفار الذين هم كالدواب ، كان الصم والبكم وانتفاء العقل ، ومع الكفار الذين هم كالأنعام ، كان التمتع والأكل والغفلة ، فضلا عن الجهل والصمم والعمى !

ونعود الآن الى الموضع الأول من ذكر الدواب فى سورة الأنفال ، فنلحظ أن الضمير «هم» في قوله : «فهم لا يؤمنون»،

يفيد من التأكيد فى نفى الايمان عنهم ما لو قيل : ... الذين كفروا فلا يؤمنون(٣٣٩) .

كذلك ، فلو قيل : (الصم البكم .. هم شر الدواب عند الله) ، أو قيل : (الذين كفروا .. هم شر الدواب عند الله)، لفاتت المزية ؛ وذلك أن تقديم « شر الدواب » فى اللغة القرآنية يحقق المراد ، وهو أن يعلم أن « الصم البكم » أو « الذين كفروا » ، هم من جنس الشر لا من جنس الخير ، وهم قد خرجوا من بنى آدم الذين كرمهم الله سبحانه ، الى جنس الدواب المذلل المسخر ! كأن العبارة تنكر عليهم ـ فى كفرهم وصممهم عن الحق وذهاب عقولهم ـ أن يكونوا حتى من شرار الناس !

ولا تخبر العبارة ـ فيما يبدو ـ عن الصم البكم الذين كفروا ، بأنهم مثل شر الدواب ، لكنها تخبر عن شر الدواب ، بأنها الصم البكم الذين كفروا . وفى « الذين » صلة تدل على اخبار عن شىء يعلمه السامع ، فاذا علمه أنه شر الدواب ، فجاء ما بعد الصلة ما لا يوصف به المخبر عنه عادة ، كان معنى الكلام ـ اذ ذاك ـ على التشبيه الضمنى ، وان كان اللفظ على الحقيقة الخالصة .

ومعلوم أنه يلزم أن يكون الخبر على وفق المخبر عنه . وفى ذلك أقوى دلالة على تطابق الخبر والمخبر عنه . وهو تطابق لا تشابه . وهو تطابق يبين كيف خرج هؤلاء بأنفسهم ـ حين صموا وكفروا ـ من جنس الآدميين المكرمين بالعقل ، الى جنس الدواب التى لا تعقل ! .

---

(٣٣٩) تابع هذه اللمحة فى تفصيلات أخرى في : دلائل الاعجاز ، مرجع سابق ص ١٠٦ .

واذا تأملنا الآيات السابقة مليا ، لرأيناها تعرض نوعين من العلاقات :

(أولهما) ما يعرف باسم العلاقات الدلالية الجوهرية ؛ كالعلاقات الناتجة عن التفاعل الدلالى أو الاتحاد النوعى بين العناصر المعجمية :

« الدواب » ← « الصم » ، « البكم » ، « الذين لا يعقلون» ·

و (الآخر) هو الذى يقدم لنا ملمحا من الملامح الكبرى للاعجاز اللغوى للقرآن ؛ وهو العلاقات الدلالية التركيبية · وتتجلى هذه العلاقات فى تنظيم العلاقات اللغوية فى الآيات السابقة تنظيما نحويا ، يتطابق مع مضامينها تطابقا تاما ؛ فالعلاقة بين « الدواب » والعناصر المعجمية الأخرى : «الصم»، « البكم » ··· الخ ، هى علاقة المسند بالمسند اليه ، أو علاقة المخبر بالمخبر عنه · وهنا أيضا نرى الاتحاد النوعى بين جزئى التركيب على المستوى النحوى ، كما رأيناه بين العناصر المعجمية المكونة لكليهما على المستوى الدلالى(٣٤٠) ·

وهناك نمط آخر من العلاقات الدلالية التركيبية داخل الجملة ، التى ترتبط ارتباطا غير مباشر بما يسمى باسم

---

(٣٤٠) انظر فى تفصيل هذه العلاقات :

Brekle, H., E., Semantik, SS. 82 - 83,

محددات الاختيار Selektionsrestriktionen (٣٤١) ؛ وهو نمط يبحث فيه أصحاب الاتجاه الدلالى التوليدى · ويتعلق الأمر، مع هذا النمط ، بما يسمى باسم القيم الثابتة للعلاقات الدلالية(٣٤٢) ـ وهى فى هذه الآيات :

١ ـ علاقة المصاحبة : نحو مصاحبة « الصم » و « البكم » و « لا يعقلون » للدواب ، أو مصاحبة « لا يؤمنون » للذين كفروا ·

٢ ـ علاقة السببية : نحو العلاقة بين « شر الدواب » و « الذين لا يعقلون » أو « فهم لا يؤمنون » ·

٣ ـ العلاقة المكانية : وتمثلها الحروف والظروف التى لها وظيفة مكانية · وهى هنا معنوية ، نراها فى العلاقة بين

---

(٣٤١) وهى التى تبحث فى العلاقات الدلالية بين العناصر المعجمية للجملة ، ومدى خضوع هذه العلاقات لقواعد تركيب الجملة · ومثل تشومسكى Chomsky على ذلك بجملته الشهيرة : تنام الأفكار الخضراء عديمة اللون فى غضب » · انتهكت هنا قيود الاختيار بين « الأفكار » و « تنام » ، كما انتهكت بين « تنام » و « غضب » ، فكلمة « الأفكار » لا يمكن أن تقع موقع الفاعل للفعل « تنام » · والأمر هنا رصد وحدات معجمية جنبا الى جنب ليس الا · كذلك ، فان انتهاك العلاقة بين « تنام » و « فى غضب » يعود الى أن « فى غضب » ـ بما أنها تعبر عن انفعال ملحوظ ـ لا تدخل فى علاقة دلالية مع « تنام » على نحو ما نجد مع كلمات أخرى مثل « فى هدوء » و « فى استسلام » · (انظر : المرجع السابق ص ٨٣ ـ ٨٤) ·

(٣٤٢) المرجع نفسه ص ٨٤ ·

« شر الدواب » و « عند الله » ، التى ترفع الحكم - فى الآيتين الكريمتين كلتيهما - عن محاجة الآدميين وتنزهه عن التغيير أو التبديل !

ولعل مردود هذه العلاقات جميعا الى البنية الدلالية للمفارقة ومغزاها الذى قصدت اليه ؛ فالموصوفون بتلك الصفات ، هم كالدواب لا محالة !

٣/٥/٢ وربما لاحظنا الماعا ، لا يخلو من تعريض ، فى قوله تعالى : « ونسوق المجرمين الى جهنم وردا »(٣٤٣) . وذلك بعد قوله : «يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا»(٣٤٤). جاء فى تفسير الجلالين (جلال الدين المحلى وجلال الدين السيوطى) أن « الوفد » جمع « واقد » بمعنى راكب ، وأن « الورد » جمع « وارد » بمعنى ماش عطشان(٣٤٥) . وقد فسر ابن عباس « وردا » فى الآية الكريمة ، بأنها بمعنى « عطاشا »(٣٤٦) .

و « الورود » - كما يقول الراغب الأصبهانى - قصد الماء ، ثم يستعمل فى غيره . يقال : وردت الماء أرد وردودا ، فأنا

---

(٣٤٣) مريم ٨٦ .

(٣٤٤) مريم ٨٥ .

(٣٤٥) المحلى (جلال الدين) ، السيوطى (جلال الدين) : تفسير الجلالين ، بهامش المصحف الشريف، دار المعرفة - بيروت - د.ت ص٤٠٥

(٣٤٦) الاتقان ، بتحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم ٢/٢٢ ،

وارد والمـاء مورود . وقد أوردت الابل المـاء(٣٤٧) .

ويذكـر الأصـبهانى أن « الورد » يوم الحمى اذا وردت ، واستعمل فى النـار على سـبيل الفظاعة(٣٤٨) . ويعبر عن المحموم بالمورود ، وعن اتيان الحمى بالورد(٣٤٩) .

وقد وردت فى القرآن الكريم آيات أخرى ، اسـتعمل فيها « الورود » بمعنـاه الحقيقى ، كقـوله تعالى : « ولمـا وزد ماء مدين وجـد عليه أمـة من النـاس يسـقون »(٣٥٠) وقوله : « وجاءت سـيارة فأرسـلوا واردهم فأدلى دلوه »(٣٥١) . و « الوارد » الذى يتقدم القوم فيسقى لهم ، ومعنى « الوارد » فى الآية ، أى سافيهم من المـاء المورود(٣٥٢) .

فاذا رجعنا الى خطاب المفارقة ، رأينا أن الورود هناك الى جهنم ، لا الى المـاء . ورأينـا أن السـوق للمجرمين من بنى البشر ، لا سوقا للابل أو المـاشية . وكأن فى المفارقة ـ اذا ارتبطت دلاليا بالأصل اللغوى للورد والسوق اليه ـ المـاعا الى

---

(٣٤٧) المفردات ص ٨١٥ .
(٣٤٨) المرجع السابق ص ٨١٥ .
(٣٤٩) المرجع نفسه ص ٨١٦ .
(٣٥٠) القصص ٢٣ .
(٣٥١) يوسف ١٩ .
(٣٥٢) المفردات ص ٨١٥ .

جعلهم قطيعا من الماشية ، يساق ليشرب (٣٥٣) ، وهو ورد جهنم . وفى ذلك من السخرية بحالهم ومصيرهم المهين ما لايخفى . وتشتد مهانة هذا المصير ، بمقارنته بمصير المتقين من العباد؛ فهم يحشرون « الى الرحمن وفدا » . وينبغى لنا أن نتأمل المناسبة المعنوية بين « نسوق » و «وردا» فى الموضع السابق، كما ينبغى هنا أن نتأمل وضع كلمة « الرحمن » دلالة على ما يلقونه من الخالق من رحمة واسعة ، ثم استعمال كلمة « وفدا » ، بما تقدمه من المعانى الاضافية أو التضمنية(٣٥٤)؛ نحو التكريم والترحيب والاحتفاء . وبالسبق فسر الراغب الوفد فى الموضع السابق . قال : « يقال : وفد القوم تفد وفادة . وهم وفد ووفود . وهم الذين يقدمون على الملوك مستنجزين الحوائج . ومنه الوافد من الابل ، وهو السابق لغيره . قال تعالى : « يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا » »(٣٥٥) .

---

(٣٥٣) وقال الزمخشرى : « ساق النعم فانساقت ، وقدم عليك بنو فلان فأقدتهم خيلا ، وأسقتهم ابلا » (أساس البلاغة ص ٢٢٥) .

(٣٥٤) المعنى الاضافى أو التضمنى ، ويسمى أيضا المعنى العرضى أو الثانوى ، هو المعنى الذى يملكه اللفظ عن طريق ما يشير اليه الى جانب معناه الأساسى (أو المركزى أو التصورى) الخالص ، وهذا النوع من المعنى زائد على المعنى الأساسى ، وليس له صفة الثبوت والشمول ، وانما يتغير بتغير الثقافة أو الزمن أو الخبرة (انظر فى تفصيل ذلك : علم الدلالة للدكتور أحمد مختار عمر ، مرجع سابق ص ٣٧) .

(٣٥٥) المفردات ص ٨٢٨ .

وقد استعمل لفظ « السوق » مع الكفار أيضا فى قوله تعالى : « وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا »(٣٥٦) . وهو فى هذا الموضع على البناء للمجهول ، وقد ورد على الحقيقة . ولعل المناسبة اللفظية - ابرازا للمقابلة بين فئتين مختلفتين من الناس - اقتضت استعماله كذلك مع المتقين فى قوله تعالى: « وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا »(٣٥٧) . فترى الأفعال واحدة ، ولكن المتعلق بها فى الحالين مختلف ، باختلاف من وقع عليهم كل فعل فى الموضعين .

---

(٣٥٦) الزمر ٧١ .

(٣٥٧) الزمر ٧٣ .

الفصل السادس

مفارقة المفهوم أو التصور

١/٦/١ تطلق هذه اللفظة بمعنى Conception على المعانى المجردة ، فتدل على عملية عقلية يقوم بها الفهم ؛ لادراك تلك المعانى أو تكوينها . فالتصور يعنى صياغة المفاهيم والمعانى الكلية متلما ينطوى على ادراكها . أما لفظة Visualization فانها تشير الى عملية التصور العقلى أو تكوين صورة عقلية واضحة لشكل الأشياء(٣٥٨) .

ويبنى التضاد فى هذا النوع ، على أساس التعارض بين موقف الضحية أو مفهومها للأشياء او مسلكها ، وهو عادة غريب وخاطىء ومثار انتقاد ، وما يجب أن يكون عليه الأمر وكلما بعد الدافع الظاهرى المحرك لموقف الضحية وسلوكها عن حقيقة الأمر ومداره ، اشتد التعارض وشحذت المفارقة . اننا اذا رأينا أن الضحية ، أو احدى الشخصيات ، تسلك سلوكا شنيعا ، ثم تدعى أنها شخصية نبيلة ، فان التناقض بين الفعل أو القول أو السلوك ، وبين التشخيص الفعلى ، يشير الى المفارقة .

---

(٣٥٨) أسعد رزوق (دكتور) : موسوعة علم النفس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط ٣ (١٩٨٧م) ص ٧٣ .

ويلاحظ أنه ربما بنيت المفارقة من هذا النوع كذلك ، على احتجاج الضحية احتجاجا جادا فى الظاهر ، على غير حق . وذلك ـ كما يقول ليتش Leech ـ مما يقوى لدينا التفسير المفارقى ironic interpretation (٣٥٩) .

وتبدو الغاية من عرض المفاهيم والتصورات هنا بطريق المفارقة ، هى النقد الأخلاقى والتهذيبى .

ومازال هذا النوع داخلا فى حد المفارقة الذى حده لها الباحثون ؛ كقول آبرامز Abrams وزملاؤه ، « ان المفارقة أداة لفظية verbal device ، تدل على سلوك attitude يختلف تماما عما تعبر عنه حرفيا . وغالبا ما يكون هذا السلوك مضادا أو مخالفا لذلك الذى يعبر عنه حرفيا »(٣٦٠) .

ويدلنا استقراء الصور الصغرى لهذا النمط من المفارقة فى الخطاب القرآنى ، على أن التعبير عن التصور أو المفهوم ، ثم انتقاده ، قد اتخذ صورا خمسا هى :

١ ـ الاخبار عن التصور اخبارا صريحا .

٢ ـ حكاية قول الضحية .

٣ ـ المقابلة المباشرة بين قولين .

---

(٣٥٩) انظر فى تفصيل ذلك :

Leech, A Linguistic Guide, ibid, p. 172

(٣٦٠) Abrams et. al., The Norton Anthology of English Literature, ibid, p.2591.

٤ - المقابلة بين فعلين أو سلوكين .

٥ - الاستفهام التعجبى والانكارى التوبيخى .

٢/٦/٢ أما الصورة الأولى ، فمنها قوله تعالى : « يمنون عليك أن أسلموا »(٣٦١) . ونلحظ هنا ايثار استعمال « يمنون » دون غيره ؛ فهو أنسب شىء للدلالة على المغزى فى هذه المفارقة ؛ وذلك أن « المنة » هى النعمة الثقيلة(٣٦٢) . والمفارقة فى أنهم صوروا مردودها الى الرسول الكريم لا اليهم . وتتكشف المفارقة بجوانبها ، اذا أدركنا أن « المنة » منهم - كما يقول الأصبهانى - هى فى الآية الكريمة السابقة بالقول . ومنة الله عليهم بالفعل ؛ وهو هدايته اياهم كما ذكر(٣٦٣) .

٣/٦/٢ ومن هذه الصورة كذلك ، قوله تعالى : « ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا »(٣٦٤) . يفيدنا الامام البخارى (ت ٢٥٦هـ) عن السياق التاريخى لهذه الآية ؛ فقد ورد فيه بسنده عن علقمة بن وقاص : « أن مروان (ابن الحكم) قال لبوابه : اذهب يا رافع الى ابن عباس فقل : لئن كان كل امرىء فرح بما أوتى ، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا لنعذبن اجمعون ! فقال ابن عباس : وما لكم ولهذه ، انما دعا النبى

---

(٣٦١) الحجرات ١٧ .

(٣٦٢) المفردات ص ٧٢٠ .

(٣٦٣) المرجع السابق ص ٧٢١ .

(٣٦٤) آل عمران ١٨٨ .

صلى الله عليه وسلم يهودا ، فسألهم عن شيء ، فكتموه اياه وأخبروه بغيره فأروه أن قد استحمدوا اليه بما أخبروه عنه فيما سألهم ، وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم ، ثم قرأ ابن عباس « واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه »(٣٦٥) حتى قوله : « يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا »(٣٦٦) »(٣٦٧) .

٤/٦/٢ ومن ذلك أيضا قوله تعالى : « ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر »(٣٦٨) ، وقوله تعالى : « ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون »(٣٦٩) .

والغرض فى المفارقات السابقة،استهجان مفهوم الضحية، وذلك أنهم يسارعون فى الكفر ، لا فى ما ينبغى أن يسارع فيه من الايمان (وتأمل دلالة « فاعل » على انهماكهم وجدهم فى الاسراع ، فضلا عن دلالة معنى الفعل ذاته على تجسيد المعنوى بحركة سراع محسوسة) ، وحين يحبون أن يحمدوا بما

---

(٣٦٥) آل عمران ١٨٧ .

(٣٦٦) آل عمران ١٨٨ .

(٣٦٧) صحيح البخارى بحاشية السندى ، مطبعة عيسى الحلبى ، د.ت باب التفسير ٣/١١٥ ، وقارن : تفسير ابن كثير ، مطبعة عيسى الحلبى د.ت ١/٤٣٦ ، والبرهان ١/٢٧ ، والاتقان بتحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم ١/٨٣ .

(٣٦٨) آل عمران ١٧٦ .

(٣٦٩) الحج ٤٧ .

لم يفعلوا . وقد أوثر هنا اللفظ « يحمدوا » على مرادفه « يشكروا » مثلا ؛ وذلك أن الحمد فى هذا الموضع ، أدل على مرادهم ، من حيث ان الشكر هو الاعتراف بالنعمة على جهة التعظيم للمنعم . أما الحمد ، فهو الذكر بالجميل على جهة التعظيم المذكور به أيضا ، لكنه يصح على النعمة وغير النعمة ، والشكر لا يصح الا على النعمة .

من ناحية أخرى ، فانه يجوز أن يحمد الانسان نفسه فى أمور جميلة يأتيها ، ولا يجوز أن يشكرها ؛ لأن الشكر يجرى مجرى قضاء الدين ولا يجوز أن يكون للانسان على نفسه دين؛ فالاعتماد فى الشكر على ما توجبه النعمة ، وفى الحمد على ما توجبه الحكمة(٣٧٠) .

اذا علمنا ذلك ، أدركنا أن « يحمدوا » فى هذا الموضع ، أدل على ما رمت اليه المفارقة ؛ كأنهم أتوا بأمور جميلة ، وكان حبهم أن يحمدوا بما لم يفعلوا أمر توجبه الحكمة !!

ولا يبعد هذا عما ذكره الاصبهانى ؛ فهو يدلنا على أن الحمد يكون فى بذل المال ونحوه ، وأن الشكر لا يقال الا فى مقابلة نعمة ، وأن الحمد أعم من الشكر ، فكل شكر حمد(٣٧١) ؛ فكأن الحمد هو الآخر ، يكون فى مقابلة نعمة ، وكأنهم — فى زعم باطل وفهم شديد السخف — يرون تقاعسهم وبخلهم ، نعمة تستوجب الحمد !! .

---

(٣٧٠) الفروق فى اللغة ص ٣٩ — ٤٠ .

(٣٧١) المفردات ص ١٨٦ .

ويلفت النظر أيضا ايثار الفعل « يحب » فى بنية هذه المفارقة على مرادفاته ، نحو : ود ، أراد ، ونحوهما . فالفعل « يحب » ، أعم وأشمل فى دلالته من الفعل « ود » مثلا ؛ ذلك أن الحب يكون فيما يوجبه ميل الطباع والحكمة جميعا ، والود من جهة ميل الطباع فقط . ألا ترى أنك تقول : أحب فلانا وأوده ، وتقول : أود الصلاة(٣٧٢) .

كذلك ، فان الارادة تكون لما يتراخى وقته ، ولما لا يتراخى(٣٧٣) ، وكأنهم ـ بعد ذلك كله ـ يجعلون توجيه حمد الناس لهم ، مما يوجبه الطبع والحكمة جميعا ، وهم حريصون على ذلك حرصا لا تراخى فيه !

من جهة أخرى ، فان الاستعجال بالعذاب ، من المواقف التى تدعو الى الدهشة والعجب ، بل تثير الاستهزاء والتوبيخ . وذلك على وجه خاص ، اذا أدركنا أن العجلة طلب الشىء وتحريه قبل أوانه . وهو مقتضى الشهوة(٣٧٤) . وبالطبع ، فان لزيادة الألف والسين والتاء معناها الصرفى الوظيفى ؛ فالاستعجال طلب العجلة . وهو هكذا ، وعلى نحو ما رأينا ، طلب فيه التحرى وفيه الشهوة . والمفارقة هنا فى كون المطلوب بهذه الكيفية الخاصة ، هو العذاب !

وتكتمل المفارقة فى استعجالهم العذاب ، بتأكيد الوفاء

---

(٣٧٢) الفروق فى اللغة ص ١١٥ ـ ١١٦ .

(٣٧٣) المرجع السابق ص ١١٧ .

(٣٧٤) المفردات ص ٤٨٤ .

بالوعد ، وبوصف هول ذلك اليوم · انه ـ وقد أعماهم سفههم وجهلهم المقيت ـ كألف سنة مما يعدون ، وهو واقع لا محالة ، فما بالهم هكذا بالعذاب يستعجلون ؟!

٥/٦/٢ ومن الاخبار الصريح عن مفهوم الضحية أو تصورها كشف موقف الكافرين من الدين ، كقوله تعالى : « وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون »(٣٧٥) · وقد جاء ذلك فى سياق تكذيبهم أن القرآن من عند الله · ونلحظ فى بنية هذه المفارقة عدة أمور ، أهمها :

(أولا) المقابلة التناقضية بين « الرزق » و « التكذيب » · وليس التكذيب من هذا النوع ـ والمغالطة ظاهرة ـ رزقا · وهو ليس مؤديا الى رزق ·

انهم لما وضعوا الكفر والتكذيب موضع الشكر والايمان، جعلوا رزقهم نفسه تكذيبا · فان التصديق والشكر لما كانا سبب زيادة الرزق ، وهما رزق القلب حقيقة ، فهؤلاء جعلوا مكان هذا الرزق التكذيب والكفر ، فجعلوا رزقهم التكذيب · وهذا المعنى ـ كما يقول ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) ـ هو الذى حام حوله من قال : التقدير : وتجعلون بدل شكر رزقكم أنكم تكذبون ، فحذف مضافين معا(٣٧٦) ·

(ثانيا) الرزق هو ما يناله المرء من خير أو منفعة · ولا

---

(٣٧٥) الواقعة ٨٢ ·

(٣٧٦) التبيان ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦ ·

يكون الرزق الا حلالا(٣٧٧) · والمسند اليه « أنكم تكذبون »، فى مناقضته المسند ـ أى « وتجعلون رزقكم » ـ مما يبرز السخرية من موقفهم من الدين والقرآن ، ويخرج بالتعبير عن تصور السامع لأول وهلة ، فتزداد فطنته الى تلك السخرية ·

(ثالثا) بناء الكلام على المضارع فى «تجعلون» و«تكذبون»؛ لما يدل عليه المضارع من تجدد · ولعل فى ذلك دلالة على أنهم عمدوا الى موقفهم وأصروا عليه ! ·

ولعل من باب التماسك النحوى الدلالى ، المواءمة بين اختيار المضارعة واختيار كلمة « الرزق » ؛ وذلك أن الرزق ـ كما يقول أبو هلال ـ هو العطاء الجارى فى الحكم على الادرار ـ ولهذا يقال : أرزاق الجند ؛ لأنها تجرى على ادرار(٣٧٨) · وفى دلالة المضارعة على الحال والاستقبال ، ما يوائم الجريان والادرار فى الرزق · وهذه صفات فى الرزق ، تفتقدها مرادفات أخرى ؛ كالحظ · فالحظ لا يفيد هذا المعنى ؛ وانما يفيد ارتفاع صاحبه به · قال بعضهم : يجوز أن يجعل الله للعبد حظا فى شىء ، ثم يقطعه عنه ، ويزيله مع حياته وبقائه، ولا يجوز أن يقطع رزقه مع احيائه(٣٧٩) ·

واذا تأملنا السياق النصى الذى وقعت فيه الآية السابقة، لرأينا أنها سبقت بتوبيخهم على وضعهم الادهان فى غير

---

(٣٧٧) الفروق فى اللغة ص ١٦١ ·
(٣٧٨) المرجع السابق ص ١٦٠ ·
(٣٧٩) المرجع نفسه ص ١٦٠ ـ ١٦١ ·

موضعه . قال تعالى : « فلا أقسم بمواقع النجوم . وانه لقسم لو تعلمون عظيم . انه لقرآن كريم . فى كتاب مكنون . لا يمسه الا المطهرون . تنزيل من رب العالمين . أفبهذا الحديث أنتم مدهنون . وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون »(٣٨٠) . فهم - كما يقول ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) - يداهنون بما حقه أن يصدع به ، ويفرق به ، ويعض عليه بالنواجذ ، وتثنى عليه الخناصر ، وتعقد عليه القلوب والأفئدة ، ويحارب ويسالم لأجله ، ولا يلتوى عنه لا يمنة ولا يسرة ، ولا يكون للقلب التفات الى غيره ، ولا محاكمة الا اليه ، ولا مخاصمة الا به ، ولا اهتداء فى طرق المطالب العالية الا بنوره ، ولا شفاء الا به ، فهو روح الوجود وحياة العالم ، ... ، فكيف تطلب المداهنة بما هذا شأنه ... والمداهنة انما تكون فى باطل قوى لا يمكن ازالته ، أو فى حق ضعيف لا يمكن اقامته . فيحتاج المداهن الى أنه يترك بعض الحق ويلتزم بعض الباطل . فأما الحق الذى قام به كل حق ، فكيف يداهن به ؟(٣٨١) .

٦/٦/٢ ولعل من هذه الصورة أيضا ، قوله تعالى : «خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين »(٣٨٢) ، وقوله تعالى: « أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين »(٣٨٣) .

---

(٣٨٠) الواقعة ٧٥ - ٨٢ .
(٣٨١) التبيان ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .
(٣٨٢) النحل ٤ .
(٣٨٣) يس ٧٧ .

وينبغى لنا أن ننظر الى المثيرات الأسلوبية التى تشترك فى تشكيل المفارقة فى هاتين الآيتين ، على النحو التالى :

(أولا) لابد من تأمل المقابلة الخلافية(٣٨٤) بين «النطفة» و « الخصومة » • والنطفة تمثل بداية الخلق الانسانى ، والخصومة بينة • واذا علمنا أن الخصومة ـ أو المخاصمة ـ تعنى المنازعة ، وأن أصل المخاصمة أن يتعلق كل واحد بخصم الآخر ؛ أى جانبه ، أدركنا أن مثل هذا الانسان قد صار خضعة لسفهه وهواه ، ودخل مع خالقه فى منازعة ، واستعدى غرورا وجهلا على جده الأعظم !

(ثانيا) جعلت السخرية فى هذه المفارقة وسيلتها الكشف عن تعجل هذا الانسان • وكان نقل هذا المضمون ، من وظيفة « اذا » الفجائية : التى تعبر عن هذا الوضع المفاجىء الذى انقلبت اليه تلك النطفة • ومعروف أن معنى المفاجأة ، حضور الشىء معك ، فى وصف من أوصافك الفعلية • فاذا قلت: خرجت فاذا الأسد بالباب ؛ فمعناه حضور الأسد معك فى زمن

---

(٣٨٤) للمقابلة ثلاثة أنواع : نظيرى ، ونقيضى ، وخلافى • والخلافى أتمها فى التشكيك ، وألزمها بالتأويل ، والنقيضى ثانيها ، والنظيرى ثالثها • من مقابلة النظيرين مقابلة السنة والنوم ، لأنهما جميعاً من باب الرقاد المقابلة باليقظة • ومن مقابلة النقيضين : أيقاظ ـ رقود • ومثال مقابلة الخلافين : مقابلة الشر بالرشد ، فى قوله تعالى : « وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا » (الجن ١٠) فقابل الشر بالرشد ، وهما خلافيان ، وضد الشر الخير ، وضد الرشد الغى (انظر فى ذلك : البرهان ٣/٤٥٨ ـ ٤٥٩) •

وصفك الخروج أو فى مكان خروجك • ويعنى ذلك كله هنا حضور الخصومة مع خلق هذا الانسان من نطفة - أولى مراحل خلقه - قبل أن تمر بمراحل الخلق الأخرى ؛ من علقة ومضغة وعظام ونحوها •

(ثالثا) ينبغى لنا كذلك ، تأمل المواءمة اللطيفة بين «اذا» الفجائية وفاء العطف ؛ فالفاء تفيد الترتيب مع التعقيب • وهذا يؤكد الانتقال المفاجىء من حال النطفة الى حال الخصومة • وبالطبع ، فلو وضعت « ثم » موضعها ، لفاتت مزية التعبير عن معنى السخرية من موقف ذلك الانسان ، فى جهله واستعجاله الخصومة •

(رابعا) يدخل اختيار صيغة « فعيل » فى « خصيم » ، فى مواءمة أخرى ، مع « الفاء » و « اذا » قبلها ، ومع الصفة « مبين » بعدها ؛ فهى صيغة مبالغة ؛ تفيد قوة خصومته الظاهرة ومبالغته فيها ؛ فالخصيم هو الكثير المخاصمة ، بعبارة الأصبهانى(٣٨٥) • وهذه الدرجة لا تفيدها بالطبع ، كلمة « خصم » ، التى تعنى المنازعة فقط •

(خامسا) وللوصف فى « خصيم مبين » أهميته ؛ فهى خصومة بينة قوية • وليس هذا الوصف - فى حقيقته - الا مزيد من السخرية بهذا الانسان ؛ لأن خصومته رأسا لا قيمة لها عند خالقه ومالك أمره ! والصيغة التى بنيت عليها الصفة « مبين » ، هى « مفعل » • وهى مما اعتمدت عليه صناعة هذه

---

(٣٨٥) المفردات ص ٢١٥ •

المفارقة فى زيادة حدة السخرية بهذا الانسان • وتدخل هذه الصفة فى مقابلة بنائية ـ وبالتالى معنوية ـ مع « بائن » • فالأولى مشتقة من الفعل « بان » • وكأنها مقابلة بين حالة التعدى فى الأول ، واللزوم فى الثانى • والمغايرة فى المعنى ، تتضح من النظر الى الجملتين : بانت خصومته ، وأبان عن خصومته ، ففى التعدى ، المعنى الوظيفى الذى يطلبه المعنى الأسلوبى فى هذه المفارقة ، وهو اظهار القصد فى اعلان الخصومة القوية • ولكن هذه الخصومة ـ مهما كان الظن بقوتها والجهر بها ـ تظل مخاصمة من قبيل القول ، وليس لها بحال أن تبلغ مبلغ المعاداة التى هى من أفعال القلوب(٣٨٦) • وفى اختيار اللفظ هنا ما يوجب التنويه •

(سادسا) ومن بديع النظم القرآنى الذى نجده فى هذه المفارقة ، حذف متعلق اللفظ « خصيم » • وقد عول فى هذا على السياق اللغوى النصى ، الذى يدل على أنه خصيم لله سبحانه ولكن الحذف هنا أبلغ ؛ وذلك أن المقال ، يريد أن ينفى بالسخرية مقام خصومة الانسان لله سبحانه أصلا ، وأنه لا وجه البتة ـ عند أولى الألباب ـ لتصور مثل هذه الخصومة ، مهما سولت لمثل هذا الانسان نفسه مثل تلك الخصومة !

٧/٦/٢ أما الصورة الثانية من هذا النوع من المفارقات القرآنية ، فتبدو فى حكاية قول ؛ لاظهار خطله وفساده ، وما ينطوى عليه من مغالطة شنيعة • ويمكننا أن نرى من ذلك

---

(٣٨٦) الفروق فى اللغة ص ١٢٤ •

قوله تعالى : « وان منكم لمن ليبطئن فان أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله على اذ لم أكن معهم شهيدا »(٣٨٧) . جاء فى تفسير الجلالين : « (وان منكم لمن ليبطئن) ليتأخرن عن القتال كعبد الله بن أبى المنافق وأصحابه . وجعله منهم من حيث الظاهر . واللام فى الفعل للقسم . (فان أصابتكم مصيبة) كقتل وهزيمة . (قال قد أنعم الله على اذ لم أكن معهم شهيدا) حاضرا فأصاب »(٣٨٨) .

فالشهادة هنا تعنى الحضور . ويضيف الراغب الأصبهانى أن : « الشهود والشهادة : الحضور مع المشاهدة ، اما بالبصر أو البصيرة ... وأما الشهيد ، فقد يقال للشاهد والمشاهد للشىء »(٣٨٩) . فكأن هذا المبطىء ظن فى تخلفه عن الحضور انعاما ، فى الوقت الذى يكون الانعام الحق فيه الحضور . ولذلك كان دخول لفظ الانعام الى هذه المفارقة نوع تهكم بما كان عليه فهمه الأمر . ولعل فى ايثار « شهيد » على « حاضر » ، ثم جعله على « فعيل » ، ما يشعر باعتداده بمفهومه أو تصوره الذى كان عليه ، حين صدف عن نداء الجهاد !

لقد اختارت هذه المفارقة « الانعام » من بين مرادفاته ، وكأنه احسان خالص فى نفع وخير . ومن جهة أخرى ،

---

(٣٨٧) النساء ٧٢ .

(٣٨٨) تفسير الجلالين ، مرجع سابق ص ١٤٠ .

(٣٨٩) المفردات ص ٣٩٢ - ٣٩٣ .

أدخلت المفارقة الى بنيتها التركيبية الحرف « قد » ، الذى يفيد التحقيق ، بدخوله على الماضى « أنعم » ، وكأن هذا الانعام الذى تصوره ذلك المبطىء صار أمرا محققا !

٨/٦/٢ ومن هذه الصورة كذلك قوله تعالى : « ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودات »(٣٩٠) ، وقوله : « وقالوا لن تمسنا النار الا اياما معدودة »(٣٩١) . ومعروف أن ما يجمع جمع التكسير من مذكر غير العاقل (وهو هنا « أيام ») ، قد يتبع بالصفة المفردة مؤنثة بالتاء ، على نحو ما نرى فى « معدودة » . وقد تجمع الصفة بالألف والتاء فى غير المفرد ، مثل « معدودات »(٣٩٢) .

واذا أردنا أن نتسع فى تحليل البنية اللغوية لخطاب المفارقة فيما سبق ، لاحظنا - للوهلة الأولى - اختلاف هاتين الصفتين بين الافراد والجمع . ويعنى ذلك اختلاف السياق فى الموضعين ، وان بدا الموضعان - فى الظاهر - متشابهين . وهذا سر عجيب من أسرار الاعجاز اللغوى للقرآن . فاذا نظرنا الى آية البقرة ، رأينا أن الكلام دار فيها حول بنى اسرائيل وصفاتهم المنكرة ، ومنها تحريفهم كلام الله وهم يعلمون جرمهم . وقد توعدهم الله بالويلات . وتوقعوا أن يكون العذاب الذى سيحل بهم أشد ، فقالوا « الا أياما معدودة » ، فجاء

---

(٣٩٠) آل عمران ٢٤ .

(٣٩١) البقرة ٨٠ .

(٣٩٢) البرهان ٤/٢٢ .

بالمفرد المؤنث صفة للجمع • واذا وقع المفرد المؤنث صفة للجمع ، دل على أن الموصوف أكثر منه اذا كانت صفته جمعا سالما • وذلك ما يفسر - فى الوقت ذاته - سر استعمال « معدودات » فى آية آل عمران السابقة ؛ فالمجموع بالألف والتاء للقلة • وهذا يناسب المقام هنا ، حيثما لا نجد مثل هذا الجرم العظيم الذى ارتكبه بنو اسرائيل • فهنا التولى والاعراض وكان هناك تحريف كلام الله عن عمد • الذنب هنا اذن أقل ، ولذلك وقعت « معدودات » ، فى هذا الموقع بصيغة جمع القلة، مطابقة للمقام •

ويروى عن ابن جماعة ، أنه أرجع « معدودة » - يجمع الكثرة - فى آية البقرة ، و «معدودات» - يجمع القلة - فى آية آل عمران ، الى أن قائل ذلك فرقتان من اليهود ، احداهما قالت : انما تعذب بالنار سبعة ايام عدد ايام الدنيا ، والأخرى قالت : : انما نعذب أربعين عدة أيام عبادة آبائهم العجل ؛ فآية البقرة تحتمل قصد الفرقة الثانية حيث عبر بجمع الكثرة ، وآل عمران بالفرقة الأولى حيث أتى بجمع القلة(٣٩٣) •

---

(٣٩٣) الاتقان ، بتحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم ٣/٣٤٢

وأما ما جاء من نحو قوله تعالى : « أياما معدودات » (البقرة ١٨٤) فى شهر الصوم ، فهو من جهة وضع جمع القلة موضع الكثرة • وذلك « لأن الجموع يقع بعضها موقع بعض ، لاشتراكها فى مطلق الجمعية ، كقوله تعالى : « وهم فى الغرفات آمنون » (سبأ ٣٧) ، فان المجموع بالألف والتاء للقلة ، وغرف الجنة لا تحصى » (البرهان ٣/٣٥٥) • ومن المشكل قوله تعالى : « فيضاعفه له أضعافا كثيرة » (البقرة ٢٤٥) • فان « أضعافا » جمع قلة ، فكيف جاء بعده كثرة • يجيب الزركشى بأن جمع القلة يستعمل مرادا به الكثرة وهذا منه (المرجع السابق ٣/٣٥٥) •

وخلاصة القول ، أن المفارقة فى حكمهم بما ليس فيه لأحد أصلا مجال لحكم • ويستعمل خطاب المفارقة هنا من الأدوات والمثيرات الأسلوبية ، ما يبلغ المغزى ؛ مثل استعمال الفعل « مس » خاصة ، وجعل المعدود أياما ، ووصفه بمعدودة ومعدودات • ويحمل ذلك كله تهوينا عجيبا - على زعمهم - من أمر النار • أضف الى ذلك ، بناء المفارقة تركيبيا على أسلوب القصر ، الذى يوظف النفى والاستثناء أدوات له ، كأنهم يقفون فى كلامهم وحكمهم ، موقف العارف المدرك المطلع على ما يكون !

٩/٦/٢ ومن هذه الصورة أيضا قوله تعالى : « وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب » (٣٩٤) • ولم يرد هذا اللفظ « قط » فى القرآن الا فى هذا الموضع • وهو من مسائل نافع ابن الأزرق لعبد الله بن عباس قال نافع لابن عباس : « أخبرنى عن قوله تعالى : « عجل لنا قطنا » • قال : القط : الجزاء • قال: وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت قول الأعشى :

ولا الملك النعمان يوم لقيته
بنعمته يعطى القطوط ويطلق »(٣٩٥)

وروى عن أبى القاسم أن « قطنا » معناه كتابنا بالنبطية(٣٩٦) •

---

(٣٩٤) ص ١٦ •

(٣٩٥) الاتقان ، طبعة المكتبة الثقافية ، بيروت (١٩٧٣م) ١/١٢٣

(٣٩٦) الاتقان ، بتحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم ٢/١١٥ •

وقال الفراء (ت ٢٠٧هـ) : « القط : الصحيفة المكتوبة ، وانما قالوا ذلك حين نزل « فأما من أوتى كتابه بيمينه»(٣٩٧) فاستهزءوا بذلك ، وقالوا : عجل لنا هذا الكتاب قبل يوم الحساب . والقط فى كلام العرب : الصك ، وهو الحظ والكتاب »(٣٩٨) .

وقال أبو عبيدة (ت ٢١٠هـ) فى تفسير « القط » : «القط: الكتاب . قال الأعشى :

ولا الملك النعمان يوم لقيته بامته يعطى القطوط ويأفق

القطوط : الكتب بالجوائز »(٣٩٩) .

وذكر الزمخشرى (ت ٥٣٨هـ) من استعمالات هذه المادة، مما يفيد أنها تعنى معجميا القطع . ومن هذه الاستعمالات ما يناسب المعانى المذكورة ؛ كقوله : « وأخذوا القطوط : خطوط الجوائز » (٤٠٠) . وجعل « القط » من المجاز . قال : « ومن المجاز : لى قط من ذلك : نصيب . وأخذ فلان قطه ، وأحرز قسطه »(٤٠١) .

---

(٣٩٧) الحاقة ١٩ ، الانشقاق ٧ .

(٣٩٨) الفراء (أبو زكريا يحيى بن زياد) : معانى القرآن ، عالم الكتب ، بيروت ، ط ٣ (١٤٠١هـ ، ١٩٨٣م) ٢/٤٠٠ .

(٣٩٩) مجاز القرآن ، مرجع سابق ٢/١٧٩ يأفق : يفضل ويعلو .

(٤٠٠) أساس البلاغة ، مرجع سابق ص ٣٧١ .

(٤٠١) المرجع السابق ص ٣٧١ .

وقال الراغب الأصبهانى (ت ٥٦٥هـ) : « القط ، الصحيفة ٠٠ وأصل القط الشيء المقطوع عرضا ، كما أن القط هو المقطوع طولا ٠ والقط : النصيب المفروز ، كأنه قط، أى أفرز »(٤٠٢) ٠

ويرجح هاليفى Halévy أن هذه الكلمة مشتقة من الأكادية Kithu ٠ ويوافق فرنكل Fraenkel السيوطى ، على أن هذه الكلمة مقترضة من الآرامية(٤٠٣) ٠ ويشير آرثر جيفرى Arthur Jeffery الى أن الأصل البعيد - فيما يبدو - هو اللفظ السومرى qid الذى صار qittu فى الأكادية(٤٠٤) ٠

يتبين لنا من كل ما تقدم، أن المفارقة فى هذه الآية الكريمة، أنهم - مع أفعالهم واستهزائهم الكريه - يتعجلون قطهم قبل يوم الحساب ؛ وينتظرون نصيبا مفروزا ، أو كتبا بالجوائز ، كأنهم يرون ما عملوا ، مما يكون للمرء عليه أن يكافأ !

١٠/٦/٢ أما الصورة الثالثة من صور هذه المفارقة ؛ فهى المقابلة بين قولين ، دحضا لزعم الضحية ومفهومها السفيه ٠ ومنه قوله تعالى : « واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء »(٤٠٥) ، وقوله تعالى : «واذا

---

(٤٠٢) المفردات ص ٦١٤ - ٦١٥ ٠

(٤٠٣) Jeffery, Arthur, The Foreign Vocabulary of the Qur'an, Oriental Institute, Baroda (1938) p. 241.

(٤٠٤) المرجع السابق ص ٢٤١ ٠

(٤٠٥) البقرة ١٣ ٠

قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا انما نحن مصلحون»(٤٠٦) · تكشف المفارقة، بالمقابلة بين القولين ، مفهومهم الذى صدرت عنه مقالتهم · فهم فى سفه طاغ ، فى وقت يرون فيه الايمان سفها · ان المفارقة تعتمد على مقابلة الناس فى القول الأول ، بالسفهاء فى قولهم ؛ وكأنهم تصوروا الناس الذين آمنوا سفهاء · وقد وقعت كلمة « السفهاء » معرفة ؛ للاشارة الى معهود خارجى · ويشترط النحاة تقدم ذكره ، ولكن من النحاة من لا يشترط ذلك ، وجعل منه هذه الآية ؛ لأنهم - كما يدل مفهوم المفارقة - كانوا يعتقدون أن الناس الذين آمنوا سفهاء ؛ فتركوا أن يؤمنوا لئلا يكونوا من السفهاء ! ·

وتتجلى حركية اللغة فى هذه المفارقة ، فى بنائها على التضمين والاستدلال · والتضمين implicature اصطلاح يستخدم لبيان ما يمكن أن يضمنه المتكلم ، أو يوحى به ، أو يعينه بحيث يكون مختلفا عما يقوله هذا المتكلم حرفيا(٤٠٧) · وهناك التضمين التقليدى أو الاصطلاحى ، وهو الذى يتحدد - وفقا لما يراه جريس Grice - بالمعنى الاصطلاحى أو العرفى للمفردات المستخدمة(٤٠٨) · وفى هذا النوع ، لا يؤكد المتكلم مباشرة خاصية تتبعها خاصية أخرى · ولكن صيغة التعبير

---

(٤٠٦) البقرة ١١ ·

(٤٠٧) Brown / Yale, Discourse Analysis, ibid, p. 31.

(٤٠٨) Grice, H., P., Logic and Conversation, in (eds.) P. Cole and J. Morgan : Syntax and Semantic 3 : Speech Acts, New York : Acadamic Press (1975) p. 44.

المستخدمة اصطلاحيا ، تتضمن استحضار مثل هذه العلاقة ، نحو : انه عربى ، وهو لذلك شجاع ٠

بيد أن هناك مفهوم التضمين الحوارى ٠ وهو أهم عند محلل الخطاب ٠ ويؤكد براون Brown / يول Yule حقيقة أن التضمينات عبارة عن مظاهر براجماتية pragmatic aspects للمعنى ، وأن لها خصائص ، يسهل التعرف عليها ٠ انها مأخوذة جزئيا عن المعنى الاصطلاحى أو الحرفى للمنطوق ، وقد أنتج فى سياق محدد ، هو قسمة مشتركة بين المتكلم والمستمع (٤٠٩) ٠

فى ضوء ما سبق ، فان التضمين الذى تحمله الآية ، هو نوع تضمين حوارى ؛ يكشف عن مقصد غير المؤمنين ، عند انتاجه لشريحة من الخطاب ٠ انه نوع من تضمين الحوار الذى يفسح المجال ـ كما يقول ليونز Lyons ـ أمام الاستغلال الحاذق لفكرة السامع ، حينما يقوم السامع باستنتاجات ، يريد المتكلم أن يتوصل اليها ضمن ما يعتقده المرء أنه النوع القياسى للموقف (٤١٠) ٠ وفى قرينة هذه المفارقة ، ضمنوا قولهم ـ مقابلا بالقول السابق ـ حكمهم على الناس الذين آمنوا أنهم سفهاء !

---

(٤٠٩) Brown / Yale, Discourse Analysis, ibid, p. 33.

(٤١٠) انظر فى تفصيل ذلك :

لاينز (جون) : اللغة والمعنى والسياق ، ترجمة دكتور عباس صادق الوهاب ، وزارة الثقافة والاعلام ، دار الشئون الثقافية العامة ، بغداد (١٩٨٧م) ص ٢٢٨ وما بعدها ٠

وينبغى لنا ملاحظة استعمال « ال » على هذا النحو ، وأن هذا يقوى مغزى المفارقة ؛ من حيث انها جعلت السفه فى هؤلاء الناس ، وهم المؤمنون وهؤلاء يدركون ذلك . ومن ثم ، يرد السفه الى هؤلاء السفهاء حقا ، أمرا معهودا فيهم .

والسفه ضد الحلم ؛ لأن السفه خفة وعجلة . وفى الحلم أناة وامهال . وقال المفضل : السفه فى الأصل قلة المعرفة بوضع الأمور مواضعها ، وهو ضعف الرأى(٤١١) . والسفه نقيض الحكمة فى كل وجه(٤١٢) . ويقال للجاهل سفيه(٤١٣) . واذا كان الأمر هكذا ، أدركنا كم بلغ السفه ممن وصفوا المؤمنين بهذا الوصف مبلغه ! لا سيما عند ملاحظة ما يشعر به استفهامهم بالهمزة ، من برود التعالى فى اللهجة ، التى لا تخلو من ازدرائهم المقيت لهؤلاء الناس ، وانكارهم عليهم ايمانهم!

وفى الآية الثانية ، تستند المفارقة ـ بمقابلة أحد القولين بالآخر ـ على مقابلة حقيقة فعلهم ؛ وهو الافساد فى الأرض، بمغالاتهم ومغالطتهم بأنهم مصلحون . وهى مقابلة صريحة بين ضدين ؛ ينقض فيها طرف الضحية . وذلك أن الصلاح يعنى الاستقامة على ما تدعو اليه الحكمة(٤١٤) . والفساد يعنى التغيير عن المقدار الذى تدعو اليه الحكمة(٤١٥) . وفى ذلك،

---

(٤١١) الفروق فى اللغة ص ١٩٤ .

(٤١٢) المرجع السابق ص ١٩٦ .

(٤١٣) المرجع نفسه ص ١٩٨ وقال الراغب : « السفه خفة فى البدن واستعمل فى خفة النفس لنقصان العقل » (المفردات ص ٣٤٣) .

(٤١٤) الفروق فى اللغة ص ٢٠٤ .

(٤١٥) المرجع السابق ص ٢٠٨ .

ما يجعل المفارقة قادرة على الكشف عن بهتان جانب الضحية ، والتهكم بعنادها .

وقد قوبل فعل الشرط - فى العبارة القرآنية - بجواب من جنسه لفظيا ، وكأن فى ذلك تلميحا أو حكاية لاصرارهم على زعمهم بما فيه من بهتان ! وليس لهم بعد ذلك قول ، الا اذا كان تسليما واعترافا بقوله تعالى ، أما أن يكون قولهم بأنهم مصلحون ، فى الوقت الذى هم فيه مفسدون ، فذلك فيه من الخطل وقلب الأمر ما لا يخفى .

وللزركشى لفتة ذكية ، الى القيمة الدلالية لذكر دال « الأرض » فى هذه المقابلة ، يقول : « وأما قوله تعالى : «واذا قيل لهم لا تفسدوا ... » . الآية ، مع أن المعلوم أن الفساد لا يقع الا فى الأرض ، قيل : فى ذكرها تنبيه على أن المحل الذى فيه شأنكم ، وتصرفكم ، ومنه مادة حياتكم ، وهى سترة أموالكم ، جدير ألا يفسد فيه ، اذ محل الاصلاح ، لا ينبغى أن يجعل محل الافساد »(٤١٦) .

ونود أن نتوقف كذلك عند قيمة « انما » ، فى اظهار مغزى المفارقة فى هذه الآية الكريمة . قال عبد القاهر الجرجانى : « اعلم أن موضوع «انما» ، على أن تجىء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته أو لما ينزل هذه المنزلة . تفسير ذلك : أنك تقول للرجل : انما هو أخوك ، وانما هو صاحبك القديم ، لا تقوله لمن يجهل ذلك ، ويدفع صحته ، ولكن لمن يعلمه ويقر

---

(٤١٥) المرجع السابق ص ٢٠٨ .

(٤١٦) البرهان ٢/٤٢٦ .

به ، الا أنك تريد أن تنبهه للذى يجب عليه من حق الأخ وحرمة الصاحب »(٤١٧) .

فى ضوء ذلك ، فان « انما » فى هذه الآية الكريمة ، تعنى أنهم ادعوا فى عملهم بهذه الصفة ، أنه أمر ظاهر معلوم للجميع ، على عادة أمثالهم ، اذا أخبروا عن أنفسهم ، أن يدعوا فى أعمالهم التى يصفونها ، أنها ثابتة لهم ، وأنهم قد شهروا بها ، وأنهم لم يصفوها الا بالمعلوم الظاهر الذى لا يدفعه أحد! لقد جعلوا فعلهم فى حكم الظاهر المعلوم الذى لا ينكر ولا يدفع ولا يخفى ، وأنه بحيث لا ينكره منكر ولا يخالف فيه مخالف! ومن ذلك يتبين كيف أخرج القرآن المقال مخرجه الذى يطابق مقامه ، على أبلغ ما تكون المطابقة ؛ فظهر وجه الغرابة والمغالاة حين جعلوا الفساد اصلاحا !

وتفيد « انما » فى الكلام بعدها ، ايجاب الفعل لشىء ونفيه عن غيره ، فمعنى الكلام معها شبيه بالمعنى : نحن مصلحون لا مفسدون . الا أن « انما » لها مزية ؛ وهى أننا نعقل معها ايجاب الفعل لشىء ، ونفيه عن غيره دفعة واحدة ، وفى حال واحدة . وليس كذلك الأمر فى : نحن مصلحون لا مفسدون ؛ فاننا نعقلهما فى حالين . ومزية ثالثة ؛ وهى انها تجعل الأمر ظاهرا فى أنهم مصلحون ، ولا يكون هذا الظهور اذا جعل - على زعمهم - الكلام بالأداة « لا »(٤١٨) .

---

(٤١٧) دلائل الاعجاز ص ٢٥٤ .

(٤١٨) أفدت هذه الفكرة من لمحة من لمحات عبد القاهر الباهرة ، فى كتابه : دلائل الاعجاز ص ٢٥٨ .

أضف الى ما تقدم ، أن من أقسام الحصر المعروفة (ويقال له القصر) الحصر بـ « انما » • وهو قريب من الحصر بـ « ما » و « الا » ، وان كان جانب الاثبات فى الحصر بـ « انما » أظهر، فكأنما أفادت « انما » فى الآية ، اثبات الاصلاح لهم بالمنطوق ونفيه عن غيرهم بالمفهوم !

١١/٦/٢ أما الصورة الرابعة ، فهى المقابلة بين فعلين أو سلوكين ، ونجدها فى قوله تعالى : « يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم »(٤١٩) • وفى استخفائهم من الناس (ولاحظ هنا حصول المعنى الوظيفى وهو طلب الاخفاء بزيادة الألف والسين والتاء) اخفاء لما فيهم من عيوب ، ودرأ للتقبيح والاستهجان • وذلك فى الوقت الذى ينسيهم فيه سفه أحلامهم ، أن الله تعالى يعلم ذلك عنهم ؛ فهو معهم ، مطلع عليهم ، لا تخفى عليه خافية ! • ويمتاز لفظ « الاستخفاء » على نظائره، نحو « الستر » و « الحجاب » و « الكن » وغيرها ، بميزة العمومية ؛ فالاخفاء أعم منها جميعا(٤٢٠) •

١٢/٦/٢ أما الصورة الخامسة والأخيرة من صور هذا النمط من المفارقات القرآنية ، فمنها قوله تعالى : « ألم تر الى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون فتيلا »(٤٢١) • ومعلوم أن الهمزة اذا دخلت على « رأيت » ، امتنع أن تكون من رؤية البصر أو القلب ، وصارت بمعنى

---

(٤١٩) النساء ١٠٨ •

(٤٢٠) الفروق فى اللغة ص ٢٨١ - ٢٨٢ •

(٤٢١) النساء ٤٩ •

« أخبرنى »(٤٢٢) . وقد دخلت الهمزة هنا على « لم » . واذا دخلت الهمزة عليها ، أفادت معنيين اثنين ، أحدهما ما نجده فى هذه الآية ، وهو التعجب من الأمر العظيم(٤٢٣) . وهو هنا تزكيتهم أنفسهم بأنفسهم . وكيفما كان الأمر ، فهى تحذير ، كما ينبه الزركشى(٤٢٤) . وهو تحذير لقبح مدح الانسان نفسه عقلا وشرعا .

يقول الأصبهانى : « تزكية النفس ، أى تنميتها بالخيرات والبركات .. وتزكية الانسان نفسه ضربان :

(أحدهما) بالفعل ، وهو محمود ، واليه قصد بقوله : «قد أفلح من زكاها » وقوله « قد أفلح من تزكى » .

و (الثانى) بالقول ، كتزكية العدل وغيره . وذلك مذموم أن يفعل الانسان بنفسه . وقد نهى الله تعالى عنه ، فقال : « لا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » . ونهيه عن ذلك تأديب لقبح مدح الانسان نفسه عقلا وشرعا »(٤٢٥) .

١٣/٦/٢ ومن هذا الضرب من الاستفهام كذلك ، ما فى قوله تعالى : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين ، ما لكم كيف تحكمون »(٤٢٦) . الاستفهام ينكر التطابق بين متضادين ، ويرد عليهم حكمهم ، وينتقد مخادعتهم .

---

(٤٢٢) البرهان ١٧٨/٤ .

(٤٢٣) انظر فى ذلك ، مع نماذج أخرى : البرهان ١٧٩/٤ .

(٤٢٤) المرجع السابق ١٧٩/٤ .

(٤٢٥) المفردات ص ٣١٣ .

(٤٢٦) القلم ٣٥ ، ٣٦ .

وقد عمد القرآن الكريم هنا الى الأسلوب الاستفهامى الذى يخرج عن أصل معناه فى طلب الجواب ، الى الانكار : أن يجعل الله المسلمين كالمجرمين • وهو ـ كما تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن ـ انكار يحمل من التقرير لمثوبة المتقين المسلمين ومآب العصاة المجرمين ، بقدر ما يحمل من الردع لذوى العقول والبصائر • والخطاب فى الآيات للمشركين المجرمين من عتاة قريش ، انكارا لسفه عقولهم وهزؤا بضلال حكمهم »(٤٢٧)•

ان جعلهم الايمان سفها ، والفساد اصلاحا ، كما رأينا، أو جعلهم المسلمين مجرمين ، كما نجد هنا ، بنقض صحة التعريف وحقيقته ، مما يجوز لنا معه ، أن نجعله من باب الجمع بين نقطتين متضادين Oxymoron ، بما هو صورة من صور المناقضة الصريحة flat contradiction (٤٢٨) •

والمجرم فى اللغة ، أصله من الجرم ، وأصل الجرم : قطع الثمرة عن الشجر(٤٢٩) •

٢/٦/١٤ ومن النوع السابق للاستفهام أيضا قوله تعالى: « فمال الذين كفروا قبلك مهطعين • عن اليمين وعن الشمال عزين • أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم »(٤٣٠) •

---

(٤٢٧) التفسير البيانى للقرآن الكريم ، مرجع سابق ٢/٦٦ •

(٤٢٨) انظر فى تفصيل ذلك :

Abrams et. al, The Norton Anthology, p. 2591.

(٤٢٩) المفردات ص ١٢٨ •

(٤٣٠) المعارج ٣٦ ـ ٣٨ •

وقد جاءت هذه الآيات ، فى مقام المقابلة بين هؤلاء الذين أحسنوا العمل والعبـادة من المؤمنين ، فأكرمهم الله بالجنة ، وأولئك الكفار الذين يطمعون فى الجنة ، ولم يعملوا لها !

ويمكننا أن نعد ذلك أيضا من التضاد أو التناقض الظاهر Paradox . وهو وجه من وجوه المفارقة . وهو عبـارة عن قضـية تبـدو باطلة لدرجة السخف absurd ، ولكنها بعـد ذلك ، تجتهد أن يصير لها معنى معقول أو منطقى rational meaning ، وعادة ما يكون هـذا المعنى مفاجئـا أو غـير متوقع(٤٣١) .

ونرى فى هذه المفارقة أمورا عدة تقتضى الانتباه ، أهمها ما يلى :

(أولا) ايثار اللفظ « يطمع » على مرادفاته ؛ لأنه الأوفق فى وصف الحال الداخلية التى كانوا عليها اذ ذاك ؛ وذلك أن « الطمع نزوع النفس الى الشىء شهوة له »(٤٣٢) .

(ثانيا) بناء الفعل « يدخل » للمجهول ، وكأن فى هـذا البناء دلالة على أنهم يطمعون هذا الطمع فى الجنة ، بل فى جنة نعيم ، فى الوقت الذى لا يعملون فيه من أجلها ، ويتكاسلون ، وينتظرون من يدخلهم اياها ! . ان استعمال « أدخل » فى هذا السياق ، ثم البناء للمجهول ، أبلغ من « دخـل » . فالادخال

---

(٤٣١) Abrams, et. al., The Norton Anthology, ibid. p 2591.

(٤٣٢) المفردات ص ٤٥٨ .

أبلغ من الدخول ؛ لأن الادخال هو أن تجعل له ما يدخله حتى يدخله كيف شاء !

(ثالثا) تنكير كلمة « جنة » . ولعله من تنكير التعظيم ؛ أى جنـة وأى جنـة . ويكشف ذلك عن مبلغ طمعهم فيما ليس لأمثالهم البتة طمع فيه ولا استحقاق !

(رابعا) الاضافة اليها فى كلمة « نعيم » ، بيانا للنوع . وفى هذا زيادة اظهار طمعهم أيضـا ، لا سـيما اذا علمنا أن النعيم يعنى : النعمة الكثيرة(٤٣٣) .

(خامسا) ينبيء المفارقة على أسلوب الاسـتفهام ، الذى خرجت فيه الهمزة على الاستفهام الحقيقى ، الى معنى الانكار . بيد أن الانكار له نوعان :

(أحدهما) الانكار الابطالى ، وتقتضى الهمزة فيه ، أن ما بعـدها غير واقع ، وأن مدعيـه كاذب ، نحو قوله تعـالى : « أفعيينا بالخلق الأول »(٤٣٤) .

و (الآخر) هو الانكار التوبيخى ، ويقتضى أن ما بعـد الهمـزة واقع ، وأن فاعله ملوم(٤٣٥) . وهـذا ما يناسب

---

(٤٣٣) المفردات ص ٧٦١ .

(٤٣٤) ق : ١٥ .

(٤٣٥) ابن هشام (جمال الدين بن هشام الأنصارى) : مغنى اللبيب ، دار احياء الكتب العربية (عيسى البابى الحلبى) د.ت ١٦/١ . ونظير الانكار التوبيخى قوله تعالى : «أتعبدون ما تنحتون» ، « أغير الله تدعون» ، « أئفكا آلهة دون الله تريدون » ، « أتأتون الذكران » ، « أتأخذونه بهتانا» (المرجع السابق ١٦/١) .

المفارقة فى آيات سورة المعارج السابقة ؛ فما يعد الهمزة فى « أيطمع » واقع ، وهو طمعهم فى الجنة ، ولكنهم يوبخون على ذلك ؛ لانهم طمعوا فيما ليس لهم فيه ألبتة حق ٠

(سادسا) لابد من النظر الى الترابط الدلالى Coherence بين قرينة المفارقة والآيات السابقات عليها ؛ وذلك أن هذه الآيات ، مهدت للمعنى الكامن فى المفارقة ، عن طريق رسم صورة لهؤلاء الكفار ؛ فهم مهطعون (من هطع الرجل ببصره اذا صوبه ، وبعير مهطع اذا صوب عنقه)(٤٣٦) ٠ وهم أيضا قد بدوا عن اليمين وعن الشمال عزين (وعزين يعنى جماعات فى تفرقة ، واحدتها عزة)(٤٣٧) ٠ ويكشف اختيار الوصفين « مهطعين » و « عزين » عن شدة طمعهم ، من حيث انصرافهم بدنيا (تصويب الأعناق) وانكبابهم حركيا (تجمعهم فى جماعات متفرقة) على ما طمعوا فيه ، وهم رأسا بمنأى بعيد عنه ، وغير مستحقين له !!

١٥/٦/٢ ويمكننا أن نرى هذه الصورة الأخيرة فى مواضع أخرى من النص القرآنى ، نحو قوله تعالى : « وأملى لهم ان كيدى متين ٠ أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ٠ أم عندهم الغيب فهم يكتبون »(٤٣٨) ، وقوله : « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار »(٤٣٩) ٠

---

(٤٣٦) المفردات ص ٧٩١ ٠
(٤٣٧) المرجع السابق ص ٥٠٠ ٠
(٤٣٨) القلم ٤٥ - ٤٧ ٠
(٤٣٩) ص ٢٨ ٠

ويبدو لنا أن « الجعل » فى هذه الآيات ، يفيد النقل والتصيير • والنقل والتصيير هنا ، راجعان الى الحال ؛ أى لا تجعل حال هؤلاء مثل حال هؤلاء ، ولا تنقلها اليها(٤٤٠) • فمثلا قوله تعالى : « أم نجعل المتقين كالفجار »(١٤٤١) ، أى فى سوء الحال ، أى لا نجعلها كذلك(٤٤٢) •

ومما قيل فى « أم » ، أن فيها معنى العطف ، وهى استفهام كالألف ، الا أنها لا تكون فى أول الكلام ، لأجل معنى العطف • و « أم » قسمان : متصلة ومنفصلة • وهى فى الآيات السابقة « أم » المنفصلة(٤٤٣) ؛ التى تقدر بـ « بل » والهمزة • وهى تكون على عطف الجمل • وهى فى الخبر والاستفهام بمثابة « بل » والهمزة(٤٤٤) •

بناء على ذلك ، يبدو المراد فى الآيات : بل أعندهم الغيب، بل أنجعل الذين آمنوا ••• ، ونحوه • ومعناها فى القرآن التوبيخ ، والمراد بها هنا ، التوبيخ لمن قال : عندنا الغيب

---

(٤٤٠) البرهان ٤/١٣٣ •

(٤٤١) ص ٢٨ •

(٤٤٢) الاتقان ، بتحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم ٣/١٣٣ •

(٤٤٣) و « أم » المتصلة هى الواقعة فى العطف والوارد بعدها وقبلها كلام واحد • والمراد بها الاستفهام عن التعيين ، فلهذا تقدر بـ « أى » • وشرطها أن تتقدمها همزة الاستفهام ، ويكون ما بعدها مفردا ، أو فى تقديره (البرهان ٤/١٨٠) •

وقارن : كتاب سيبويه ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٧٣) ٣/١٧٢ وما بعدها •

(٤٤٤) البرهان ٤/١٨١ •

الفصل السابع

مفارقة السلوك الحركى

١/٧/٢ ترسم هذه المفارقة صورة للسلوك الحركى لمن تقع منه ، أو عليه ، عناصرها ومكوناتها • وهى حركة عضوية ، أو حركة جسمية عامة ، تبرز فيها عناصر خاصة مثيرة للغرابة والسخرية • ويستخدم اصطلاح السلوك الحركى Kinesics بمعنى المظاهر المختلفة للسلوك التبليغى غير اللفظى non-vocal communicative behaviour بين المشتركين فى الخطاب • ويعد السلوك الحركى جانبا ضروريا ومتمما للتحليل اللغوى لخطاب المواجهة the linguistic analysis of face-to-face discourse (٤٥٠) •

وقد أسهمت دراسة هذا الموضوع ، فى وصف المحددات السياقية فى مجالات التفاعل اللغوى ، وأكدت ضرورة الاقتراب من السلوك التبليغى ، القابل للملاحظة المباشرة ، عند تفسير اشكالية السياق ، عن طريق ربطها بنظرية أكثر عمومية للخطاب (٤٥١) •

---

(٤٥٠) Gosling, John, Kinesics in discourse, in : Studies in Discourse Analysis, edited by Malcoim Coulthard and Martin Montgomery, Routledge, London and New York (1989) pp. 158 - 189, p. 158.

(٤٥١) المرجع لسابق ص ١٥٩ •

واذا كانت القضية الجوهرية التى ينطلق منها نظام تحليل الخطاب ، هى بيان الكيفية التى تتحقق بها المقولات الوظيفية functional categories **بعبارات شكلية** Formal items **فاننا** نشير - بوجه عام - الى أن الأبنية الاستفهامية السابقة، تهدف الى تحقيق احدى هذه المقولات الثلاث ، وهى مقولة الافصاح elicitation (٤٤٩) . وهو هنا افصاح عن مفاهيم الضحية وتصوراتها المختلفة ، على نحو مفارقى تهكمى انتقادى توبيخى .

---

(٤٤٩) انظر فى ذلك :

Coulthard, M., An Introduction to Discourse Analysis, ibid, p. 107.

والمقولتان الأخريان هما مقولة التوجيه directive التى تتحقق بواسطة الأبنية الأمرية imperative structures ومقولة الاخبار informative التي تتحقق بواسطة الأبنية الافصاحية declarative structures.

(المرجع السابق ص ١٠٧) .

(أحدهمـا) أن الكفار كانوا يقولون : نحن نسـود فى الآخرة ، كما نسـود فى الدنيا ، ويكونون أتباعا لنا ، فكما أعزنا الله فى هذه الدار ، يعزنا فى الآخرة ، فجاء الجواب على معتقدهم ؛ أنهم أعلى وغيرهم أدنى .

(الثانى) لمـا قيل قبل الآية : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا »(٤٤٧) ؛ أى يظنون أن الأمر يهمـل ، وأن لا حشر ولا نشر ، أم لم يظنـوا ذلك ، ولكن يظنـون أنا نجعـل المؤمنـين كالمجـرمين ، والمتقـين كالفجار »(٤٤٨) .

وبناء على هذا التوظيف البليغ للتشبيه المقلوب فى الآيات السابقة ، يمكننا القول بأنه كان أداة أسلوبية لغاية دلالية ، تقصد المفارقة الى بلوغها ، وهى افتضاح ما فى مذهبهم من شطط ، وما فى حكمهم من خلط ، حين جعلوا الأصل فرعا ، والفرع أصلا . وكأنما ثبت هذا الموضع وهذا المعنى للمجرمين والفجار (وهو - فى زعمهم - علوهم ، وسـيادتهم فى الدنيا والآخرة ، وتبعية الآخرين لهم) وصاروا كأنهم الأصـل فى هذا المعنى ، حتى شبه بهم المؤمنون والمتقون !

ولا ريب أن هذه اللفتـات الدقيقـة ، تجلى لنا أثر هـذه المواءمة المتناهية فى لطفها وقوتها ، فى صنع المفارقة القرآنية بين بنية المقال ومقتضى الحال .

---

(٤٤٧) ص ٢٧ .

(٤٤٨) البرهان ٣/٤٢٨ - ٤٢٩ .

(ولاحظ اختيار « عند » بالذات ، فهى ظرف مكان بمعنى « لدن » ؛ فانه لا يقال : لدن فلان ، الا اذا كان بحضرة القائل) أو من اشتط فى ضلالته ، حين جعل المتقين كالفجار ، والمؤمنين الصالحين كالمفسدين فى الأرض !

من كل ذلك ، نرى أن الاستفهام فى نحو ما تقدم ، مساءلة تتوجه الى الغاء زعمهم وابطاله ، أو النقل : الى انكاره والرد لما ادعوه ، وتوبيخهم عليه .

واذا كانت « أم » فى الآيات السالفة ، بمعنى « بل » والهمزة ، فكيف يستفهم الله تعالى عن أقوالهم السابقة : عندنا الغيب ، .. الخ ؟ أجيب عن ذلك ، بأنه جاء على كلام العرب ؛ ففى كلامهم يكون المستفهم محققا للشىء ، لكن يورده بالنظر الى المخاطب ، كقوله : « فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى »(٤٤٥) ، وقد علم الله أنه لا يتذكر ولا يخشى ؛ لكنه أراد : « لعله يفعل ذلك فى رجائكما »(٤٤٦) .

وحرى بنا هنا ، أن نلفت النظر الى العلاقة بين المدلول فى المفارقات الأخيرة ، ووضعية كاف التشبيه ؛ فالأصل دخول أداة التشبيه على المشبه به . وأصل التشبيه أن يشبه الأدنى بالأعلى ، فيقال : « أم نجعل الفجار كالمتقين » ، ونحو ذلك . ومن هنا نتساءل : لم خولفت القاعدة ؟

يجيب الزركشى عن ذلك ، بقوله : « فيه وجهان :

---

(٤٤٥) طه ٤٤

(٤٤٦) البرهان ٤/١٨٢ .

من ناحية أخرى ، صار من المحقق ، القول بأن وصف الحدث اللغوى speech-event ، لابد فيه من معالجة الفونولوجيا، والدوال المعجمية lexis ، والنحو ، والسلوك الحركى ؛ حيثما تجعل هذه المستويات الأربعة ، هى التحقيقات الشكلية لأنواع متعددة من الوظائف التفاعلية interactive functions التى يكون الخطاب المركب الأعظم أو الرئيس لها • ان وصف الحدث اللغوى ـ فى حدود هذه المستويات الأربعة ـ سوف يجعل أمرا ممكنا ، عمل معالجات فعالة لكيفية تحقق الوظائف الخطابية على مستويات الشكل المختلفة various formal levels التى تسهم هى الأخرى اسهاما عظيما جدا فى الآلية التفسيرية لنموذج التحليل كلية(٤٥٢) •

لقد أصبح ثابتا أن السلوك غير اللفظى non-vocal behaviour مهم جدا فى التبليغ الانسانى للمعنى بأنواعه المختلفة • واذا كانت الوظائف الخطابية ، تبدو فى الوقت الحاضر ، متحققة على ثلاثة مستويات شكلية : النحو ، والدوال المعجمية ، والاختيارات التنغيمية intonation choices (٤٥٣) فان هذه المستويات ، قد قصد اليها ؛ لتفسير التركيب الداخلى للنص المنطوق والمكتوب(٤٥٤) •

---

(٤٥٢) المرجع السابق ص ١٦٠ •

(٤٥٣) يرجع اصطلاح « المستوى الشكلى formal level الى هاليداى Halliday الذى جعل الفونولوجيا مستوى وسطا ، يربط المادة الصوتية phonic substance بالشكل form •

(٤٥٤) المرجع السابق ص ١٦٢ •

واذا كان التنغيم الخطابى discourse intonation ، يعد مستوى شكليا ، فقد اقترح الباحثون فى تحليل الخطاب ، ادراجه تحت المستوى الجديد المسمى بالسلوك الحركى ، والذى يضم جميع الحركات ذات المعنى ، المصاحبة للتكلم meaningful gestures أو متواليات الحركات sequences of gestures التى تحقق الوظائف التفاعلية فى المواقف التبليغية المباشرة(٤٥٥) .

وينظر الباحثون الى علم السلوك الحركى ، على أنه يساعد فى ربط الوظائف الخطابية - بطرق مختلفة - بالسمات السياقية أو الموقفية لما وراء النص extra-textual features of situation ، حيثما يكون السياق عبارة عن العلاقات الديناميكية التى تربط بين المشتركين فى الخطاب(٤٥٦) .

لقد عنى أحد هؤلاء الباحثين ، وهو بيردويستل Birdwhistell بدراسة علم السلوك الحركى ، من خلال السياق Kinesics in context ، تلك الدراسة التى قامت على فرضية جوهرية ؛ هى أن هناك طائفة من السلوكيات الحركية الجسمية الشكلية والضرورية التى ترتبط ارتباطا مباشرا بالبنية اللغوية(٤٥٧) .

وقد نظر بيردويستل الى العلامات السلوكية المصاحبة ، على أنها احالات ناتجة عن قنوات أخرى للتفاعل بطريقتين

---

(٤٥٥) المرجع نفسه ص ١٦٢ - ١٦٣ .

(٤٥٦) المرجع نفسه ص ١٦٣ .

(٤٥٧) المرجع السابق ص ١٦٦ .

متمايزتين، تعد الطريقة الثانية منهما - بخاصة - موائمة لهذا المنهج. وتقوى هذه العلامات الاحالية Cross - referencing signals الأبنية الشكلية وتؤكدها وتكيفها. كذلك، فانها تعطى افادات حول السياق الموقفى للرسالة the context of the message situation . وفى الاشارة الأخيرة ، ما يساعد على تحديد سياق التفاعل the context of the interaction ؛ وذلك عن طريق تشخيص الفاعل وسماعه . وفضلا عن ذلك ، فان هذه العلامات تنقل عادة معلومات عن السياق الأكبر the larger context الذى يتجلى فيه التفاعل(٤٥٨) .

خلاصة القول ، أنه اذا كان الاتصال اللفظى ، يؤدى دورا هاما فى مواقف اجتماعية متعددة ، فان نمط الاتصال غير اللفظى ، يؤدى هو الآخر دورا هاما ، سواء أكان مصاحبا ومكملا للنمط الأول ، أم مستقلا . ان حركة الجسم ، تجعل من

---

(٤٥٨) المرجع نفسه ص ١٦٧ .

وجدير بالذكر ، أن نظرية علم السلوك الحركى ومنهجيته ، قد تأثرت بنظرية علم اللغة الوصفى والبنيوى ومنهجيتهما تأثرا قويا . وقد تبين أن السلوك الاتصالى المرئى visible communicative behavior يعرض خواص شكلية formal properties ، مناظرة - على الأقل - لتلك الخواص التى يمكن وصفها فى السلوك المسموع audible behavior انظر :

Birdwhistell, L., A Kinesic — Linguistic Exercise, in : Directions in Sociolinguistics, ed. by : John J. Gumperz and Dell Hymes, Basil Blackwell, (1989) pp. 381 - 404, p. 385.

الاتصال غير اللفظى عاملا هاما فى تفسير الرسالة اللفظية اذا كانت مصاحبة لها(٤٥٩) ٠

ان هذا النوع من المفارقة ، يبنى على رسم السلوك الحركى الغريب فى دوافعه ومسبباته،والذى ينطوى على مغالطة شنيعة، رسما لغويا ، حصيلته صورة تكنى عن الدلالة الثانية،أو المعنى غير المباشر الذى يتضاد هنا مع حقيقة الشىء وأصله ، فينتج عن ذلك التضاد معنى الاستهزاء والسخرية ٠ ومن المفترض أن النشاط أو السلوك الانسانى ، هو ـ فى الجوهر ـ مشكلة تكوين العلاقة بين المثيرات والاستجابات(٤٦٠) ٠ وهذا النوع من المفارقة ، انما يوظف بينونة الاستجابات ومناقضتها للمثيرات ، فى انتاج الدلالة التهكمية الانتقادية ، فى قالب لا ينفك عن التصوير الحركى الكنائى ٠

٢/٧/٢ فى ضوء ما تقدم ، يمكننا أن نرى من هذا النوع من المفارقات القرآنية ، قوله تعالى : « يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت »(٤٦١) ٠ وفى هذه المفارقة، نلحظ أن « من » تفيد معنى التقليل ٠ وقد جعل الزركشى لفظ « الاصبع » فى هذه الآية الكريمة ، من قبيل الكناية التى يكون السبب فيها أن يفحش ذكر اللفظ فى السمع ، فيكنى عنه بما لا ينبو عنه الطبع ؛ قال : « وقوله تعالى : « يجعلون أصابعهم »

---

(٤٥٩) حسن رجب (دكتور) : أدب الاسلام وعلم الاتصال ، مقالة فى كتاب : مقالات فى الدعوة والاعلام الاسلامى ، رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية بدولة قطر ، ط ١ (رجب ١٤١١هـ) ص ٨٠ ـ ٨١ ٠

(٤٦٠) روشكا (ألكسندر) : الابداع العام والخاص ، ترجمة دكتور غسان عبد الحى أبو فخر ٠ سلسلة عالم المعرفة ، الكويت (١٩٨٩م) ص ٢٣

(٤٦١) البقرة ١٩ ٠

ـ الآية ، وانما يوضع فى الأذن السبابة ، فذكر الاصبع وهو الاسم العام أدبا ؛ لاشتقاقها من السب ، ألا تراهم كنوا عنها بالمسبحة ، والدعاءة ، وانما يعبر بهما عنهما ؛ لأنها ألفاظ مستحدثة ، قاله الزمخشرى ٠

وقال الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد فى شرح (الالمام): يمكن أن يقال : ان ذكر الاصبع هنا جامع لأمرين : أحدهما التنزه عن اللفظ المكروه ، والثانى حط منزلة الكفار عن التعبير باللفظ المحمود ٠ والأعم يفيد المقصودين معا ، فأتى به وهو لفظ الاصبع »(٤٦٢) ٠

وفى موضع آخر ، فسر الزركشى « الأصبع » ـ الآية نفسها ـ بالأنامل ٠ ورأى أن حكمة التعبير عن الأنامل بالأصابع ، الاشارة الى أنهم يدخلون أناملهم فى آذانهم ، بغير المعتاد ، فرارا من الشدة ، فكأنهم جعلوا الأصابع(٤٦٣) ٠

ولعل التعليل الأخير الذى ساقه الزركشى ، هو الأنسب الى مدلول الآية ، والأقرب الى سياقها ٠ ونحن نستجيد هذا التعليل؛ لأن استخدام الأصابع فى الآية ، من باب المجاز اللغوى ، عنيت استعمال اللفظ فى غير ما وضع له أولا ٠ وهو هنا من نوع اطلاق اسم الكل على الجزء ، أى أناملهم ٠ وقال السيوطى : « ونكتة التعبير عنها بالأصابع ، الاشارة الى ادخالها على غير

---

(٤٦٢) البرهان ٢/٣٠٦ ٠

(٤٦٣) المرجع السابق ٢/٢٦٢ ٠

المعتاد مبالغة فى الفرار »(٤٦٤) • ونحسب أن هذا هو الوجه الصحيح • ونضيف الى ما سلف ، أن فى هذا الاستعمال للأصابع ـ كما ذكر الدكتور صبحى الصالح ـ تصويرا لحالتهم النفسية ، وما أصابهم من الذعر والهلع ، وهم يولون هاربين(٤٦٥) •

ان هذه الصورة التى ترسمها الكناية المشهدية ، تعول على الوظيفة السيميائية للحركة الجسمية ، وعلى قدرة هذه الحركة على نقل المعنويات من هلع وفزع ونحوهما ، الى حركة مرئية ، ذات دلالة اصطلاحية معروفة عند المخاطبين •

تعتمد هذه المفارقة اذن ، على ما يعرف باسم مساعدات الكلام(٤٦٦) • وهى مساعدات ذات صفة اصطلاحية ؛ أى أنها تخضع لشروط الارسال والتلقى • وتزيد بنية المفارقة هذه الحركة الاصطلاحية وضوحا ؛ وذلك بوجود المفعول لأجله «حذر الموت » • وهو وضوح يكشف علاقة التضاد الكامنة فى هذه المفارقة ، بين موت محيط محدق وسلوك حركى غريب الدافع والمنطلق ؛ هو وضع الأصابع فى الآذان ، أيا كانت كيفية هذا الوضع ، ليس أكثر • وكأن الموت ـ فى ظنهم ـ مما يدرأ بصم الآذان !

---

(٤٦٤) الاتقان ، طبعة المكتبة الثقافية ٢/ ٦٠ •

(٤٦٥) صبحى الصالح (دكتور): مباحث فى علوم القرآن ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ١٧ ، د•ت ص ٤٢٩ •

(٤٦٦) انظر فى ذلك :

غيرو (بيير) : السيمياء ، ترجمة أنطوان أبى زيد ، منشورات عويدات ، بيروت ، ط ٢ (١٩٨٤م) ص ٦٦ وما بعدها •

٣/٧/٢ ولعل من هذا النوع أيضا قوله تعالى : «واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ »(٤٦٧). والأنامل - كما نعرف - أطراف الأصابع - ويوصف المغتاظ والنادم بعض الأنامل والبنان والابهام، قاله الزمخشرى(٤٦٨). وقال الراغب الأصبهانى : « وذلك عبارة عن الندم لما جرى به عادة الناس أن يفعلوه عند ذلك »(٤٦٩) . وكأنى بالأصبهانى يضع يديه على ما أشرنا اليه من قبل ، وهو الصفة الاصطلاحية للحركة الجسمية . تنهض البنية الدلالية لهذه المفارقة اذن ، على التعارض بين الاستجابة والمثير، بين القول والفعل الحركى الذى ينفيه !

٤/٧/٢ كذلك ، فاننا نجد هذا النوع فى مثل قوله تعالى : « وان منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب »(٤٧٠) . ونلحظ هنا ، تكرير كلمة « الكتاب » . والاسم اذا ذكر مرتين ، فله من حيث التعريف والتنكير أربعة أحوال؛ لأنه اما أن يكونا معرفتين أو نكرتين، أو الثانى معرفة والأول نكرة ، أو عكسه(٤٧١) .

وقد فسر الأصبهانى ، تكرار الاسم فى هذه الآية ، بأن الكتاب الأول ما كتبوه بأيديهم ، ثم كرره بقوله : « فويل للذين

---

(٤٦٧) آل عمران ١١٩ .

(٤٦٨) الكشاف عن حقائق التنزيل ، رجع سابق ٤٥٩/١ .

(٤٦٩) المفردات ص ٥٠٥ .

(٤٧٠) آل عمران ٧٨ .

(٤٧١) البرهان ٩٣/٤ .

يكتبون الكتاب بأيديهم »(٤٧٢) • والكتاب الثانى التوراة ، والثالث جنس كتب الله تعالى ، أى ما هو من شىء فى كتب الله تعالى وكلامه(٤٧٣) •

وينفى تكرار « الكتاب » على هذا النحو ، أن يكون مايلوون به ألسنتهم ، من أى جنس من أجناسه • لذلك ، فان لى اللسان فعل لا معنى له ولا طائل تحته ، وقد انكشفت حقيقته ومغزاه!

ولا مراء فى أن التكرار فيما سبق ، انما هو على وجه التأكيد • وفائدته العظمى - كما يقول الزركشى - التقرير • وقد قيل : الكلام اذا تكرر تقرر(٤٧٤) •

والتكرار هنا ، على مستوى البنية ، أداة من أدوات التماسك المعجمى lexical cohesion الذى يعنى به التحليل النصى •

واللى - فى دلالته المحسوسة - فتل الحبل(٤٧٥) • ويحتاج ذلك عادة الى جهد ، ولا يخلو من حرص وحبكة • كأنهم يجتهدون فى فعلهم ؛ نقلا للأمر عن أصله وموضعه • وهيهات ذلك مطلبا ، وعز فيهم مذهبا !

ان لى اللسان هنا ، ينتج كناية تصويرية • وهى - كما يتضح لنا - كناية عن الكذب وتخرص الحديث • وقد انتج

---

(٤٧٢) البقرة ٧٩ •

(٤٧٣) المفردات ص ٤٣٧ ، ونقل الزركشى النص عنه فى البرهان ٤/٩٧ •

(٤٧٤) البرهان ٣/١٠٢ •

(٤٧٥) المفردات ص ٦٩٠ •

التعبير الكنائى ، أو لنقل الصورة التعبيرية الكنائية ، تلك الدلالات ، وعلى نحو ساخر انتقادى فى الوقت نفسه ٠

٢/٧/٥ وفى النص القرانى حالات اخرى لهذا النوع من المفارقة ، نرى منها قوله تعالى : « الى الله مرجعكم وهو على كل شىء قدير ٠ الا انهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه »(٤٧٦) ٠ وكانهم ظنوا انهم يقدرون على الاستخفاء من خالقهم ومالك امرهم ، وان الاستخفاء منه أمر هين لا يكلفهم الا ثنى الصدور! واذا تأملنا السياق اللغوى الكبير لقرينة هذه المفارقة ، رأينا انها وقعت بين عبارتين تجعلان أمر هذه الحركة الجسمية أمرا مضحكا حقا ؛ وهما قوله تعالى : « وهو على كل شىء قدير » وقوله : « انه عليم بذات الصدور » ٠ وكانت العبارة الأخيرة هكذا مشتملة على دال « الصدور » حيثما كان موضع الحركة فى « يثنون صدورهم » ؛ وذلك دحضا لما زعموه ، بل توبيخا لهم عليه ٠ وتبدأ البنية التركيبية للمفارقة ، بألا الاستفتاحية التى تنبه الى ما بعدها ؛ فيجتمع الوعى على البعد الساخر فى المفارقة ٠ أضف الى ذلك جعل الجملة مؤكدة بان ، وصوغ الفعل على المضارعة استحضارا لصورتهم الساخرة ـ وقد عرفنا دافعها ـ آن ثنى الصدور ٠

٦/٧/٢ ونلاحظ فى حالات هذا النوع ، أنه ربما جمع التصوير بين حركة عضوية وصفة لسانية ٠ وهذا ما نراه فى قوله تعالى : « واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه

---

(٤٧٦) هود ٤ ـ ٥ ٠

واذا مسه الشر فذو دعاء عريض »(٤٧٧) • و « أعرض ونأى بجانبه » فيما ذكره أبو عبيدة : « أى تباعد عنى »(٤٧٨) • وجعل الدامغانى (ت بعد ٧٧٤هـ) « الجانب » ، فى مثل هذا الموضع ، بمعنى القلب • وقال فى قوله تعالى : « ونأى بجانبه» أى تباعد بقلبه من الايمان(٤٧٩) •

ويبدو أن الخطاب يعبر عن مفارقة رد الفعل للفعل • والفعل هذا الانعام الالهى على الانسان وكان الرد عليه ، من جانب ذلك الانسان ، الاعراض الذى ينسيه الحمد لله ، ويبعده عن الله جحودا ونكرانا • وقد وقع هذا المعنى ، فى موضع آخر من القرآن ، هو قوله تعالى : « واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه »(٤٨٠) •

ومما يجدر الاشارة اليه ، أن الآية الكريمة ، لم تستعمل « تباعد » ، لكنها استعملت « أعرض » • ولعل فى ذلك ـ فيما يبدو لنا ـ ما يشير الى أمرين مهمين :

(أولهما) العلاقة اللفظية البديعية ـ وبالتالى الدلالية ـ التى تنشأ باستعمال « أعرض » ، بينه وبين « عريض » فى

---

(٤٧٧) فصلت ٥١ •

(٤٧٨) مجاز القرآن ، مرجع سابق ١٩٨/٢ •

(٤٧٩) الدامغانى (الحسن بن محمد) : قاموس القرآن أو اصلاح الوجوه والنظائر فى القرآن الكريم ، تحقيق عبد العزيز سيد الاهل ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٥ (١٩٨٥م) ص ١٠٨ •

(٤٨٠) الاسراء ٨٣ •

الآية عينها . وهو ما سنشير اليه بعد ذلك .

و (الآخر) أن « أعرض » فيها من القدرة التصويرية ، التى تحتاج اليها بنية المفارقة هنا ، ما لا تبديه « تباعد » ونحوها ؛ وذلك أن « أعرض » يعنى أظهر عرضه أى ناحيته . واذا قيل : أعرض عنى ، فمعناه ولى مبديا عرضه(٤٨١) . ويعنى ذلك ، أن الوظيفة الخطابية لهذا السلوك الحركى ، هى الرفض الواضح المعبر عنه حركيا .

لقد قوبل الانعام بالاعراض . وهى مقابلة حادة مباشرة تستند اليها المفارقة فى نصاعتها واحكامها استنادا قويا ؛ فاذا أنعم الله عليه ، أعرض عن الشكر ، وذهب بنفسه وتكبر . والذى تقتضيه البلاغة - كما يقول الزركشى بحق - أن يكون الضمير (فى « مسه ») للمعرض المتكبر ، لا لمطلق الانسان ، ويكون لفظ « اذا » ، للتنبيه على أن مثل هذا المعرض المتكبر ، يكون ابتلاؤه بالشر مقطوعا به (٤٨٢) .

من جانب آخر ، فقد صنع الفعل « أنعمنا » هنا ، مع الاعراض والنأى ، صنع المفارقة على خير وجه ؛ لأنه وقع موقعه فى البنية الدلالية للصورة ، وصار أدل على المعنى المفارقى من غيره ؛ كالاحسان . وسبب ذلك ، أن « الانعام » لا يكون الا من المنعم على غيره ؛ لأنه متضمن بالشكر الذى

---

(٤٨١) انظر فى هذه المعانى : المفردات ص ٤٩٤ ، ٤٩٥ .

(٤٨٢) البرهان ٢٠٢/٤ وقارن : الاتقان للسيوطى بتحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم ١٥١/٢ ، ومفتاح العلوم لأبى يعقوب يوسف بن أبى بكر محمد بن على السكاكى ، دار الكتب العلمية - بيروت ، بدون تاريخ ، بص ١٠٥ ، وقد ذهبا الى ما ذهب اليه الزركشى .

يجب وجوب الدين . أما الاحسان ، فيجوز فيه احسان الانسان الى نفسه . تقول لمن يتعلم العلم : انه يحسن الى نفسه ، ولا تقول : منعم على نفسه(٤٨٣) . وكأن الانعام احسان خالص فى النفع والخير . ولذلك فهو متضمن بالشكر الذى يجب وجوب الدين . وما كان منهم بازاء ذلك كله الا الاعراض والنأى !

كذلك ، فقد أوثر « الانعام » هنا على « المن » مثلا . فالمنة هى النعمة المقطوعة من جوانبها ، كأنها قطعة منها ، كما يقول أبو هلال(٤٨٤) . ويقول أيضا : « وأصل الكلمة (يعنى المنة) القطع . ومنه قوله تعالى : «لهم أجر غير ممنون» أى غير مقطوع وسمى الدهر منونا ؛ لأنه يقطع بين الالف . وسمى الاعتداد بالنعمة منا ؛ لأنه يقطع الشكر عليها »(٤٨٥) . وقد سبق أن رأينا أن النعمة توجب الشكر .

أما الصفة اللسانية ، فى قوله تعالى : « فذو دعاء عريض» فقد ذكر الأصبهانى ، أن « الدعاء » كالنداء الا أن النداء ، قد يقال بيا أو أيا أو نحو ذلك ، من غير أن يضم اليه الاسم . والدعاء لا يكاد يقال الا اذا كان معه الاسم ، نحو : يا فلان(٤٨٦) . ويتضح من ذلك ، أن لفظ « الدعاء » قد اختير دون غيره ؛

---

(٤٨٣) الفروق فى اللغة ص ١٨٧ .

(٤٨٤) المرجع السابق ص ١٩١ .

(٤٨٥) المرجع نفسه ص ١٩١ .

(٤٨٦) المفردات ص ٢٤٤ .

ليدل دلالة ضمنية على دعائهم الله تعالى وقت الشدة ، وحين مس الضر ، لا غير .

وقد وصف هـذا الدعاء بأنه عـريض . وفى ذلك يقـول الأصبهانى : « العرض خلاف الطول . وأصله أن يقال فى الأجسام ، ثم يستعمل فى غيرها ، كما قال تعالى : « فذو دعاء عريض » »(٤٨٧) .

ويذكرنا كون العرض فى الأجسام ، ينوع هذه الصفة فى « دعاء عريض » ، من حيث التوظيف الأسلوبى ؛ فهى ليست ـ كما يبدو لنا ـ صـفة مفيدة أى محددة ، وانمـا هى صـفة مصورة ، أى تلك التى ترسم ، أو تشكل صورة(٤٨٨) ؛ فتنقل الدعاء الى هيئة مرئية لها جسم ومساحة . ولذلك ، فان مثل هذه الصفة ، تقوى العلاقة بينها وبين الموصوف وتنشط المقال .

ولعل ايثار العرض على الطول هنا ، هو الأقوى دلالة ، على أنه دعاء الاستصراخ والاستغاثة الملهوفة ، وسؤال انقضـاء البلاء ، واستعجال انكشاف الضر وقد عجزت الحيلة ! ان ابراز العرض يومىء الى سعة الدعاء ، التى تومىء الى حركة جاهدة من أعضاء النطق ، هذه الحركة التى تومىء بدورها الى أن ذلك الانسان ، قد امتلأت جوانبه بذلك الدعاء !

ولعله من الأدوات الموصـلة الى المدلولات السـابقة ، جعل جواب الشرط على هـذا النحـو : « فذو دعاء عريض » ، يدلا

---

(٤٨٧) المرجع السابق ص ٤٩٤ .

(٤٨٨) انظر فى الفرق بين نوعى الصفة :

كوهين (جان) : بناء لغة الشعر ، مرجع سابق ص ١٦٧ ـ ١٦٨ ، ص ١٦٨ ـ ١٦٩ .

مما لو قيل : دعا دعاء عريضا . ففى هـذه الأداة التركيبيـة دلالة أقوى على ضعف صبر الانسان وقلة احتماله فى موضـع الشر . وهو كذلك أدق وصـفا لحاله ، وأكثر افادة لالتصـاق الدعاء به ، أو التجـائه التلقـائى الفورى الى الدعاء . وذلك مستفاد من « ذو » التى بمعنى صاحب .

وينبغى لنا الآن ، أن نلاحظ أن المختار فى مثل هذه الحالات، هو « العرض » . من ذلك قوله تعالى : « وجنة عرضها السموات والأرض »(٤٨٩) ، ولم يقل « طولهـا » ؛ لأن العرض - كما فطن الى ذلك بحـق الزركشى - أخص ؛ اذ كل ماله عرض فله طول ، ولا ينعكس . وأيضا اذا كان للشىء صفة يغنى ذكرها عن ذكر صفة أخرى تدل عليها ، كان الاقتصار عليها أولى من ذكرها ؛ لأن ذكرها كالتـكرار ، وهو ممل ؛ واذ ذكرت فالأولى تأخير الدلالة على الأخـرى ؛ حتى لا تكون المؤخرة قد تقـدمت الدلالة عليها(٤٩٠) .

---

(٤٨٩) آل عمران ١٣٣ .

(٤٩٠) البرهان ٣/٤٠٣

وذكر الأصبهانى وجوها مختلفة لكمة « عرض » فى هذه الآية ، قال: « أما قوله تعالى : « وجنة عرضها السموات والأرض » ، فقد قيل : هو العرض الذى خلاف الطول . وتصور ذلك على أحد وجوه : اما أن يريد به أن يكون عرضها فى النشأة الآخرة كعرض السموات والأرض فى النشأة الأولى . وذلك أنه قد قال : « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات » . ولا يمتنع أن تكون السموات والأرض فى النشأة الآخرة أكبر مما هى الآن وقيل : يعنى بعرضـها : سعتها ، لا من حيث المسـاحة ، ولكن من حيث المسرة . كما يقال فى ضده : الدنيا على فلان حلقة خاتم ، وكفة حابل . وسعة هذه الدار كسعة الأرض » (المفردات ص ٤٩٥) .

اذن الاقتصار على « عريض » - فى « دعاء عريض » - أغنى عن ذكر الطول ؛ فما له عرض ، له بالضرورة طول . ولا مراء فى أن مثل هذا التعبير ، يعد وجها من وجوه اعجاز الايجاز فى لغة القرآن الكريم .

من ناحية أخرى ، فقد أوثرت - فى عمل هذه المفارقة - كلمة « دعاء » على مرادفها « نداء » مثلا ؛ فالنداء رفع الصوت بما له معنى . والعربى يقول لصاحبه : نادمعى ليكون ذلك أندى لصوتنا ، أى أبعد له . أما الدعاء ، فيكون برفع الصوت وخفضه يقال : دعوته من بعيد ، ودعوت الله فى نفسى وأصل الدعاء طلب الفعل(٤٩١) .

ولعل رفع الصوت وخفضه ، أدل على حال اللهفة والمداومة على الطلب وفقدان السكينة . وهى دلالات يفتقدها النداء المجرد .

فى ضوء ما تقدم ، يحسن بنا ، أن نربط بين الموصوف المختار هنا « دعاء » وصفته المختارة له « عريض » . لعل صفة العرض ، أوثق صلة بطبيعة صوت الدعاء الصادر فى هذه الحال ، وأدل من الطول على امتلاء جوانب مثل هذا الانسان ونفسه بالدعاء المستغيث . من أجل ذلك ، بدت البنية الدلالية لهذه المفارقة أعمق مما لو اختيرت وحدات معجمية أخرى .

وينبغى لنا أن نلاحظ أن البنية الفونولوجية للموصوف « دعاء » ، تأتلف مع صفته « عريض » . وذلك أن الألف فى

---

(٤٩١) الفروق فى اللغة ص ٣٠ - ٣١ .

« دعاء » ، سوف يطول صوتها ، وتتمكن مدتها ؛ لوقوع الهمزة بعدها • وانما تمكن المد فى الألف مع الهمز ، أن الهمزة ـ كما يقول ابن جنى ـ حرف نأى منشـؤه ، وتراخى مخرجه ، فاذا نطقنا بالألف (ويجرى ذلك على الواو والياء) قبل الهمزة ، ثم تمادينا بالألف نحوها طالت الألف ، وشاعت فى الصوت ، فوفت لها ، وزادت فى بيانها ومكانها • وليس كذلك اذا وقع بعد الألف ـ وحروف المد الأخرى ـ غير الهمزة وغير المشدد(٤٩٢) • ولذلك كان ابن جنى ، يصف حروف المد ، اذا تلاهن الهمز والحرف المشدد، بأنهن لدنات ، ناعمات ، وافيات، مستطيلات(٤٩٣) •

واذا كان الأمر كذلك ، رسخت الألف فى المد ، وتمادى الصوت بها فى الموصوف ، وكأن الموصوف ، بما فيه من وفاء الصوت وتمكن المد ، يحكى معنى الصفة ويطابقها !

العرض اذن يومىء الى الطول ، ولا عكس • والعرض فيه التجسيم لصورة الدعاء المتسع • والعرض أقوى تعبيرا عن الامتلاء بالدعاء • ومن ثم ، لا يكفينا أن نتوقف عند تحديد دلالة « عريض » فى الآية الكريمة ، بأنها الكثير ، كما فعل الشوكانى (ت ١٢٥٠هـ) • ان كلمة كثير ، التى سنراها عند الشوكانى ، تظل قاصرة عن حمل الدلالات والايحاءات والمعانى الأسلوبية الخصبة التى تحملها « عريض » قصورا ملحوظا للغاية •

---

(٤٩٢) الخصائص ، مرجع سابق ٣/١٢٥ •

(٤٩٣) المرجع السابق ٣/١٢٥ •

لقد حاول الشوكانى تفسير قوله تعالى : « فذو دعاء عريض » ، فى ضوء تخريج المعنى فى لغة العرب ؛ قال:«والعرب تستعمل الطول والعرض فى الكثرة مجازا • يقال : أطال فلان فى الكلام ، وأعرض فى الدعاء ، اذا أكثر • والمعنى أنه اذا مسه الشر ، تضرع الى الله واستغاث به ، أن يكشف عنه ما نزل به ، واستكثر من ذلك »(٤٩٤) •

وحرى بنا ـ فضلا عما سبق ـ أن نلمح الى التآزر الخلاق بين الصورة التى ترسمها المفارقة والصوت ، فى الآية تلك • ونعنى بذلك علاقة تكرار صوت العين تكرارا ملحوظا (خمس مرات) بصورة المعرض ، اذا دعا دعاء عريضا • فالعين مخرجا صوت حلقى منخفض خلفى(٤٩٥) • والعين صفة صوت مجهور استمرارى خشن(٤٩٦) •

ولعل تمتع العين بهذه الصفات ؛ من قوة اسماع ، واستمرارية ، وخشونة •• الخ ، مما يجعلها أكثر الفونيمات مواءمة لهذا الدعاء الصادر فى تلك الحال بالذات ؛ حال الشدة والضر !

---

(٤٩٤) الشوكانى (محمد بن على بن محمد) : فتح القدير ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، د•ت ٥٢٢/٤ ـ ٥٢٣ •

(٤٩٥) الجو (كونغ) : نظرية علم اللسانيات الحديث وتطبيقها على أصوات العربية ، مجلة الدارة ، العدد ٣ ، السنة ١٧ (ربيع الآخر ـ جمادى الأولى ـ جمادى الآخرة) (١٤١٢هـ) ص ١٠٥ ـ ١٥٣ ص ١٤٠

(٤٩٦) المرجع السابق ص ١٤٤ ـ ١٤٥ •

ولعلنا ندرك فى السياق الصوتى للآية كلها ، ملمحا صوتيا آخر(٤٩٧) ؛ هو تردد الأصوات الأنفية (م = ٢ ، ن = ٧) . والأصوات الأنفية أصوات رنانة . والأصوات الرنانة هى التى تنتج بتشكيل التجويف للوترين الصوتيين الذى يجعل الجهر التلقائى ممكنا(٤٩٨) . ولعل مثل هذه الأصوات الرنانة ذات اتصال بالايحاء بجو هذا الدعاء ، بما قد يداخله عند مس الضر من أنين وندم . ولا يفوتنا هنا أن نشير الى أمرين يستحقان العناية :

(أولهما) أن النون ، مع زميلتها الأنفية الميم ، أطول الحبيسات العربية ، من حيث مدة الاستغراق الزمنى للنطق بها(٤٩٩) . ولا ريب أن طول مدتها الزمنية السمعية ، مما يتواءم تماما مع طبيعة هذا الدعاء العريض .

---

(٤٩٧) يفرق انكفست بين نوعين من السياق الصوتى ، هما : السياق الصوتى التجريبى أو الفوناتيكى (نوعية الصوت ، سرعة الأداء .. الخ) ، والسياق الصوتى الوظيفى أو الفونيمى . ويدخل هذان النوعان تحت السياق النصى فى اطار اللغة . انظر فى ذلك :

Enkvist, N., Linguistic Stylistics, ibid, pp. 59 - 59

والذى نعنيه هنا النوع الثانى ،وهو السياق الصوتى الوظيفى أو الفونيمى .

(٤٩٨) نظرية علم اللسانيات ، مرجع سابق ص ١٣٨ .

(٤٩٩) محمد الأنطاكى : الوجيز فى فقه اللغة ، مكتبة الشهباء للطباعة والنشر والتوزيع ، حلب (١٩٦٩م) ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

و (الآخر) أن النون - مع الميم - صوت أغن . والغنة ، كما لاحظ الليث (ت ١٩٠ هـ)، صوت فيه ترخيم نحو الخياشيم(٥٠٠) . وقد لحظ الخليل بن أحمد (ت ١٧٥ هـ) أن النون أشد الحروف غنة(٥٠١) . وكان القدماء يجمعون بين المد واللين والنون ، وأنها تؤدى الى وجود التمكن من التطريب(٥٠٢) . وكان سيبويه يؤكد أنهم اذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون ؛ لأنهم أرادوا مد الصوت، ويتركون ذلك اذا لم يترنموا(٥٠٣) . ان هذه الصفات التى تتمتع بها النون ، تجعلها كذلك موائمة لطبيعة مثل هذا الدعاء العريض - حين مس الضر - كل المواءمة!

ونستطيع - بالاضافة الى ما سلف - أن نلاحظ فى السياق الصوتى الوظيفى للآية ذاتها ، وظيفة أخرى تشغلها الطليقات، لا سيما الطليقات الطويلة ، التى تكررت فى مجموعها تسع مرات . وتلتقى الطليقات - أو حروف المد فى اصطلاح القدامى - تلتقى صوتيا ، من حيث طول مدة الاستغراق الزمنى للنطق بها ، بهذا الضرب من الدعاء العريض ، حيثما يستلزم العرض هنا الطول !

---

(٥٠٠) الأزهرى (أبو منصور محمد) : المستدرك على الأجزاء السابع والثامن والتاسع من التهذيب ، تحقيق دكتور رشيد عبدالرحمن العبيدى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة (١٩٧٥م) ص ١٠٢ .

(٥٠١) المرجع السابق ص ١٠٢ .

(٥٠٢) البرهان ٦٨/١ ، الاتقان ، طبعة المكتبة الثقافية ١٣٤/٢ .

(٥٠٣) سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان): الكتاب ، منشورات مؤسسة الأعلمى ، ط ٢ ، بيروت (١٩٦٧م) ٢٩٨/٢ - ٢٩٩ .

وفى الخطاب القرآنى ، مواضع أخرى ، وردت فيها مفردات عينية ، تصور حالات فزع وهلع • ومن ذلك قوله تعالى : « ان الانسان خلق هلوعا • اذا مسه الشر جزوعا • واذا مسه الخير منوعا • الاالمصلين »(٥٠٤) • ولنا أن نلاحظ فى هذه الآيات، اشتراك العين والمد معا فى سياق صوتى وظيفى واحد ؛ ففضلا عن كون العين ذاتها ممدودة ، فقد وقعت بين مدات متكررات •

واذا كانت العين فى هذه الآيات الأخيرة ، فضلا عن العين فى آية المفارقة ، ترتبط قيمتها التعبيرية ، بمقامات مجردة ، يغلب فيها الاضطراب والشدة ، فاننا نلحظ هذه القيمة ذاتها فى مقامات محسوسة أيضا • ومن ذلك لفظ « الدع » فى قوله تعالى عن المكذبين : « يوم يدعون الى جهنم دعا »(٥٠٥) • والدع دفع فى الظهور بعنف • ولعله وقع هنا ؛ لأنه أقدر من غيره على الايحاء بما يخرج من المدفوع من صوت غير ارادى ما فيه عين ساكنة هكذا : أ ع° وهو فى جرسه ـ كما يقول سيد قطب ـ أقرب ما يكون الى جرس الدع(٥٠٦) •

ومن ذلك أيضا لفظ « العتل » فى قوله تعالى : « خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم »(٥٠٧) • ومنه فى وصف الهيئة الدالة على الجفاء والغلظة لفظ « العتل » فى قوله تعالى : « عتل بعد

---

(٥٠٤) المعارج ١٩ ـ ٢٢ •

(٥٠٥) الطور ١٣ •

(٥٠٦) التصوير الفنى فى القرآن ، مرجع سابق ص ٨١ •

(٥٠٧) الدخان ٤٧ •

ذلك زنيم »(٥٠٨) . ومنه « البلع » و « الاقلاع » فى قوله تعالى : « وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى »(٥٠٩) .

بيد أننا اذا عدنا الى آية فصلت السابقة ، للاحظنا تردد حركة الفتحة بالذات ترددا ملحوظا (بلغ خمسا وعشرين مرة ، منها سبع للفتحة الطويلة ، وثمانى عشرة للفتحة القصيرة) . والفتحة حركة متسعة ؛ فاللسان مع الفتحة العربية ، يكاد يكون مستويا فى قاع الفم مع ارتفاع خفيف فى وسطه . وفى مقابل الفتحة ، نجد كلا من الضمة والكسرة حركة ضيقة ؛ لقلة ارتفاع الجزء الخلفى من اللسان حال النطق بهما . من أجل ذلك ، بدت الفتحة بخاصة ؛ لما فيها من اتساع واستواء اللسان فى قاع الفم ، أنسب الحركات العربية صوتيا حكاية لهذا الدعاء المنطلق الواسع العريض .

ولعل من الطريف هنا ، أن نشير الى أن صفة الاتساع التى تتصف بها الفتحة ، تتصف بها أصوات الحلق أيضا ، ومنها فى قرينة المفارقة هذه : صوت العين . ويرجع ذلك الى أن « كل أصوات الحلق بعد صدورها من مخرجها الحلقى ، تحتاج الى اتساع فى مجراها بالفم ، فليس هناك ما يعوق هذا المجرى فى زوايا الفم ، ولهذا ناسبها من أصوات اللين أكثرها اتساعا ، وتلك هى الفتحة »(٥١٠) .

---

(٥٠٨) القلم ١٣ .

(٥٠٩) هود ٤٤ .

(٥١٠) ابراهيم أنيس (دكتور) : فى اللهجات العربية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الرابعة (١٩٧٣م) ص ١٧٠ .

واذا كانت الفتحة تتصف بالاتساع ، فان المدى الزمنى لهذا الاتساع ، مع الألف التى تكررت سبع مرات ، سوف يصير أطول . ان الألف ، بما فيها من مد الصوت ومطله والابعاد فيه ، ترتبط بهذا الدعاء العريض ارتباطا وثيقا . ولعل الألف أشد الحركات الطويلة ارتباطا وحكاية لطبيعة مثل هذا الدعاء . انها - فيما يبدو - أحق من أختيها : الواو والياء ؛ لأن الألف - كما يقول ابن جنى - أمدهن صوتا ، وأنداهن ، وأشدهن ابعادا ، وأنآهن(٥١١) . وربما جعلت مدة الندبة فى العربية - لهذا السبب الصوتى - هى الألف دون أختيها . وربما كان ذلك أيضا وراء بناء أدوات النداء و « ها » التنبيه على الألف ، دون الواو والياء . والقرابة بين طبيعة الدعاء الموصوف هنا ، وطبيعة الندبة والنداء ، من الوضوح بمكان .

وكان ابن جنى يجعل الألف أعرق حروف المد الثلاثة ، فى المد(٥١٢) .

ومازالت هذه المفارقة ، تقدم ملمحا لفظيا مهما ، هو قيمة التجنيس ، فى ربط عناصر المعنى الكلى لتلك المفارقة ؛ فهذا المعرض النائى بجانبه ، صار الآن ذا دعاء عريض ؛ فالكلمتان « أعرض » و « عريض » ، يجمعهما - لفظا - أصل واحد فى اللغة . والتجنيس فى حقيقته ، ظاهرة لغوية ؛ تتحاور فيها الأصوات والدلالات ، قبل أن يكون لونا من ألوان البديع ، التى نقف بها عند وظيفة التزيين والتحسين .

---

(٥١١) الخصائص ٣/١٥٥ .

(٥١٢) المرجع السابق ٣/١٢٦ .

وكان الزركشى يسمى هـذا اللون من التجنيس ، باسم الاقتضاب(٥١٣) • وهى تسمية دقيقة ؛ اذ اقتضب اللفظ ، يرد صيغه المختلفة الى مادة واحدة ، تربط - معنويا - بين تلك الصيغ والأبنية بشكل أو بآخر •

لقد هيأت هذه المـادة الصوتية واللفظية المفارقة لرسم صورة ساخرة لانسان لاه ، معرض ، ناء بجانبه ، مطمئن الى نعيم وافاه ، قد شغله وأنساه • كما مكنتها من رسم صورة أخرى له هلعا فزعا ، قد انقلب حاله ، فانخرط - اذ مسه الضر مسا ليس أكثر - فى دعاء عريض •

وفضلا عما يصدر من كل صورة من هاتين الصورتين على

---

(٥١٣) البرهان ٣/٤٥١ - ٤٥٢

وقد فات السيوطى التوفيق ، حين جعل ذلك من تجنيس الاطلاق ، وهو عنده بمعنى اجتماع اللفظين فى المشابهة فقط • فاذا انطبق ذلك على بعض شواهده ، نحو قوله تعالى : « وجنى الجنتين » (الرحمن ٥٤) ، وقوله : « ليريه كيف يوارى » (المائدة ٣١) ، وقوله : « اثاقلتم الى الأرض أرضيتم » (التوبة ٣٨) ، فانه لا ينطبق على « أعرض » و «عريض» فى آية فصلت، لأن هذين اللفظين تجمعهما مادة واحدة ، لا مجرد المشابهة •

وقد عمم ابن سنان الخفاجى (ت ٤٦٦هـ) الاصطلاح ، فأطلق اسم « المجانس » ، على التناسب بين الألفاظ ، الذى يبدو فى صورة اشتقاق بعض الألفاظ من بعض ، ان كان معناهما واحدا ، أو فى منزلة المشتق ، ان كان معناهما مختلفا ، أو تتوافق صيغتا اللفظتين مع اختلاف المعنى ويرى ابن سنان أن هذا انما يحسن فى بعض المواضع ، اذا كان قليلا ، غير متكلف ولا مقصودا فى نفسه (سر الفصاحة ، مرجع سابق ص ١٩٣)

حده من سخرية ، فان تصورنا - مستحضرين فى الأذهان الأسباب والنتائج أو المثيرات والاستجابات - أن تصورنا هاتين الصورتين متجاورتين متناقضتين فى آن واحد ، سوف يخبر عن معنى التهكم الذى أرادته المفارقة فى مجملها ، بحال الانسان فى غروره وعجزه جميعا ٠

٧/٧/٢ ويمكننا أن نرى سلوكا حركيا آخر ، فى قوله تعالى : « فلا صدق ولا صلى ٠ ولكن كذب وتولى ٠ ثم ذهب الى أهله يتمطى »(٥١٤) ٠ قال الفراء (ت ٢٠٧ هـ) : « وقوله عز وجل « يتمطى » يتبختر ؛ لأن الظهر هو المطا ، فيلوى ظهره تبخترا ٠ وهذه خاصة فى أبى جهل »(٥١٥) ٠ وقال الزمخشرى (ت ٥٣٨هـ) : « « يتمطى » يتبختر ٠ وأصله يتمطط ، أى يتمدد ؛ لأن المتبختر يمد خطاه ٠ وقيل : هو المطا ، وهو الظهر ؛ لأنه يلويه ٠٠ يعنى كذب برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتولى عنه ، وأعرض ، ثم ذهب الى قومه يتبختر افتخارا بذلك »(٥١٦) ٠

وتفسير التمطى بالتبختر افتخارا ، وأنه من المطا ، قال به

---

(٥١٤) القيامة ٣١ - ٣٣ ٠

(٥١٥) معانى القرآن ، مرجع سابق ٢١٢/٣ ٠

(٥١٦) الكشاف ، مرجع سابق ١٩٣/٤ ٠

آخرون(٥١٧) .

تعتمد هذه المفارقة اذن على الحركة الجسمية ؛ لى المطا والتمدد والتثاقل . واذا نظر الى هذه الحركة بما هى استجابة، أو رد فعل لفعل سابق ، هو اهمال التصديق بالدعوة والصلاة ونحوهما ، رأينا أنها تترجم عن بلادة أبى جهل وغفلته المقيتة. فليس فى ترك التصديق والصلاة - البتة - ما يدعو بالمرء الى العجب والاختيال . انها المفارقة الساخرة التى تنبعث من صورة مختال متعاجب ، صد عن داعى الحق ، وكأن فى صدوده واعراضه عن الصلاة ، ما يقوده الى الذهاب الى أهله هكذا : متبخترا مزهوا بما فعل !

نحن اذن أمام استجابة حركية (غير لغوية) لفعل لغوى هو الدعوة الى الحق والعبادة . ويعنى ذلك أن الاستجابة جاءت على غير مقتضى الفعل ، بل جاءت مناقضة له كل المناقضة : شكلا ومضمونا .

ان هذه المفارقة ، تعتمد فى ابرازها عنصر السخرية فى حركة التمطى - بما فيها من صد وبلادة - على المقابلة التى مهدت لها ، بما كان منه من تكذيب وتول . وفى قوله تعالى : « فلا صدق ولا صلى . ولكن كذب وتولى »(٥١٨) ، نرى

---

(٥١٧) انظر مثلا : المفردات ص ٧١٣ ، تفسير القرآن العظيم لابن كثير مرجع سابق ٤/٤٥١ ، فتح القدير ، مرجع سابق ٥/٣٤١ ، املاء ما من به الرحمن من وجوه الاعراب والقراءات فى جميع القرآن ، للعكبرى (أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ط ١ (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م) ٢/٢٧٥ .

(٥١٨) القيامة ٣١ - ٣٢ .

مقابلة من الشكل الرباعى المفسر كله ؛ فقد قويل « صدق » بـ «كذب» ، وقويل «صلى» الذى هو أقبل بـ « تولى »(١١٩) ٠

وقد كانت المقابلة من الظواهر السياقية اللغوية التى استخدمها هذا النوع من المفارقة كثيرا ٠

ولعل من المفيد ، أن نلمح الى تأويل للحافظ بن كثير (ت ٧٧٤هـ) يكاد ينفرد به ، لقوله تعالى بعد الآيات السابقة: « أولى لك فأولى ٠ ثم أولى لك فأولى »(٥٢٠) ؛ فاللغويون والمفسرون على أن المعنى فى ذلك هو التهديد والوعيد(٥٢١)،

---

(٥١٩) راجع فى تفصيل ذلك : البرهان ٣/٤٥٩
ولاحظ استعمال « لا » ، لأنه يلزم تكرارها ، فناسبت المقام اللغوى للآيات ٠ أضف الى هذا ، أن النفى بها مباشر ، لأنها تدخل على الماضى، بخلاف « لم » ٠

(٥٢٠) القيامة ٣٤ ـ ٣٥

(٥٢١) جمع السيوطى فى اتقانه أقوالا عدة فى « أولى » ، قال: « قال فى الصحاح : قولهم أولى لك ، كلمة تهديد ووعيد ٠ قال الشاعر :

فأولى له ثم أولى له

قال الأصمعى : معناه : قاربه ما يهلكه ، أى نزل به ٠ قال الجوهرى: ولم يقل أحد فيها أحسن مما قال الأصمعى ٠٠ وقيل : هو علم للوعيد غير مصروف ، ولذا لم ينون ٠ وقيل : معناه : الويل لك ، وأنه مقلوب منه ، والأصل : أويل ، فأخر حرف العلة ، وقيل : معناه الذى لك أولى من تركه ، فحذف المبتدأ لكثرة دورانه فى الكلام ٠ وقيل : المعنى أنت أولى وأجدر لهذا العذاب ٠ وقال ثعلب : أولى لك فى كلام العرب معناه مقاربة الهلاك ، وأصله من الولى وهو القرب ») الاتقان ، طبعة المكتبة الثقافية ١/١٥٨) ٠

ولكن ابن كثير يضيف الى ذلك قوله : « أى يحق لك أن تمشى هكذا (يعنى متبخترا) وقد كفرت بخالقك وبارئك ، كما يقال فى المثل هذا ، على سبيل التهكم والتهديد . كقوله تعالى: « ذق انك أنت العزيز الكريم »(٥٢٢) »(٥٢٣) .

هكذا اتخذت الحركة المعارضة لدوافعها ، أساسا للقطع بتجاوز المعنى السطحى . وتجاوز الفهم الحرفى للمفارقة ؛ يشار اليه - فى نطاق السلسلة التبليغية communication chain - بعلامات مفارقية خاصة special irony signals ، تنبه المستقبل ألا يفسر مجموعات محددة من المثيرات النصية textual stimuli بمعانيها الحرفية . وينبه انكفست Enkvist الى أن بعض العلامات المفارقية ، تقوم على التعارضات أو التناقضات بين الحقائق المدلول عليها سلفا والمعروفة عند المشتركين فى العملية التبليغية(٥٢٤) . وهنا نلحظ أن عض الأنامل ، ووضع الأصابع فى الآذان ، ولى الألسنة ، والنأى بالجانب ، والتمطى ؛ كلها علامات حركية مفارقية ، تتعارض مع حقائق وأحداث لغوية مدلول عليها فى قرينة المفارقة وما يرتبط بها من قرائن ووحدات نصية

---

(٥٢٢) الدخان ٤٩ .

(٥٢٣) تفسير القرآن العظيم ، مرجع سابق ٤/٤٥١ .

(٥٢٤) Enkvist, Linguistic Stylistics, ibid, p. 88.

أخرى ؛ فوضع الأصابع فى الآذان ، يتعارض مع حقيقة العجز عن دفع الموت • ولى الألسنة يتعارض مع حقيقة حفظ الكتاب عن التحريف ، مهما كان من أمر هذا الى • والنأى بالجانب ، يتعارض مع حقيقة كيفية مقابلة الانعام • والتمطى يتعارض مع فضل الاستجابة لداعى الحق ، بما يدل عليه التمطى - كما رأينا - من زهو وعجب لا محل لهما ولا معنى !

قائمة المصطلحات

A

Absentia	(علاقة) غيابية
Absurd	(قضية) باطلة لدرجة السخف
Address	خطاب
(direct address)	خطاب مباشر
Allusive	تلميحي
(allusive remark)	اشارة تلميحية
Analysis	تحليل
(discourse analysis)	تحليل الخطاب
Antiphrasis	مغايرة
Antonymy	(علاقة) تضاد
Attitude	سلوك
Audience	استماع
(double audience)	ازدواجية الاستماع

B

Back	(صوت) خلفي
Bedeutung	معنى ، دلالة
(Bedeutungsbeziehung)	علاقة دلالية
(wesenhafte Bedeutung)	علاقة دلالية جوهرية

C

Category	مقولة
Cohesion	تماسك
Collocation	مصاحبة
Communication	توصيل ، تبليغ
(meta-communication)	ما وراء التبليغ
(communication chain)	سلسلة تبليغية
Centext	سياق
(activated context)	(علاقة) ايجابية من السياق
(actual context)	السياق الراهن
Contextual	سياقي
(contextual framework)	الاطار السياقي

Continuant	(صوت) استمرارى
Contradiction	مناقضة
(flat contradiction)	مناقضة صريحة
Contrast	تضاد
(ironic contrast)	تضاد مفارقى
Converseness	تضاد عكسى
Covert	صريح ، مباشر
(covert meaning)	معنى صريح أو مباشر

D

Declarative	ايضاحى
(declarative structures)	أبنية ايضاحية
Deep	عميق
(deep meaning)	معنى عميق
Directional	اتجاهى
(directional opposition)	تضاد اتجاهى
Directive	(مقولة) التوجيه
Discourse	خطاب
(discourse analysis)	تحليل الخطاب
Discoursal	خطابى
(discoursal function)	وظيفة خطابية
Drammatic	درامى
(drammatic irony)	مفارقة درامية
Duplicity	مخادعة
(duplicity of meaning)	مخادعة المعنى

E

Elicitation	(مقولة) الافصاح
Equilibrium	توازن
(equilibrium of oppositions)	توازن الاضداد
Euphemistisch	تلميحى تلطيفى
(ironisch euphemistisch)	تعبير تلميحى تلطيفى تهكمى
Event	حدث
(course of events)	متوالية من الاحداث
Exaggeration	مبالغة
Exophoric	(علاقة) برانية

Expressive	تعبيرى
(expressive power)	الطاقة التعبيرية

F

Falling	انخفاض
(sustaining falling)	الانخفاض عند الوقف
Field	حقل
(semantic field)	حقل دلالى
Form	صيغة
(literal form)	صيغة حرفية
Framework	اطار
(contextual framework)	الاطار السياقى
(topic framework)	اطار المحور
Frequence	ذبذبة
(fundamental frequence)	ذبذبة رئيسية

G

Gegenbedeutung	المعنى العكسى
Gegenteil	الضد
(positives gegenteil)	الضد الايجابى
Gleichzeitigkeit	تماثل
(temporale gleichzeitigkeit)	تماثل زمنى
Gradable	متدرج

H

Hint	الالماع

I

Illocutionary	يتعلق بالمغزى
(illocutionary act)	حدث المغزى
Imperative	أمرى
(imperative structure)	ابنية أمرية
Implicit	ضمنى
(implicit meaning)	معنى ضمنى

Incompatibility	عدم التكافؤ
Informative	(مقولة) الاخبار
Innuendo	المماع
Insinuation	التلميح
Intonation	التنغيم
Ironic	مفارقى
(ironic contrast)	تضاد مفارقى
(ironic intention)	القصد الساخر
(ironic interpretation)	تفسير مفارقى
(ironic signal)	علامة مفارقية
(ironic statement)	عرض مفارقى نقضية ما
Ironisch	مفارقى
(ironisch euphemistisch)	تلميحى تهكمى
Irony	مفارقة
(irony mask)	قناع المفارقة
(irony of tone)	مفارقة النغمة
(irony signal)	علامة مفارقية
(drammatic irony)	مفارقة درامية
(structural irony)	مفارقة بنائية
(sustained irony)	مفارقة مدعمة
(verbal irony)	مفارقة لفظية

K

Kontext	سياق
(Rede Kontext)	سياق الخطاب

L

Lexical	معجمى
(lexical cohesion)	تماسك معجمى
(lexical field)	حقل معجمى
Literal	حرفى
Literally	حرفيا
Locutionary	عنصر لغوى
Loudness	علو الصوت
Low	(صوت) منخفض

M

Marker	علامة
Mask	قناع
(irony mask)	قناع المفارقة
Meaning	معنى
(allegorical meaning)	معنى مجازى
(covert meaning)	معنى مباشر ، صريح
(deep meaning)	معنى عميق
(direct meaning)	معنى مباشر
(implicit meaning)	معنى ضمنى
(literal meaning)	معنى حرفى
(oblique meaning)	معنى غير مباشر
(surface meaning)	معنى سطحى
(utterance meaning)	معنى المنطوق
Meta-communication	اشارة توضح طبيعة الرسالة
Metaphor	استعارة
Metaphorical	استعارى
(metaphorical utterance)	منطوق استعارى

N

Narrator	راو
Nonback	(صوت) غير خلفى
Nonlow	(صوت)غير منخفض
Nonstrident	(صوت (غير خشن
Nonverbal	غير لفظى
(nonverbal communication)	اتصال غير لفظى

O

Oblique	مستور ، غير مباشر
(oblique meaning)	معنى مستور ، غير مباشر
Occasional	عرضى
(occasional irony)	مفارقة عرضية
(occasional verbal irony)	مفارقة لفظية عرضية
Onomatopœia	محاكاة
(secondary onomatopœia)	محاكاة ثانوية

Opposite	(المعنى) المضاد
Opposition	تضاد
Orthogonal	عمومي
(orthogonal opposition)	تضاد عمومي
Overt	مباشر
(overt meaning)	معنى مباشر
Oxymoron	الجمع بين نقطتين متضادتين

P

Paradox	التناقض الظاهر
Paralinguistic	(وسائل) ما فوق اللغة
Paratone	مجموعة نغمية
Peak	قمة
Pitch	درجة الصوت
Positive	سلبي
Praesenta	علاقة حاضرة

R

Rede	خطاب
(Rede Kontext)	سياق الخطاب
Relation	علاقة
Relationskonstant	السمة الثابتة للعلاقة
Remark	اشارة
(allusive remark)	اشارة تلميحية
Ridicule	هزء أو سخرية
Rhythm	ايقاع

S

Sarcasm	تهكم ، سخرية
(sarcasm of tone)	تهكمية النغمة
Selektion	اختيار
Selektionsrestriktion	محدد الاختيار
Semantic	دلالي
(semantic field)	حقل دلالي
Sentence	جملة
(sentence meaning)	معنى الجملة

Signal	علامة
(irony signal)	علامة مفارقية
Sinnganzes	الكل الدلالى ، المجموع الدلالى
Situation	موقف
Speech	لغة ، كلام
(speech act)	الحدث اللغوى ، الكلامى
Spokesman	راو
(naive spokesman)	راو ساذج
Sprechakt	حدث لغوى
(sprechakt situation)	سياق الحدث اللغوى
Stimuli	مثير
(textual stimuli)	مثير نصى
Stop	(صوت) غير استمرارى (= وقفى)
Stress	نبر
Strident	(صوت) خشن
Structural	بنائى
(structural feature)	خاصة بنائية
(structural irony)	مفارقة بنائية

T

Tempo	طريقة الاداء
Temporale	زمنى
(temporale Gleichzeitigkeit)	تماثل زمنى
Tension	توتر
Text	نص
(text linguistics)	علم اللغة النصى
Tone	نغمة
(elevated tone)	نغمة عالية سامية
(irony of tone)	مفارقة النغمة
(tone of voice)	نغمة الصوت
Topic	محور
(topic framework)	اطار المحور
Trope	شكل مجازى

U

Utterance	منطوق
(utterance meaning)	معنى المنطوق
(ironical utterance)	منطوق مفارقى
(literal utterance)	منطوق حرفى
(metaphorical utterance)	منطوق استعارى
(speaker's utterance)	منطوق المتكلم

V

Verbal	لفظى
(verbal irony)	مفارقة لفظية
(verbal warfare)	صراع لفظى
Voice	صوت
(tone of voice)	نغمة الصوت

مراجـع البحث

- أبراهيم أنيس (دكتور) :

١ - فى اللهجات العربية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الرابعـة (١٩٧٣م) .

- أحمد مختار عمر (دكتور) :

٢ - علم الدلالة ، الناشر : عالم الكتب ، الطبعة الثـانية ، القـاهرة (١٩٨٨م) .

- الأزهرى (أبو منصور محمد) :

٣ - المستدرك على الأجزاء السـابع والثامن والتاسـع من التهذيب ، تحقيق دكتور رشيد عبد الرحمن العبيدى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة (١٩٧٥م) .

- أسعد رزوق (دكتور) :

٤ - موسوعة علم النفس ، المؤسسـة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، الطبعة الثالثة (١٩٨٧م) .

- الأصبهانى (الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصبهانى) :

٥ - المفردات فى غريب القرآن ، أعده للنشر وأشرف على الطبع دكتور محمد أحمد خلف الله ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، د.ت .

- الجو (كونغ) :

٦ - نظرية علم النسانيات الحديث وتطبيقها على أصوات العربية ، مجلة الدارة ، العدد الثالث ، السنة السابعة عشرة (ربيع الآخر - جمادى الأولى - جمادى الآخرة) (١٤١٢هـ) .

- ابن الأنباري (أبو بكر) :

٧ - الأضداد ، تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم ، الكويت (١٩٦٠م)

- البخاري (محمد بن اسماعيل بن المغيرة) :

٨ - صحيح البخاري بحاشية السندي ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، د.ت .

- بروكس (كلينث) :

٩ - لغة المفارقة ، ترجمة محمد منصور أبي حسين ، مجلة الدارة ، العدد الثاني ، السنة السادسة عشرة (المحرم - صفر - ربيع الأول) (١٤١١هـ) .

- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) :

١٠ - البيان والتبيين ، دار احياء التراث العربي - دار الفكر للجميع بيروت (١٩٦٨م) .

- الجرجاني (عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد) :

١١ - دلائل الاعجاز ، طبعة السيد محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م) .

- ابن جني (أبو الفتح عثمان) :

١٢ - الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، د.ت .

- حسن رجب (دكتور) :

١٣ - أدب الاسلام وعلم الاتصال ، مقالة فى كتاب : مقالات فى الدعوة والاعلام الاسلامى ، كتاب الأمة (٢٨) ، رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية بدولة قطر ، الطبعة الأولى (رجب ١٤١١هـ) .

- الخطيب القزوينى :

١٤ - الايضاح فى علوم البلاغة ، شرح وتعليق وتنقيح دكتور محمد عبد المنعم خفاجى ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، الطبعة الرابعة (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م) .

- الخفاجى (أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان) :

١٥ - سر الفصاحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م)

- الدامغانى (الحسين بن محمد) :

١٦ - قاموس القرآن أو اصلاح الوجوه والنظائر فى القرآن الكريم ، تحقيق عبد العزيز سيد الأهل ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الخامسة (١٩٨٥م) .

- رمضان عبد التواب (دكتور) :

١٧ - فصول فى فقه العربية ، مكتبة الخانجى بالقاهرة ، ودار الرفاعى بالرياض ، الطبعة الثانية (١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م) .

- روشكا (ألكسندرو) :

١٨ - الابداع العام والخاص ، ترجمة دكتور غسان عبد الحى أبو فخر ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت (١٩٨٩م) .

- ريتشاردز ، أ.ا. :

١٩ - مبادىء النقد الأدبى ، ترجمة دكتور مصطفى بدوى ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ، القاهرة (١٩٦٣م) .

- الزركشى (بدر الدين محمد بن عبد الله) :

٢٠ - البرهان فى علوم القرآن ، دار المعرفة للطبـاعة والنشر ، بيروت (١٩٧٢م) .

- الزمخشرى (أبو القاسم جار الله محمود بن عمر) :

٢١ - أساس البلاغة ، تحقيق عبد الرحيم محمود ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م) .

٢٣ - الكشاف عن حقـائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل ، دار المعرفة ، بيروت ، د.ت .

- السكاكى (أبو يعقوب يوسف بن أبى بكر محمد بن على) :

٢٣ - مفتاح العلوم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ت .

- سلمان حسن العانى (دكتور) :

٢٤ - التشكيل الصوتى فى اللغة العربية (فونولوجيا العربية) ترجمة دكتور ياسر الملاح ، مراجعـة دكتور محمـد محمود غالى ، النادى الأدبى الثقافى بجدة ، الطبعة الأولى (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) .

- سيبويه (أبو بشر عمر بن عثمان) :

٢٥ - الكتاب ، منشورات مؤسسة الأعلمى للمطبوعات ، بيروت ، الطبعة الثانية (١٩٦٧م) ، وبتحقيق عبد السلام محمد هارون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٧٣م) .

- سيزا قاسم (دكتورة) :

٢٦ - المفارقة فى القص العربى المعاصر ، مجلة فصول ، المجلد الثانى ، (يناير - فبراير - مارس) (١٩٨٢م) .

- سـيد قطب :

٢٧ - التصـوير الفنى فى القـرآن ، دار الشروق ، الطبعـة العـاشرة (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م) .

٢٨ - في ظلال القرآن ، دار الشروق ، الطبعة الحادية عشر (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م) .

٢٩ - مشاهد القيامة في القرآن ، دار الشروق (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م) .

- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن) :

٣٠ - الاتقان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم ، دار التراث ، القاهرة ، الطبعة الثالثة (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م) - وطبعة المكتبة الثقافية ، بيروت (١٩٧٣م)

- الشوكاني (محمد بن علي بن محمد) :

٣١ - فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، د.ت .

- صبحي الصالح (دكتور) :

٣٢ - مباحث في علوم القرآن ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة السابعة عشرة ، د.ت .

- ابن طباطبا (محمد بن طباطبا العلوي) :

٣٣ - عيار الشعر ، شرح وتحقيق عباس عبد الساتر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م) .

- أبو الطيب اللغوي :

٣٤ - الأضداد في كلام العرب ، تحقيق دكتور عزة حسن ، دمشق (١٩٦٣م) .

- عائشة عبد الرحمن (دكتورة) :

٣٥ - التفسير البياني للقرآن الكريم ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة (١٩٧٧م) .

- عبد الحليم حفني (دكتور) :

٣٦ - التصوير الساخر فى القرآن الكريم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩٢م) .

- أبو عبيدة (معمر بن المثنى التيمى) :

٣٧ - مجاز القرآن ، عارضه بأصوله وعلق عليه دكتور محمد فؤاد سزكين ، مكتبة الخانجى بمصر ، د.ت .

- عز الدين اسماعيل (دكتور) :

٣٨ - قراءة فى معنى المعنى عند عبد القاهر الجرجانى ، مجلة فصول المجلد السابع ، العددان الثالث والرابع (ابريل - سبتمبر) (١٩٨٧م) .

- العسكرى (أبو هلال) :

٣٩ - الفروق فى اللغة ، تحقيق لجنة احياء التراث العربى فى دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، الطبعة الرابعة (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م) .

- العكبرى (أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله) :

٤٠ - املاء ما من به الرحمن من وجوه الاعراب والقراءات فى جميع القرآن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م) .

- العلوى (يحيى بن حمزة بن على بن ابراهيم العلوى) :

٤١ - كتاب الطراز ، مكتبة المعارف ، الرياض ، د.ت .

- غاتشف (غيورغى) :

٤٢ - الوعى والفن ، ترجمة دكتور نوفل نيوف ، مراجعة دكتور سعد مصلوح ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م)

- غيرو (بيير) :

٤٣ - السيمياء ، ترجمة أنطوان أبي زيد ، منشورات عويدات ، بيروت، الطبعة الأولى (١٩٨٤م) .

- الفراء (أبو زكريا يحيى بن زياد) :

٤٤ - معاني القرآن ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الثالثة (١٤٠١هـ ١٩٨٣م) .

- قطرب (أبو علي محمد بن المستنير) :

٤٥ - الأضداد ، نشره هانز كوفلر ، مجلة اسلاميكا (١٩٣٢م) .

- ابن قيم الجوزية (شمس الدين محمد بن أبي بكر) :

٤٦ - التبيان في أقسام القرآن ، صححه وعلق هوامشه محمد حامد الفقي ، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م) .

- ابن كثير (الحافظ عماد الدين أبو الفداء اسماعيل) :

٤٧ - تفسير القرآن العظيم ، دار المعرفة ، بيروت (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م)

- كوهين (جان) :

٤٨ - بناء لغة الشعر ، ترجمة الدكتور أحمد درويش ، مكتبة الزهراء ، القاهرة (١٩٨٥م) .

- لاينز (جون) :

٤٩ - اللغة والمعنى والسياق ، ترجمة الدكتور عباس صادق الوهاب ، وزارة الثقافة والاعلام ، دار الشئون الثقافية العامة ، بغداد (١٩٨٧م) .

- المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد) :

٥٠ - الكامل في اللغة والأدب ، مكتبة المعارف ، بيروت - د.ت .

- المحلي (جلال الدين) - السيوطي (جلال الدين) :

٥١ - تفسير الجلالين ، على هامش المصحف الشريف ، دار المعرفة ، بيروت ، د٠ت ، وطبعة دار العلم للملايين ، اعداد وتنسيق مصطفى قصاص ، بيروت (١٤١١هـ - ١٩٩٠م) ٠

- محمد الأنطاكى :

٥٢ - الوجيز فى فقه اللغة ، مكتبة الشهباء للطباعة والنشر والتوزيع ، حلب (١٩٦٩م) ٠

- محمد العبد (دكتور) :

٥٣ - اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة : بحث فى النظرية ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة - باريس ، الطبعة الأولى (١٩٩٠م) ٠

-ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم) :

٥٤ - لسان العرب ، طبعة دار المعارف بمصر ، د٠ت ٠

- نبيلة ابراهيم (دكتورة) :

٥٥ - المفارقة ، مجلة فصول ، المجلد السابع ، العددان الثالث والرابع (ابريل - سبتمبر) (١٩٨٧م) ٠

- ابن هشام (جمال الدين بن هشام الأنصارى) :

٥٦ - مغنى اللبيب ، دار احياء الكتب العربية (عيسى البابى الحلبى) د٠ت

- ويلز (رولون س ٠) :

٥٧ - علم اللغة الحديث : الأسس الأولى ، ترجمة دكتور يوليل يوسف عزيز ، دار الشئون الثقافية العامة بوزارة الثقافة والاعلام، بغداد (١٩٨٦م) ٠

٢ ـ المراجع الأجنبية

— **Abrams, M., H.,**

1. A Glossary of Literary Terms, Holt Reinehart and Winston, 4th Edition (1981)

— **Abrams et. al.,**

2. The Norton Anthology of English Literature, Volume 1, 5th Edition, New York, London (1976)

— **Alston, William,**

3. Theories of Meaning, in : Theory of Meaning, USA (1970).

— **Birdwhistell, L.,**

4. A Kinesic - Linguistic Exercise, in : Directions in Socialinguistics, Ed. by John J. Gumperz and Dell Hymes, Basil Blackwell (1989).

— **Bloomfield, L.,**

5. Language, Uni. of Chicago, USA (1984).

— **Brekle, Herbert, E.,**

6. Semantik, Eine Einfuehrung in die Sprachwissenschaftliche Bedeutungslehre, 2e. verbesserte Auflage, Wilhelm Fink Verlag, Muenchen (1972)

— **Brown, Gillian / Yule, George,**

7. Discourse Analysis, Cambridge Uni. Press (1983)

— **Coseriu, Eugenio,**

8. Textlinguistik, Eine Einfuehrung, Gunter Narr Verlag, 2., durchges. Auflage, Tuebingen (1981).

— **Coulthard, Malcolm,**

9. An Introduction to Discourse Analysis, Longman Group, LTD, England, 6th impression (1983)

— **Enkvist, Nils Erik,**

10. Linguistic Stylistics, Mouton, The Hague — Paris (1973)

— **Firth, J., R.,**

11. The Tongues of Men and Speech, Oxford Uni. Press, London (1978).

— **Fleischer, Wolfgang / Michel, Georg,**

12. Stilistik der deutschen Gegenwartssprache, VEB Bibliographisches Institut, Leipzig (1977)

— **Fowler, H., W.,**

13. A Dictionary of Modern English Usage, Oxford (1926)

— **Glinz, Hans,**

14. Textanalyse und Verstctehenstheorie. 2., verbesserte Auflage, Akademische Verlagsgesellschaft Athenaion, Wiesbaden (1977)

— **Gosling, John,**

15. Kinesics in Discourse, in : Studies in Discourse Analysis, ed. by M. Coulthard, M., Montgomery, Routledge — London and New No. 137 (1974).

— **Grabe, William,**

16. Written Discourse Anaysis, ARAL, Vol. 5, USA (1985)

— **Grice, H., P.,**

17. Logic and Conversation, in (eds.) P. Cole and J. Morgan : Syntax and Semantics 3 : Speech Acts, New York, Academic Press (1975)

.. **Halliday, M., A., K., /Hassan, Ruqaiya,**

18. Cohesion in English, 4th Impression, Longman Group, LTD, London (1983).

— **Hartmann, R., R., K.,**

19. Contrastive Textology, Comparative Discourse, Julius Groos Verlag, Heidelbedg (1980).

— **Hoey, M., P.,**

20. On the Surface of Discourse, George Allen and Unwin, London (1983).

— **Jeffery, Arthur,**

21. The Foreign Vocabulary of the Qur'an, Oriental Institute, Baroda (1938).

— **Leech, N., Geoffrey,**

22. A Linguistic Guide to English Poetry, 7th Impression, London (1979).

— **Lehrer, A.,**

23. Semantic Fields and Lexical Structures, Amsterdam — London (1974).

— **Lyons, John,**

24. Semantics, Vol. 1, Cambridge Uni. Press (1977).

— **Searle, John, R.,**

25. Expression and Meaning, Studies in the Theory of Speech Acts, Cambridge Uni. Press (1993).

— **Seidler, Herbert,**

26. Allgemeine Stilistik, 2., neubearbeitete Auflage, Goettingen — Vandenhoeck und Ruprecht (1963).

— **Sowinski, Bernhard,**

27. Textlinguistik, Eine Einfuehrung, Verlag W. Kohlhammer, Stuttgart — Berlin — Köln — Mainz (1983).

— **Stubbs, Michael,**

28. Discourse Analysis, The Sociolinguistic Analysis of Natural Language, Basil Blackwell. Oxford (1989).

— **Van Dijk, T., A.,**

29. Text and Context, Explorations in the Semantics and Pragmatics of Discourse, Longman, London and New York (1977).

— **Vassilyev, L., M.,**

30. The Theory of Semantic Fields, in : Linguistics, No. 137 (1974)

—**Ullmann, Stephen,**

31. Meaning and Style, Basil Blackwell, Oxford (1973)

الفهـــــرس

	الصفحة
تقـــــديم	٧
البـــاب الأول	
مـــدخل الى نظرية المفارقة	١٣
الفصل الأول : مفهـــوم المفـــارقة	١٥
الفصل الثانى : المفـــارقة ومعنى المعنى	٢٧
الفصل الثالث : المفـــارقة والســـياق	٣٩
البـــاب الثانى	
المفارقة فى النص القرآنى	٤٩
مدخـــل	٥١
الفصل الأول : مفـــارقة النغمـــة	٥٣
الفصل الثانى : المفـــارقة اللفظيـــة	٧١
الفصل الثالث : مفـــارقة الحكاية أو الايهام	١١١
الفصل الرابع : المفـــارقة البنـــائية	١٤١
الفصل الخامس : الالمـــــاع	١٥٢
الفصل السادس : مفارقة المفهوم أو التصور	١٦٥
الفصل السابع : مفارقة السلوك الحركى	١٨٩
قائمـــة المصطلحـــات	٢٢٧
مراجـــع البحـــث :	٢٣٥
المراجـــع العربيـــة	٢٣٥
المراجـــع الأجنبيـــة	٢٤٣